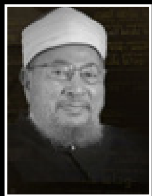
العدد ٦ نوفمبر ٢٠٢٢ ربيع الثاني ١٤٤٤

الأمين العام للهيئة
د. محمد الصغير

رئيس التحرير
محمد إلهامي

أنصار النبي صلى الله عليه وسلم

تصدر عن
الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ



خصصنا قسم
العلماء الراحلين من العدد
لتراث الشيخ العلامة
يوسف القرضاوي رحمه الله

مجلة أنصار النبي ﷺ

تصدر عن الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ



أهداف الهيئة

تضع الهيئة هدفها الرئيسي على هذا النحو:

«أن يكون جناب النبي ﷺ مصوناً محترماً، وأن تكون الإساءة إليه مجرمة قانوناً في سائر أنحاء العالم» وهو الهدف الكبير الذي يحتاج إلى عمل ضخم ودؤوب على كافة المستويات.

وقبل الوصول إليه لا بد من إنجاز مراحل مهمة في التعريف بالنبي ﷺ، كذلك لا بد من إنجاز مراحل مهمة في حشد الجهود مع المسلمين والعقلاء من غير المسلمين لتجريم الإساءة إلى النبي ﷺ قانونياً في البلدان المختلفة، وهو الأمر الذي يتطلب خبرات متنوعة عالية المستوى.

السياسة العامة لعمل الهيئة

إن قضية نصرة النبي ﷺ قضية كبيرة لا يمكن أن تنهض بها جهة واحدة مهما بلغت من القدرات والإمكانيات، وكذلك فإن «الهيئة العالمية لنصرة النبي ﷺ» اختطّت لنفسها سياسة عامة تقوم على تفعيل الطاقات الإسلامية واستثمارها والتنسيق بينها، بحيث تبلغ المجهودات المبذولة في نصرة النبي ﷺ أقصى نتائج ممكنة.

تضع الهيئة نفسها في موضع التنسيق والتنظيم بين المؤسسات الإسلامية المختلفة لتأدية واجب نصرة النبي ﷺ، فهي تعمل -على سبيل المثال- على استثمار طاقة الجاليات الإسلامية المقيمة في البلاد المختلفة لحصر أهم الشبهات والقضايا المثارة عن النبي ﷺ والتي تحتاج مجهودا علميا وفكريا لتفنيدها، ثم تعمل على حث طاقة المؤسسات العلمية من الجامعات الإسلامية والمعاهد والأكاديميات والروابط العلمائية على معالجة هذه الشبهات، ثم تعمل على تحويل هذا المجهود الفكري والعلمي إلى معالجات فنية متنوعة: مقروءة ومسموعة ومرئية قريبة إلى لغة العصر والمزاج العام السائد لدى الرأي العام المعاصر، وذلك عبر حث الطاقات القائمة في مجال الإعلام والإنتاج الفني لدى المؤسسات الإسلامية على معالجة هذه الأفكار. تستثمر هذه الأطراف جميعها طاقاتها الموجودة فعلاً في تسويق المنتجات النهائية.

وبهذا تتوجه المجهودات والطاقات القائمة نحو هدف نصرة النبي ﷺ بطريقة فعالة ومنسقة، حيث تؤدي كل جهة دورها الذي تحسنه.

محتويات العدد

علماء الهيئة

أنصار النبي ﷺ

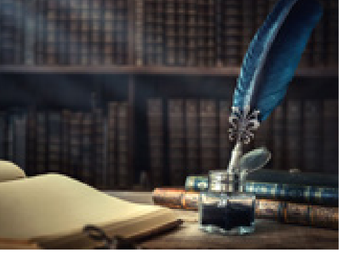
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

تصدر عن الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

AnsarMagazine

الأمين العام للهيئة
د. محمد الصغير

رئيس التحرير
محمد إلهامي

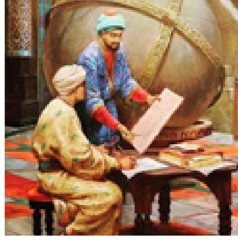


















أئمة الهدى

الصادعون بالحق

ترحب مجلة « أنصار النبي ﷺ » بمشاركات السادة القراء الكرام على هذا النحو:

١ كتابة المقال، وأن يكون مقالاً لا تنقصه الرصانة العلمية ولا العاطفة الدعوية، على ألا يتجاوز في أقصى الأحوال ١٥٠٠ كلمة، مذيلاً بالاسم الحقيقي لصاحبه.. ويتعلق بموضوع المجلة عن التعريف بالنبي ﷺ وشمائله وفضائله وأخلاقه ورحمته بأمته والتذكير بحقه وواجبات الأمة نحوه، والدفاع عن سنته ومحبة آل بيته وصحابته، ورد الشبهات عنه.

٢ ترشيح مادة كتبها عالم من العلماء الراحلين، أو من المؤسسات الإسلامية العريقة كالأزهر في مصر وهيئة كبار العلماء في الجزيرة وندوة العلماء في الهند تتعلق بموضوعات المجلة.. مع التوثيق الدقيق لهذه المادة: في أي كتاب أو مجلة نشرت بالصفحة وتاريخ الطبعة، أو رابط المادة على الانترنت.

أو ترشيح مادة كتبها أحد العلماء والدعاة الأسرى فيما يتعلق بموضوع المجلة، مع التوثيق الدقيق لمصدرها.

٣ تفريغ مادة صوتية لأحد العلماء -الراحلين أو الأسرى- مع توثيق مصدرها.

• ولا نستغني أبداً عن مجهود القراء ومساعدتهم في نشر المجلة أو في ترجمتها إلى لغات أخرى أو في طباعتها وتوزيعها في بلدانهم، فحقوق الطبع والتوزيع محفوظة لكل مسلم.

• ترسل المشاركات على البريد الإلكتروني التالي : admin@ansarmag.com

الافتتاحية

أكاديمية نصرة نبي الإسلام

بشرى جديدة في ذكرى انطلاقة الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ



د. محمد الصغير

الأمين العام للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ



في السادس والعشرين من شهر أكتوبر، وفي مثل هذا اليوم قبل عام من الآن، انطلقت الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ، والتي من ثمارها أنصار النبي ﷺ، التي تجمع في أقسامها الثلاثة بين نبض العلماء العاملين، وعبق العلماء الراحلين، وتتوج ذلك بنفح المسك من تراث العلماء الأسرى والمعتقلين، وكأنهم قد كتبوا هذا للمجلة أو استكتبتهم فيه، بما يؤكد أن هؤلاء الأفذاذ، قد ضربوا في كل غنيمة صالحة بسهم، ولذا رماهم أعداء الحقيقة بسهام الإبعاد والإخفاء والتغييب.

ومع بداية العام الثاني، تعلن الهيئة العالمية لنصرة خير البرية عن مشروعها الأكبر في نصرة رسول الله ﷺ والدفاع عنه وعن قضايا أمته، من خلال الأكاديمية العالمية لعلوم النصرة النبوية، أو أكاديمية الأنصار، من خلال تقديم فقه النصرة وعلومها، وإضافة هذا العلم لأقسام علوم الشريعة، إلى جوار علوم القرآن الكريم، وعلوم السنة المطهرة.

وترمي الأكاديمية إلى تخريج أجيال من الدعاة إلى الله على بصيرة، متعمقة في الأصالة، متسلحة بالمعاصرة، ومتدربة على الوسائل الحديثة للاستفادة منها وتطويرها، وسعياً لسد ثغرة وفجوة بدأت تتسع عن عمد لإبعاد الناس عن كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، وتجهيلهم في كل ما يتعلق بالثقافة الإسلامية، لذا ستعمل الأكاديمية بإذن الله تعالى على مسارين:



الدبلوم العام: ويعتني بما يمكن أن نطلق عليه ما لا يسع المسلم جهله.

والدبلوم الخاص: في علوم النصرة وفقه الدفاع عن النبي ﷺ وردّ الشبهات عن أصحابه وآل بيته، والتمكن من الوسائل المعينة على ذلك.

وخلال فترة العامين ستقدم الأكاديمية دورات قصيرة ومتوسطة، تكون بمثابة عجالة الراكب وأنشوطة الخاطب، وفاتحة تشويقية لارتباط الدارسين بالأكاديمية ورسالتها، وتزويدهم ببعض المعارف الهامة، المتعلقة بالجناب النبوي، ورد شبَه المستشرقين والحاقدين على العقيدة والشريعة.



وتأتي أهمية هذه الأكاديمية ليس من باب التعليم والإجازة فحسب، وإنما تُكسب مهارات علمية وذاتية للدراسين، وتجعل الأساتذة والمدرسين على مدراج السالكين الأولين، وتضع النواة الصالحة للموقعين عن رب العالمين، والصيارفة المخلصين الذين ينافحون عن حياض السنة، ويحفظونها من دخيل العابثين، وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين.

ونأمل أن تكون لبنة قوية في بنيان الأمة وتكوينها العلمي، وسبباً في حفظ السيرة ونشر السنة، ونصرة نبي الأمة ﷺ، ونكون فيها جميعاً بين مفيد أو مستفيد، «فالدنيا معلونة، معلون ما فيها، إلا ذكر الله، وما والاه وعالماً أو متعلماً».

وهذا العمل تتسع مظلته لتشمل كل محب لرسول الله ﷺ وراغب في نصرته، والدفاع عنه وإكمال ما بدأه السلف الأوائل في حمل رايته وإكمال مسيرته، ولذا ينبغي أن تتصافر جهود كل أبناء الأمة لإتمام هذا المشروع، وما رفع أحد لواء السنة أو راية النصرة، إلا رفع الله ذكره وأعطاه سؤله، وشعارنا في ذلك:

إن فاتنا شرف الصحبة، فلا يفوتنا شرف النصرة.

المحدثون وعلم الحديث.. فخرنا الخالد



محمد إلهامي (رئيس التحرير)

عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

بعد تسع سنوات من الحكم الشمولي الرهيب، وقف عبد الفتاح السيسي في كلمته نهاية المؤتمر الاقتصادي بتاريخ ٢٥ أكتوبر ٢٠٢٢م، يشكو من أن الأزهر لا يطاوعه فيما يريد، وضرب مثلاً على ذلك بموضوع الطلاق الشفوي، فالسيسي يريد من الأزهر أن يفتي بأن الطلاق الشفوي لا يقع، ولا يقع الطلاق بين الرجل وامرأته إلا بتوثيقه في المحكمة.

هذا مع أن السيسي -كما اعترف وزير العدل في المؤتمر نفسه- ماضٍ في إعداد قانون للأسرة، ومع أن شيخ الأزهر الحالي من رجال الدولة المهادنين، ومع أن الأزهر في أضعف حالاته عبر التاريخ تجاه السلطة!

وإذن، فالصورة على هذا النحو: لم يستطع طاغية في عنفوان قوته أن يستخرج من مؤسسة دينية إسلامية في أقصى حالات ضعفها، وتحت رئاسة رجل مهادن تابع للدولة، لم يستطع أن يستخرج منها تغييراً في حكم فقهي!

يقف الإسلام هذا الموقف في ذات الوقت الذي هُزِمت فيه المسيحية أمام العلمانية وخضعت تماماً لسلطة الدولة، وأجازت بل رحبت بما كان محرماً تحريماً قطعياً، كزواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، وكالتحول الجنسي للذكر والأنثى، وغيرها. وكذلك هُزِمت اليهودية أمام تيار الحداثة، فحتى دولتها الصغيرة يحكمها النظام العلماني، وطبيعة الحياة فيها هي أقرب للحياة الغربية العلمانية، وليست لشريعتها اليهودية.

إن الحضارة الغربية أنتجت نظاماً تهيمن فيه الدولة على الدين، ويكفي أن يُقِرَّ برلمانها قانوناً لتخضع له الأديان، فالديمقراطية فوق الدين وهي المهيمنة عليه والمتحكمة فيه.



وهذا المشهد ينبغي أن يوقفنا أمام هذا السرِّ العظيم في الإسلام، السر الذي يجعل الدين متسامياً على السلطة، فهو فوق الدولة، بل الدولة ذاتها بنت الدين، إذ نشأت الدولة في الإسلام من رحم الدين، ونشأت لتقيمه وتقوم بشأنه، والدين هو المرجعية العليا، وهو الذي تستمدُّ الدولةُ شرعيتها منه، والمسلمون يطيعون هذه السطلة ما كانت ملتزمة بهذه المرجعية، وهم ينصحونها ويقومونها وفقاً لهذه المرجعية، أو هم يثورون عليها ويخلعونها ويرون ألا طاعة لها عليهم إذا نبذت هذه المرجعية وانخلعت عنها.

وقد زعم السيسي أن جهازاً أمنياً عرض مسألة الطلاق الشفوي على مجلس من العلماء، فأقروه، فلما طالبهم أن يُعلنوا هذا رفضوا قائلين: لو أننا أعلنَّا إقرارنا له، فسيظهر أننا نؤيد السلطة ونوظِّف الدين لها.



فلو أنه صدق في هذا، ولست أصدقه، فهذا الكلام نفسه دليلٌ على ما أنشأه الإسلام في علمائه وفي المجتمع من حساسية بين العلماء والسلطة، وأن العالِم يجتهد في أحرج أوقات ضعفه لئلا يكون محسوباً ضمن علماء السلطة. بينما ليس يجد الحبر والكاهن بأساً في أن يتبع الملك أو الإمبراطور صاحب السلطة الزمنية، فإن القسّ يعتنق أن «ما لقيصر لقيصر» وأن مملكته في السماء، وليس يجد القانوني والدستوري بأساً في الخضوع للرئيس والأمير في الدولة العلمانية، فإن تكوينه الفكري والثقافي والاجتماعي يجعله موظفاً ضمن نظام الدولة، وقد أشربته السلطة من مناهجها وأنشأته في أروقة نظامها، فهو دولتي بطبعه!

إن هذا هو المدخل الذي ندلف منه للإشارة إلى هذا البناء العظيم الشامخ الذي أقامه المحدثون، أولئك الرجال الذين جمعوا سنة النبي ﷺ فحفظوها ورووها ودونوها، وفهرسوا رواتها وفحصوهم فغربلوهم وتتبعوهم حتى منحوا أمتنا فخراً خطيراً ليس لأمة في التاريخ الإنساني مثله.

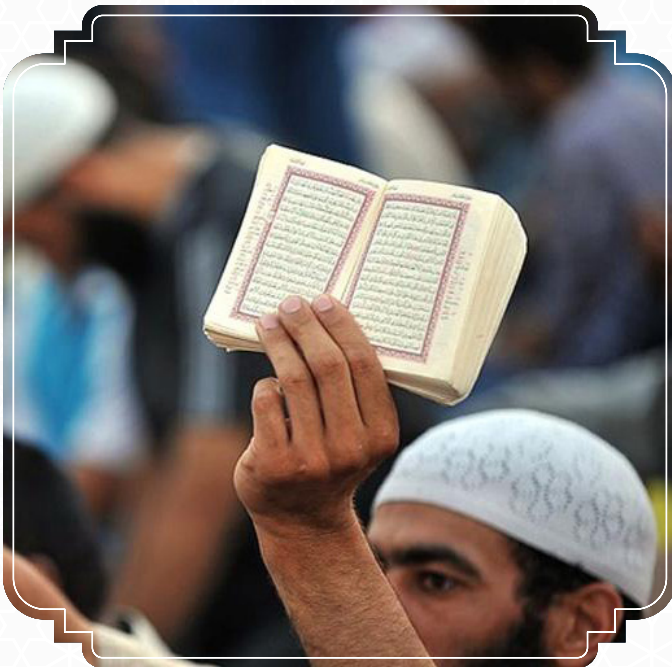
لقد حاول بعض الناس الطعن في المحدثين من جهة السياسة، فزعموا أن تدوين الحديث وتصحيحه وتضعيفه تأثر بالسياسة والسلطان، ثم لم يستطع واحدٌ منهم أن يقدِّم دليلاً واحدًا على حديث واحد صححه المحدثون، كُتِب أو دُوِّن برغبة السلطة! بل إن المنهج النقدي الصارم الذي أسسه المحدثون لو طُبِّق على التاريخ فلن يبقى لدينا تاريخ، لأنه ما من خبر من أخبار التاريخ يُروى بالسند المتصل من العدل الضابط عن مثله من مبتدئه إلى منتهاه، ولا تكتنفه شذوذ أو علة!

بل إن أرقى ما وصلت إليه مناهج البحث المعاصرة من التوثيق العلمي والصرامة المنهجية هي أقل من شروط الحديث الصحيح لدى المحدثين، ففي أرقى جامعة علمية في هذا العصر، يكفي الباحثَ أن يوثق معلومة أخذها إذا ذكر اسم الكتاب ومؤلفه والطبعة ورقم الصفحة. هذا نفسه لم يكن مقبولاً لدى المحدثين، بل كانوا ينظرون في صاحب الكتاب ويختبرون هل كان يكتبه بنفسه أم يمليه؟ وهل كان

ثمة أحد من ولده أو تلاميذه يمكن أن يُدخل في الكتاب ما ليس منه؟ وهل صاحب الكتاب يتذكر ما في كتابه جيداً أم يمكن إذا غولط في بعض معلوماته أن يغلط أو ينسى؟ ولهم في هذا مواقف عجيبة وطرائف غريبة من اختبار التلاميذ لشيوخهم ليحققوا ضبط النقل. هذه الشروط لا يمكن للباحث المعاصر في أرقى جامعة علمية معاصرة أن يحققها، إذ لا يمكن لأحدٍ يمسك بالكتاب أن يضمن تماماً كون كل كلمة فيه قد خطَّها المؤلف، وأن الكتاب سالمٌ من تدخل باحث مساعد أو مراجع لغوي أو محرر أو دار النشر، ثم كم في الباحثين المعاصرين من يستطيع الوصول إلى مؤلف كل كتاب، فيختبره في كتابه، فينظر إن كان قد نسي شيئاً منه أو لم يضبطه!

لذلك كله، استحال على الطاعنين أن يقدموا دليلاً واحداً على أن تدوين الحديث قد خضع لرغبة السلطة! وسائر ما كتبوه في هذا مجرد ثرثرة ولغو فارغ!

لقد ظن المستشرقون وتلاميذهم من العلمانيين أن المحدثين كانوا من علماء السلاطين، ذلك أنهم يتصورون العلاقة بين العلماء والسلطة كما كانت العلاقة بين الكنيسة والقصر في العصور الأوروبية الوسطى، أو بين مؤسسات الثقافة والسلطة في عصر الدولة الحديثة. لقد فات كثيراً منهم أن الإسلام لم تكن فيه هذه السلطة المتغولة، وأن نظامه جعل السلطة محدودة الصلاحيات، وأن طريقة التلقي العلمي للقرآن والسنة -من النبي إلى الصحابة إلى التابعين إلى تابعيهم وحتى مصنفي كتب الحديث- لم تكن تمرُّ عبر السلطة، ولم تكن تتأثر بها.



بل إن الأمة الوحيدة التي هزمت المعرفةُ فيها السلطة هي أمتنا الإسلامية، فبينما كان الحكم للأمويين والعباسيين، وبينما كان العلويون هم المعارضة المضطهدة سياسياً، كانت البيئة العلمية تزخر بالأحاديث الكثيرة المنتشرة في فضل علي رضي الله عنه، بينما تقل الأحاديث جداً في فضل معاوية والعباس -رضي الله عنهما- وهما أساس الدولتين الكبيرتين: الأموية والعباسية.

ما من أمة استطاع أهل العلم فيها أن يغلبوا سطوة السلطة وترويج ما يزعجها ويربكها سوى أمتنا الإسلامية، حتى إن الاحتكاك الوحيد المعروف بين العلماء والخليفة في عصر تدوين السنة كان هو قضية خلق القرآن، وهُزِمت فيها السلطة أيضاً. وسوى ذلك لا نعرف أن السلطة حاولت إجبار المحدثين على اختراع أحاديث لنصرتها. ولو حصل هذا لكانت فضيحة أشهر وأكبر وأعظم من فضيحة محنة خلق القرآن!

وبهذه المناسبة يجب أن أشير هنا إلى ثلاثة كتب متميزة في هذا الموضوع، موضوع براءة المحدثين من الخضوع للسلطة، وبراءة السلطة الإسلامية من إجبار المحدثين على اختراع حديث منسوب للنبي ﷺ لتأييدها:

١ الأول هو كتاب «**المحدثون والسياسة**»، وهو رسالة دكتوراة للشيخ الدكتور إبراهيم العجلان، وهو سِفْرٌ جليل في تسعمائة صفحة، صدر قبل خمس سنوات (٢٠١٧م) عن مركز البيان للبحوث، وفيه تتبع الرجل مطاعن القائلين بتأثير السياسة في رواية الحديث، ثم عاد عليها بالنقد والنقض، وإثبات ما فيها من المبالغة والمجازفة حتى كأنه لم يترك بعده قولاً لقائل. وكنتُ قد كتبت مقالاً عن هذا الكتاب فليُرجع إليه.



٢ والثاني هو كتاب «**أسباب إيراد الحديث**» للأستاذ الدكتور بكر قوزدوشلي، وهو كتاب لطيف وفكرته مبتكرة، إذ تتبع المؤلف فيه الأسباب التي دفعت الصحابة والتابعين لرواية الحديث، من خلال ما تكشفه الروايات نفسها، ليجمع بذلك صورة تاريخية لحركة رواية الحديث في القرن الأول الهجري، فينكشف في سياق هذه الرحلة اللذيذة حقاً كيف أن دوافع رواية الحديث كانت علمية ودعوية خالصة، وأنها استحثتها الحوادث والحاجة بأكثر مما سيَّرتها إرادة سلطوية، بل إن الإرادة السلطوية تغيب تماماً عن هذا المجال، ولئن حضرت السياسة فإنما يُروى الحديث عادة لتقويمها وإدانتها وتصحيح اعوجاجها!



٣ والثالث هو كتاب «**السلطة السياسية وحركة رواية الحديث ونقده**» للدكتور أحمد صنوبر، الأستاذ المساعد في قسم الحديث بجامعة ١٩ مايو في اسطنبول، وهذا الكتاب هو وقفة مع أحاديث الفضائل المتعلقة بعلي ومعاوية والعباس -رضي الله عنهم جميعا- وفيه يرصد انتشار الأحاديث المتعلقة بكل منهم في عصري الدولتين الأموية والعباسية، ليختبر حقيقة الشبهة التي تقول بتأثير السلطة في تدوين الحديث. ثم يختبر فرضية أن تكون الأسانيد مزوّرة قد اتفقت جماعة المحدثين على تزويرها، فيرصد عوائق التزوير الداخلية (المتعلقة بالسند) والخارجية (المتعلقة بالظروف والأوضاع العامة) وما أسماه «الانسجام» بين المعلومات الواردة عن الرواة في كتب الحديث والرجال والتاريخ المشرقي والمغربي، بما يستحيل معه اختراع راوٍ تدور عليه الرواية! وفي الكتاب -الذي سيصدر قريباً إن شاء الله- أمورٌ أخرى لا أريد أن أكشفها كلها. وقد سعدنا في هذا العدد من مجلة «أنصار النبي ﷺ» بانضمام د. أحمد صنوبر إلى كُتّابنا، معرفًا بكتابه الصادر حديثاً «من النبي ﷺ إلى البخاري»، والذي هو تبسيط لتاريخ رواية الحديث منذ تفوه به النبي حتى وُضع في كتب السنة الصحيحة، وكيف انتقل الحديث من النبي إلى الصحابي، ثم منه إلى التابعي، ثم من التابعين إلى تابعيهم، ثم من هؤلاء إلى جامعي الحديث ومدونيه ومصنفيه، وكيف صحب هذا الانتقال منهج نقدي علمي حال دون أن يتأثر الحديث بأي رغبة سياسية!

والواقع أني أراني محتاجاً لأن أتقدم على هؤلاء الأساتذة الأفاضل خطوة، فلئن كانوا قد دافعوا عن المحدثين فبرؤوهم حتى ما تركوا مقالاً لقائل، فأجدني مضطراً للدفاع عن السلطة الإسلامية التي لم تجد من يدافع عنها، ذلك أن صورة السلطة في أذهاننا نحن المعاصرين هي سلبية غالباً أو حتى دائماً، فكأن السلطة والشرّ قرينان، ولست ألوم المعاصرين على هذا التصور، كذلك فإن أسلافنا المتقدمين قد أفاضوا في نقد السلطة الإسلامية وإدانتها والنكير عليها حتى يتصور قارئ كلامهم أنها كانت سلطة على غرار الطغيان والاستبداد الذي نحياه في أيامنا هذا!

ومعاذ الله! إنك لا تجد في تاريخنا الإسلامي خليفة صالحاً أو ظالماً فكَّر في اقتراف الكذب على رسول الله، أو حمل المحدثين على ذلك بالرغبة أو بالرهبة، وحتى المأمون صاحب فتنة خلق القرآن، الذي يضرب

به المثل، لم يكن مريدًا للشر ولا ساعياً في هذه المحنة بغرض تثبيت سلطته وتأييد سياسته، أبدًا، إنما اعتنق الرجل رأيًا باطلاً، ظن أنه من الحق وأنه من تنزيه الله وتوحيده ووصفه بالكمال، فاستعمل سلطة الدولة في نشر هذا الرأي وتأييده! أي أنه كان ساعياً في نصرة ما يرى أنه الحق الواجب في ذات الله، ولم يكن ساعياً في استخلاص شرعية لنفسه أو تأييداً لسلطته!

لم تخلُ أيام تاريخنا من المظالم والأزمات، فإنما نحن بشر، ولكن لم يقف خليفة أو سلطان يوماً ليقول: أرى أنه يجب أن يكون كذا وكذا، ويجب على هؤلاء العلماء أن يخرجوا لي الفتوى بما أريد مهما كانت تخالف ما يرونه، وإلا فإنهم غير خاضعين للدولة، وسأصنع بنفسي قانوناً أضع فيه ما أريد رغم أنوفهم بل بعيداً عنهم.

إن السلطة في تاريخنا الإسلامي، وفي سياقنا الحضاري، لم تفعل هذا.. فإن قلنا: لم تفعله ديناً فقد مدحناها بما كان فيها من الدين والخضوع له والوقوف عند حدوده، وإن قلنا: لم تفعله عجزاً فقد مدحنا نظام الإسلام الذي لم يجعل للسلطة هيمنة على الدين والعلم، ولا سبيل إلى احتمال ثالث!

ولقد مرَّت على السلطة الإسلامية أوقاتٌ لو شاءت فيها أو استطاعت أن تحذف حديثاً أو تروي حديثاً لفعلت، لشدة الحاجة إليه، وأقربها إلينا زماناً تلك المحنة التي تعرض لها السلطان عبدالحميد الثاني، فقد سعى الإنجليز في توظيف حديث «الأئمة من قريش» ليطعنوا به في شرعية خلافة العثمانيين، واستثارة الشريف حسين ومن معه للانقلاب على العثمانيين، وإغرائهم بخلافة عربية قرشية هاشمية، فلو كان عبد الحميد قادراً أو راغباً لسعى في حذف هذا الحديث، ولكنه لم يرغب، ولو رغب لما قدر، بل طُبعت النسخة السلطانية الحميدية من صحيح البخاري، وغيرها من كتب السُّنة في زمن عبدالحميد و برعايته، وبقي فيها هذا الحديث[1].

من الأولى بمن يثيرون المطاعن في المحدثين أن ينظروا في أنفسهم، فإنهم لو أخلصوا للعلم وتجردوا له، لازدادوا إيماناً بأن هذا الدين دين الله المحفوظ، ولازدادوا فخراً وتيهاً بتراث علمائنا الأولين الذين بلغوا قبل ما يزيد عن ألف سنة ما لا تبلغه المناهج العلمية الآن[2].

---

١. لمزيد من التفصيل ينظر بحث: حديث الأئمة من قريش في العصر العثماني: https://bit.ly/3eccXSv

٢. للمزيد في موضوع المقال، ينظر بحث: فحص دعوى تأثير السياسة في تدوين الموطأ: https://bit.ly/3eccXSv
وبحث: أخطاء فهم الحديث في ضوء الثقافة المعاصرة: أحاديث طاعة الأمراء في البخاري نموذجاً: https://bit.ly/2tZPNNd

الأسرة الكتانية

وخدمتها للسُّنة ١

د. الحسن بن علي الكتاني



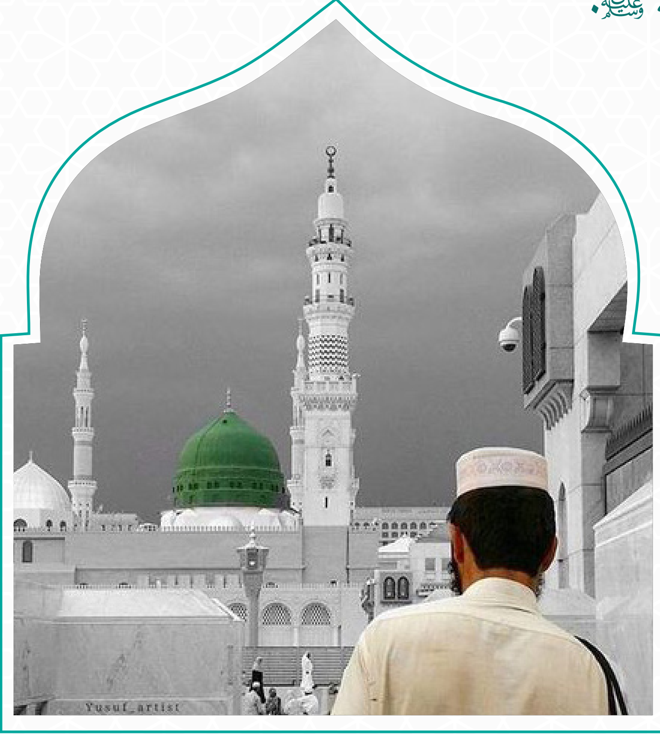
عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام

اشتهر في أذهان عامة الناس من غير المتخصصين في علم الحديث والمشتغلين به بصورة راسخة أن السُّنة لم تدون إلا في القرن الثاني، يتناقلها العلماء حفظاً دون تقييد أو كتابة، ومن أجل دحض هذه الفكرة الخاطئة أردنا في هذا البحث ومن خلال النصوص أن نثبت الحقيقة التي يجهلها كثير من الناس ويروج لها المشككون في السنة النبوية والطاعنون فيها من المستشرقين والمستغربين والعلمانيين ومنكري السنة الذين يطلقون على أنفسهم زوراً وبهتانا (القرآنيون)، وهي أن السنة دُونت في القرن الأول، في عهد الرسول ﷺ، وفي عهد الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

الأسرة الكتانية، هي أسرة من آل بيت رسول الله ﷺ اشتهرت بالعلم والسلوك، وخدمة السنة النبوية، كما عرف علماؤها بالصدع بالحق، ونصرة الجهاد والمجاهدين، جيلاً بعد جيل. وقد برز فيهم العديد من العلماء الأعلام، فرغب إليّ من لا يمكنني رد طلبه، أن أكتب عن ذلك تعريفاً، ينير للباحث الطريق، ويوضح جهود طائفة من علماء المسلمين، في خدمة رسول الله ﷺ.

أصل الأسرة الكتانية[1]

يتحدر الكتانيون من الأمير يحيى الملقب بالكتاني ابن عمران بن عبدالجليل بن يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وسيدة النساء فاطمة البتول بنت رسول الله ﷺ. وقد عدهم النسابة عبد السلام بن الطيب القادري في الطبقة الأولى من الأشراف.



وسبب تسميتهم بالكتاني، أن جدهم أمير الناس يحيى المذكور خيم لجيشه بخيام الكتان، حينما كان أميراً بزواوة، وكانت العادة أنه لا يخيم إلا بخيام الصوف أو الشعَر، فأطلق عليه ذلك اللقب وعلى بنيه من بعده. وكانوا يسمون في الماضي بأمراء الناس نسبة لجدهم المذكور آنفاً، وبالزواوين؛ نسبة لزواوة التي استوطنوها فترة من الزمان، وبشرفاء عقبة ابن صوال؛ نسبة للمحل الذي استوطنوه أولاً عند رجوعهم لفاس في القرن العاشر الهجري.

وأول من انتقل من سلفهم لتلمسان هو العارف عبد الجليل بن يحيى (تـ ٣٠٣)، وأول منتقل إلى منطقة شالة قرب الرباط محمد بن عبدالله بن هادي (تـ ٥٤٢ على الأرجح)، وأول منتقل إلى مكناس موسى بن أبي بكر بن محمد (تـ ٦٤٦)، وكانت لهم بها حظوة عند ملوك بني مرين، وتعظيم كبير من لدن أهلها. وأول عائد إلى فاس هو محمد بن قاسم الكتاني (تـ ٩٤٩).

---

١. منطق الأواني بذكر عيون أعيان البيت الكتاني، (ص٦)، للدكتور حمزة بن علي الكتاني.


عبدالحي الكتاني

وقد كان يغلب عليهم الصلاح والبعد عن الشهرة، ثم ظهر فيهم العلم والنبوغ مع الصلاح في القرن الثالث والرابع عشر، وانتقل بعضهم للحجاز والشام، وكانت لهم علاقات وطيدة مع زعماء الإصلاح، وعلماء الأمة.

وقد أشار العلامة عبد الحي الكتاني رحمه الله لعنايتهم بكل ما يتعلق بالحبيب المصطفى ﷺ فقال في كتابه (التآليف المولدية) (ص١٤): «وإذا أردت مثالاً يوقفك على ما وراءه، فإن عائلة واحدة بالمغرب الأقصى هي العائلة الكتانية اتفق لعدد من أفراد علمائها الاشتغال بالتدوين في الشؤون المحمدية، فمنهم من كتب في ميلاده عليه السلام، ومنهم من كتب في علمه، ومنهم من كتب في نظام حكومته، ومنهم من كتب في شيبه وخضابه ومنهم من كتب في أكله ولباسه، ومنهم من كتب في شمائله، وغير ذلك مما يجتمع منه لهم خاصة قريب من مائة مصنف يجتمع منها عدة مجلدات ضخمة».

وقد كتب شيخنا الدكتور يوسف بن إبراهيم الكتاني، رحمه الله، سلسلة مقالات في جهود الكتانيين في خدمة السنة فقال فيها: «إن من معالم الزاوية الكتانية وسننها المرعية بداية علمائها وشيوخها بدراسة كتب السيرة النبوية أول ما يتعلمون وما يحبب إليهم، وما يتلقون من علوم إسلامية وشرعية هو علم الحديث، والشمائل، والصحيح، والشفا، والمواهب اللدنية، فهذه هي العلوم التي تتفتح عقولهم وأذهانهم وقلوبهم على محبتها، وتعلمها، ودراستها».

وظلت هذه السنة قاعدة ذهبية، وطريقة مرضية، التزمها وواظب عليها أعلام زاويتنا وشيوخها، وسائر أفرادها وعلمائها، كي ينشأوا على محبة الرسول ﷺ وآله وأصحابه وأتباعه وتغرس في قلوبهم سيرته العطرة، وهديه الكريم، وأخلاقه الشريفة، ويتعلموا منها الدروس والعبر في حياتهم وسلوكهم، كي يشبوا على هديها، وينشأوا على سننها، ولذلك تجد الكتانيين سواء في هديهم أو سلوكهم أو تربيتهم، مطبوعين بشدة المحبة للمصطفى، وكثرة التعلق به، والسير بسيرته واتباع منهجه، كما أنهم يربون أبناءهم

وأتباعهم ومريديهم على نهج السيرة ومعالمها، ويحرصون على تعليمها لهم أول ما يعلمونهم ويوجهونهم إليه، ليكونوا أكثر تأسياً به، واقتداءً به، واتباعاً له.

وقد ظهر هذا التعلق بالسيرة النبوية بعد دراستها، وتطبيقها، وشدة الاقتداء بها، في أمرين:

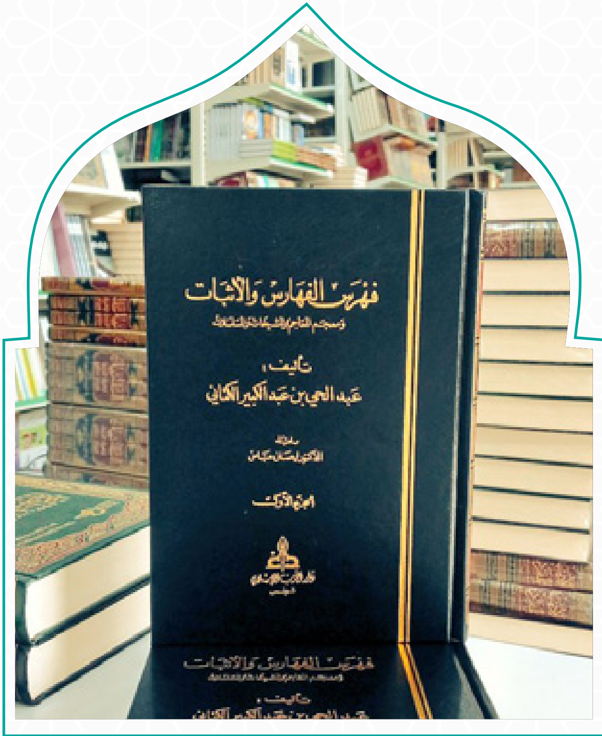
١. كثرة إقامتهم للموالد والكتابة في الشمائل والكمالات المحمدية.

٢. أشعار الكتانيين ومدائحهم الكثيرة للجناب المحمدي.

أشهر علماء الأسرة ممن خدم السنة

١ و٢. أبو المكارم عبد الكبير ووالده أبو المفاخر محمد بن عبد الواحد[٢]:

فمن الأعلام الذين دعوا للعمل بالسنة وإن خالفت المذهب بل والجمهور من الناس الإمام أبو المكارم عبد الكبير بن محمد بن عبد الواحد الكتاني رحمه الله المتوفى سنة ١٣٣٣ هـ، هذا الإمام الذي كان يلقب بجبل السنة والدين، والذي كان قال فيه ابنه أبو الإسعاد عبد الحي في (فهرس الفهارس) إنه كان يستحضر كتب السنة كما يستحضر أصابع يده وأنه أحد الأفراد الذين أسمعوا كتب السنة كلها بفاس ويستحضر «فتح الباري» استحضاراً عظيماً، بل قال فيه: «لا مذهب له ولا طريقة دون الكتاب والسنة، كتابه المصحف، مات وهو يكتب القرآن في اللوح مع أنه كان شديد الحفظ له من صغره. وابتلي وسجن وخرج ثابتاً على منهجه معادياً للعدو المحتل للمغرب أرسل تلميذه الشريف عبد السلام بن الفاضل العلوي لجهادهم فقام بواجبه على قدر استطاعته.



---

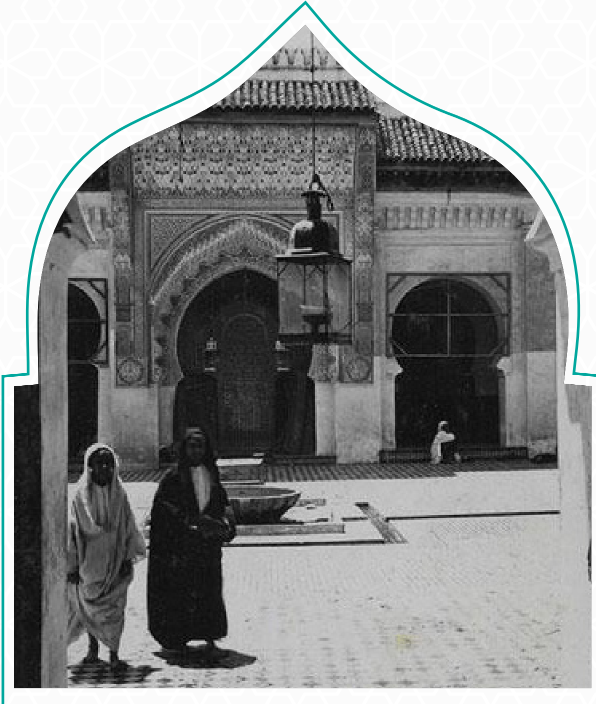
٢. شجرة النور الزكية، (٤٠٣/١)، و"منطق الأواني" (ص٤٣).

وكتابه «تحديد الأسنة في الذب عن السنة» في مجلد كبير طبع مؤخراً وفيه يبين أن السنة مقدمة على المذهب وأن على المحب الحقيقي لرسول الله ﷺ أن يجعل الحبيب المصطفى ﷺ إمامه الحقيقي ولو كان لوحده دون الجمهور.

وكان الشيخ مع هذا صوفياً مثل بقية أهل زمانه، فليت أتباعه وسالكي طريقته ينهجون نهجه فيما دعا له من السنن والعمل بها والدعوة إليها.

وكان والده أبو المفاخر محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الواحد بن عمر بن إدريس بن أحمد بن علي الكتاني قد أسس الزاوية الكتانية الكبرى عام ١٢٧٢هـ، والتي جعلها معهداً علمياً وتربوياً تدرس به علوم الحديث والآثار، إلى جانب علوم التربية والتصوف. سافر للحج ثلاث مرات، أولها عام (١٢٦٨) وأخذ عن جملة من صلحاء ورموز العرفان بالمشرق؛ كمحمد بن علي السنوسي، ومحمد صالح السباعي، وعبد الباقي بن قيوم الزمان النقشبندي، وغيرهم، وتلقى عنهم ما عندهم من الأوراد والأسرار. ثم تصدر للمشيخة بفاس، وأخذ عنه بها نخبة من أهلها، وتربع لإرشاد الناس. وألف كتباً تزيد عن الأربعين جلها في التربية والسلوك، وكان داعية للعمل بالسنة وإن خالفت مشهور المذهب، ولعله تأثر في ذلك بشيخه العلامة السنوسي مؤسس الزاوية السنوسية المجاهدة. وقد توفي رحمه الله سنة ١٢٨٦هـ. بمدينة فاس بالمغرب.

وتصدر الإمام أبو المكارم عبد الكبير بن محمد للتدريس والتعليم بزاويتهم الكبرى بفاس، واشتهر بالمواظبة على قراءة وإقراء صحيح البخاري وغيره من الكتب الأمهات، حتى اشتهر بين الناس وقصده العلماء من المشرق والمغرب، وكان محكماً للسنة في أقواله وأعماله، حركة وسكوناً حتى تجسدت به، كتابه المصحف حتى مات وهو يكتبه في اللوح مع أنه كان شديد الحفظ له من صغره، وديوانه



«صحيح البخاري» ختمه نحو ستين مرة ما بين قراءة له على المشايخ والعلماء وإسماع له، وكان يعرفه معرفة جيدة ويستحضر نوادره كما يستحضر «فتح الباري» استحضاراً عظيماً، وأتم إسماع الكتب الستة، يعرف الناس له منة إحيائها وكتبها والقيام عليها، كما كان أجمع الناس لخصال الخير، والمثابرة على العلم والعمل، تذكر الله رؤيته، وتؤثر في أقسى القلوب موعظته، مع سعة في الأخلاق، محباً لآل البيت، بارزاً في المحبة في الجناب المحمدي، وقضى حياته في الذكر والتذكير، والعلم والتعليم، والوعظ والنصح.

خلف المترجم له آثاراً نفيسة وكتباً قيمة، في الحديث، والفقه، والتصوف، والدعوة إلى الله، نذكر منها:

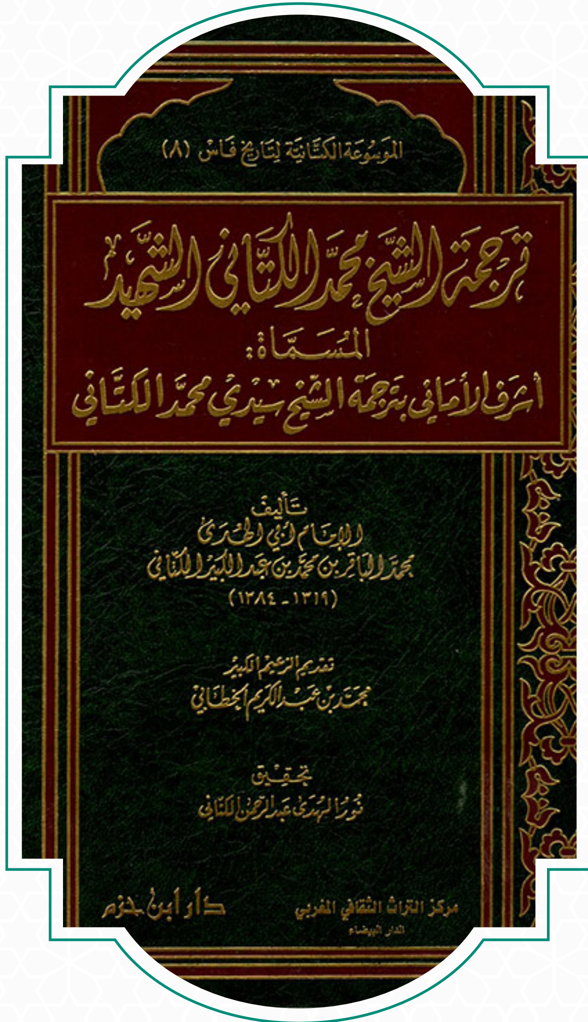
١. حواشي على الصحيح والشمائل. ٢. جزء في المبشرين بالجنة من الصحابة أوصلهم إلى نحو المائتين. ٣. كتاب كنت نبيئاً وآدم بين الروح والجسد. ٤. الصوارم والأسنة في الذب عن السنة. وهو من أنفس ما صنف، رحمه الله، وقد طبع. ٥. ختم «الشمائل». ٦. ختم «المواهب اللدنية» في السيرة. ٧. تأليف في آل البيت في مجلد نفيس. ٨. رسائل تخرج في عدة مجلدات أكثرها في الحديث والتصوف والفقه. ٩. المشرب النفيس في ترجمة قطب المغرب مولاي إدريس بن إدريس في نحو مجلدين. ١٠. جزء في الكمالات المحمدية في مجلد، وهو في بيان خصائص الحقيقة الأحمدية والأسرار الإلهية المودعة في أنموذج المادة المحمدية. ١١. الانتصار لآل النبي المختار والرد على بحث الشيخ القصار في مجلد. ١٢. كتاب أصل تربية الشعر وتوفيره في مجلد. ١٣. حاشية على مواضع من صحيح البخاري. ١٤. حاشية على مواضع من مختصر خليل. ١٥. ختمة البخاري.

تُوفي بفاس سنة ١٣٣٣هـ. رحمه الله رحمة واسعة.

أبو الفيض محمد بن عبد الكبير[٣]

ومن أعلام أهل بيتنا الذين اشتهروا بالتصوف ولا يعلم كثير من الناس شيئاً عن منهجهم الفقهي والعقدي أبو الفيض محمد بن عبد الكبير، الشهيد رحمه الله وتقبله، الذي قتل تحت التعذيب سنة ١٣٢٧ هـ

٣. صنف في ترجمته ابنه العلامة محمد الباقر، كتاب «أشرف الأماني في ترجمة الشيخ محمد الكتاني» وهو مطبوع. وراجع «منطق الأواني» (ص٥٤).



بعد حياة قصيرة مليئة بالجهاد والدفاع عن الثغور ضد الاحتلال والنصح لولي الأمر الذي ضاق به ذرعاً فسجنه وأهل بيته جميعاً وجماعة من أصحابه، وكان شعارهم القبض في الصلاة خلافاً لما استقر عليه حال متأخري المالكية من السدل، فصدر الأمر بـ «اقبضوا على كل من قبض!»

وقد قرت عين فرنسا بسجنه ثم مقتله رحمه الله لأنه كان شوكة في حلقها ومصدر تهديد لخططها في المغرب الأقصى، وتلاميذه آخر من ألقى السلاح في زمور والأطلس بعد الاحتلال الفرنسي للمغرب وكانوا ضمن أبطال معركة جبل أبي غافر، آخر معركة خاضها المجاهدون ضد الاحتلال الفرنسي بالمغرب الأقصى سنة ١٣٥١هـ.

كان رحمه الله مالكياً مجتهداً، فإذا ظهر الدليل أخذ به وترك المذهب، وفي رسالته لتلميذه أبي بكر التطواني معالم منهجه الفقهي حيث قال كما في «أشرف الأماني» (ص: ٩٩):

... وإقامته بإقامة شعائره، من إحياء ما اندرس من آثار النبوة، فابحث عن سنته ﷺ وأقم عمودها واستعد لما تجيبه به إن سألك بعد غد: لأي شيء لم تبحث عما بلغك عن الله عني؟

ثم قال: وإياك أخي أن تقول كما قال الفقهاء: هذا حديث لم يأخذ به مالك، أو كذا فهو كلام مموه، وهل الأئمة ليسوا على الطريقة المثلى؟ بلى، فكل من اتبع إماماً من الأئمة يقال فيه: إنه للمعلم الأكبر ﷺ أتبع لأنهم ما نهجوا إلا على منهجه، وكل اقتصر على ما بلغه من أقواله وأفعاله وأحواله.

وقال أيضاً: اعلم أن كل من زعم أنه محمدي ثم صار تبلغه الأحاديث ويقول: إن هذا لم يأخذ به الإمام فهو أسير تقليد ذلك المقلد. أين قوله: إنه محمدي؟!

وصنف رسالة حافلة في مشروعية بل سنية القبض ورفع اليدين في الصلاة اسمها «القول الشافي والبيان الكافي في أن فاعل القبض في الفريضة غير جافي»، وكتاب «مجمع البحرين في مشروعية البسملة جهراً في الفريضة».

وكان شديد التعظيم لكتاب «نيل الأوطار» للشوكاني مسروراً بطبعه واقتنائه منوها بمؤلفه.

ولست أنكر أنه كان صوفياً كبيراً له منهج خاص في ذلك ولا كونه أشعرياً مع اختيارات وميل لأهل الحديث، ولكنه كان لبنة أساسية في تجديد الدين في القرن الماضي في زمان مظلم. رحمه الله تعالى وغفر له.

وكان علم السنة العلم الثاني، بعد التصوف، الذي وهبه الشيخ، وفتح الله عليه فيه بمختلف أوجه الفتح والنبوغ، والعطاء والتأليف، والتعليم والتوجيه، فإليه وإلى والده يرجع الفضل في إحياء دراسة التفسير الذي هجر في المغرب أزماناً، والى أسرته وطريقته يرجع الفضل في الدفع بالاهتمام بالسنة وتدريسها، وحفظها وإحيائها، وتعويد الناس على معالمها وتوجيهاتها، وخاصة صحيح البخاري الذي لم تهتم به زاوية كما اهتمت به الزاوية الكتانية، بروادها وشيوخها، ومريديها وأعلامها، حتى كانت دراسة الصحيح الدرس الأسبوعي المنتظم في الزوايا الكتانية، وخاصة في الزاوية الأم بفاس، التي قرأ وأقرأ بها الشيخ محمد بن عبد الكبير ووالده صحيح البخاري أكثر من ستين مرة بين سرد وإقراء، وكذا الشيوخ الإمام جعفر بن إدريس الكتاني وولده الإمام محمد بن جعفر الصحيح، وكذا بقية كتب السنة الأخرى، مما يعتبر اهتماماً خاصاً ورعاية تحسب للزاوية الكتانية، وقد تحدث الشيخ عبد الحي الكتاني في كتابه الماتع الذي لم يطبع بعد «المظاهر السامية في النسبة والطريقة الكتانية» عن دروس شقيقه في الزاوية الكتانية فقال:



«أما دروسه بعد العصر كل جمعة بالزاوية فترى البحار منهمرة، والسيول متلاطمة الأمواج، وما ترى إلا أنبوباً من نور خارجاً من صدره، يستحضر آي القرآن وقت المذاكرة والإملاء للاستشهاد، حتى ليقطع السامع أنه يلقن تلك الآيات، يحفظ السنة، ويستحضر غالب أحاديث الكتب الستة المتعلقة بالترغيب

والترهيب، وصالح الأعمال غالباً كأنه يحفظها، يذاكر بعض من ختم الصحيح كم مرة فيجد نفسه بين يديه كأنه لم يقرأ البخاري قط، وانتهى إليه العلم بمعرفة أسرار الكتاب والسنة، والجمع بين مشكلهما على طريقة كبار العارفين».

«ناهيك بالختمتين الشهيرتين للبخاري التي ختم إحداها بجامع القرويين، والثانية بالزاوية الكتانية بفاس، ولو لم يكن له من التآليف غيرهما لكفتاه لما أبدى فيهما من الاطلاع الواسع، والمعرفة العميقة، والإحاطة بعلوم الإسلام، وبما أتى فيهما من الحقائق والمعارف، ما جعلهما خالدتين باقيتين مشهورتين إلى اليوم».

ومن أهم مؤلفاته في السنة وما إليها

الحكم طبعت بفاس. *أدل الخيرات، طبعت بفاس وبمصر. * التفسير لم يكمل. * تفاسير سبعة للبسملة بعدة علوم. ★ الكشف والتبيان عن قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] طبع بفاس. ★ القول الشافي والبيان الكافي في أن فاعل القبض في الفريضة غير جافي. ★ البحر المسجور فيمن أنكر فضل الله بالمأثور. ★ بيان الآفات في تضييع الأوقات باللعب بالورق والشطرنج وما إلى ذلك. ★ الياقوت والمرجان في هل أحاط ﷺ بالعلم أم لا؟ ★ كشف اللثام عن سر الصيام. ★ المنازلات الصّوفية في تكبير العيد. ★الأمالي في علم الأمهات طبع بفاس ثم طبع بالأردن. ★شرح حديث الخميصة. وهو مطبوع. ★المواقف الإلهية في التصورات المحمدية. ★إزالة الأتراح فيما يتعلق بقراءة البسملة في الصلاة. ★ السر الصمداني والفيض الرحماني في أن العارف لا يزايله الخوف ولو بعد دخول الجنة. ★ تعليق على الهمزية لم يكمل. ★ تعليق على البخاري لم يكمل. ★ مقدمة الشمائل الترمذية. ★ زبدة المرام في حكم دخول الحمام. ★ البحر الخضم في شروط الاجتماع بالنبي الأعظم ﷺ. ★تأليف في رفع اليدين في الصلاة عند الركوع والرفع منه. ★ختمة البخاري مطبوع بفاس. ★ حياة الأنبياء. ★ سبقية النور الأحمدي. ★ الرسائل إلى الآفاق في مجلدات. ★ موالد. ★ القول المسدد فيمن أنكر التعبير بأحمد. ★ شرح خطبة ميارة على «المرشد المعين». ★ شرح خطبة «المرشد المعين» في مجلد. ★ كتاب الخشوع في الصلاة بمقتضى الدليل. ★ الموجودات الإلهية في الكمالات المحمدية. ★ نسخة من غاب عنه المطرب. ★ الأجوبة الحديثية. ★ الأجوبة الفقهية. ★ الوصايا.

وللحديث بقية في المقال القادم إن شاء الله.

أيُكذب على رسول الله وأنا حي!



الشيخ مختار بن العربي مؤمن

عضو مجلس الأمناء بالهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله، محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه وبعد:

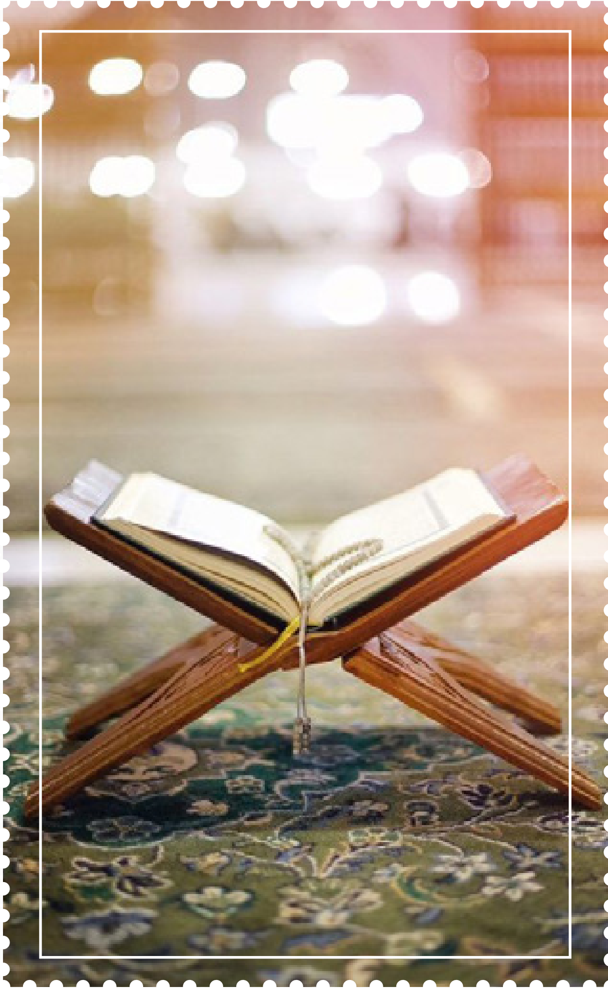
لم يَسْلَمْ نبيٌّ من الأنبياء ولا رسولٌ من رسل الله عليهم صلوات ربّي وسلامه من الأذى والافتراء والكذب عليهم، وتحريف رسالاتهم التي جاؤوا بها، وقد وكل الله للأمم السابقة حفظ كتبهم والعناية بها؛ لكن فئاماً منهم رضعت لبان الشر والإفك لم تلبث أن زوّرت وحرّفت الكتب المنزلة، واشترت بها ثمناً قليلاً، قال تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].



•• **قال القشيري:** «يخبر أنّه استحفظ بني إسرائيل التوراة فحرّفوها، فلما وكل إليهم حفظها.. ضيّعوها».

وأمّا هذه الأمة المحمدية فقد اختصّها الله بالقرآن الكريم، وتولّى -سبحانه- حفظه عليهم فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: ٩] فلا جرم لو غيّر واحد حركة أو سكوناً من القرآن لنادى الصبيان بتخطيئه[١].

ولـمّا تعهد الكريم سبحانه بحفظ القرءان تعهد ضمناً بحفظ ما يبيّنه ويفسّره من السنة النبوية، فتجد في عصر العولمة لا يزال الحديث محفوظاً في الصدور والسطور، وكذلك ما يقيم لسانه من الآلات اللغوية والنحوية والصرفية والبلاغية وغيرها، فلا يزال الوحي محفوظاً، رغم كيد الكائدين وانتحال المبطلين وتأويل الغالين وتحريف الضالين.



فعن إبراهيم بن عبد الرحمن العُذْري قال: قال رسول الله ﷺ: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ»[٢].

ظهور الوضع في الحديث

لقد كان للإسلام ونبيه الكريم ﷺ أعداء كُثر، أظهروا دسائسهم أحياناً، وأخفوها كثيراً، لهدم الإسلام ودسّ السم فيه، ولما عجزوا عن تحريف القرءان عمدوا إلى السُّنة فوضعوا فيها كثيراً من الأحاديث المكذوبة المُختلَقة على النبي ﷺ وأصحابه. مما استدعى جهود الجهابذة

---

١. تفسير القشيري لطائف الإشارات (٤٢٥/١).

٢. أخرجه البيهقي وصححه غير واحد من أهل العلم، انظر تحقيق العلامة الألباني، مشكاة المصابيح، كتاب العلم، الفصل الأول، (١/ ٥٣).

من علماء الحديث لينفوا وضع الكذابين، وانتحال المبطلين الضالين، ولقد كان أول ظهور للوضع بعد مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، على أيدي الفئام المهزومة من دول الكفر كالفرس والروم وغيرهما، فعمّت بذلك البلوى وانتشر الحديث المكذوب في العقائد والعبادات والوعظ والترغيب والترهيب، وفي تفاسير القرءان، والسيرة، والتزلف للسلاطين، وتشريف القوميات، وغير ذلك من الكذب والافتئات على خير البريات.

تعيش لها الجهابذة

نقل الإمام الراوية الناقد العَلَم في الجرح والتعديل ابن أبي حاتم، قائلاً عن الإمام المحدث عبدالله بن المبارك (١٨١هـ)، أنه جاءه شخص متخوّفًا من كثرة الكذّابين والوضّاعين الذين كذَبوا على رسول الله ﷺ، فجاءه فزعًا قائلًا: هذه الأحاديث المصنوعة! فكان الجواب من الإمام بكل ثقة واطمئنان إلى جهود الـمُحدّثين فقال: «يعيش لها الجهابذة»[٣].

ولقد بلغ بهم الحال أن نصبوا أنفسَهم للتحدِّي في اختبارهم في هذا العلم، بل وتحذير الكذّابين من الكذب وهم أحياء، قال أبو حاتم الرازي وهو يتحدى معاصريه: «مَن أغرب عليَّ حديثًا غريبًا مسندًا صحيحًا لم أسمع به، فله عليَّ درهم يتصدّق به»[٤].

ولقد حصل مثل هذا أكثر من مرَّة لغير واحد من الجهابذة مثل قول الإمام الدارقطني (٣٨٥هـ): «يا أهل بغداد، لا تظنوا أن أحدًا يقدر يكذب على رسول الله ﷺ وأنا حيّ»[٥].

٣. الجرح والتعديل، (١/٢-٣).
٤. الجرح والتعديل، (١/٣٥٥).
٥. الموضوعات، لابن الجوزي، (١/٤٥).

وكان **محمد بن إسحاق بن خزيمة (٣١١هـ) يقول**: "ما دام أبو حامد الشرقي في الأحياء لا يتهيأ لأحدٍ أن يكذب على رسول الله ﷺ"[٦].

بل إن عليّ بن المَديني لم يرَ حرجاً في تضعيف والده لما سُئل عنه، فقد ذكر ذلك ابن حبان في المجروحين، أن عبدالله بن جعفر بن نجيح مديني، والد علي بن المديني، يُكنى أبا جعفر، سكن البصرة، ثنا أحمد بن الحسين الصوفي ثنا داود بن رشيد ثنا عبد الله بن جعفر المديني يعني أبا علي بن المديني ثنا محمد بن أحمد بن حماد وابن أبي بكر قالا ثنا عباس عن يحيى قال عبد الله بن جعفر: أبو علي المديني ليس بشيء، سمعت عبدان سمعت أصحابنا يقولون: حدّث علي بن المديني عن أبيه ثم قال: وفي حديث الشيخ ما فيه، أو قال: فيه شيء»[٧].

ومنطلق هذا التجرّد وهذه الموضوعية هو الذبُّ عن حديث رسول الله ﷺ، وقد صرَّح بذلك يحيى القطان حين قيل له: أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركتَ حديثَهم خصماءَك عند الله؟! قال: «لأن يكون هؤلاء خصمائي أحبُّ إليَّ من أن يكونَ خصمي رسول الله ﷺ، يقول: لِمَ حدَّثت عني حديثًا يُرى أنّه كذب؟!»[٨].

«لقد عرف الجهابذة النقاد، الذين كثرت ممارستهم لكلام النبي ﷺ، ولكلام غيره، ولحال رواة الأحاديث، ونقَلة الأخبار، ومعرفتهم بصدقهم وكذبهم وحفظهم وضبطهم، فإن هؤلاء لهم نقد خاص في الحديث يختصون بمعرفته، كما يختص الصيرفي الحاذق بمعرفة النقود جيدها ورديئها، وخالصها ومشوبها، والجوهري الحاذق في معرفة الجوهر بانتقاد الجواهر، وكل من هؤلاء لا يمكن أن يعبر عن سبب معرفته، ولا يقيم عليه دليلاً لغيره، وآية ذلك أنه يعرض الحديث الواحد على جماعة ممّن يعلم هذا العلم، فيتفقون على الجواب فيه من غير مواطأة»[٩].

---

٦. المصدر السابق.
٧. ابن حبان، المجروحين (٢/ ١٥). ويُنظر: ميزان الاعتدال (٢/ ٤٠١)، الضعفاء والمتروكين، لابن الجوزي (٢/ ١١٨)، تهذيب الكمال (١٤/ ٣٨٣)، تهذيب التهذيب (٥/ ١٥٣)، وابن عدي في الكامل (٤/ ١٧٦).
٨. تاريخ دمشق، لابن عساكر، (٤٥/٣٩٣).
٩. حاشية على جامع العلوم والحكم لابن رجب، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط (٢/ ١٠٥).

تعريف الحديث الموضوع

الحديث الموضوع: هو الكلام الذي اختلقه بعض الناس ونسبوه للرسول ﷺ.

قال البيقوني في منظومته:

والكذب المُخْتَلَقُ المصْنُوع •• على النّبي فذلك الموضوع

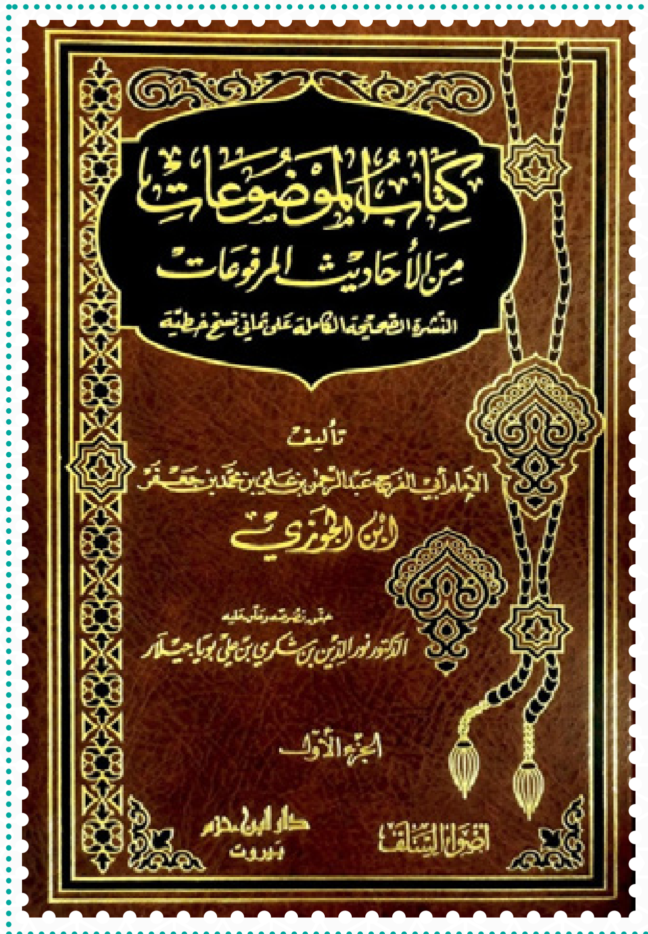
مرتبته بين أنواع الحديث

يُعَدُّ الحديث الموضوع أسوأ وأقبح قسم من أقسام الحديث الضعيف، لأنّه مختلَق مفترَى، لا يصلح ولن يصلح للعمل به، لا في الأحكام، ولا في الفضائل، ولذلك هو في الحقيقة لا يُسمى حديثاً إلا بزعم واضعه الخبيث.

الترهيب من الكذب على النبي ﷺ

إنّ الكذب في حدّ ذاته منقصة ذميمة في حق الإنسان، مسلماً كان أم كافراً، ذكراً أو أنثى، فكيف إذا كان الكذب على أشرف الخلق ومبعوث الحق بالحق؟ فذاك أعظم افتراءً وأشد عذاباً! فعن سلمة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[١٠]. وقد بلغ مبلغ التواتر.

وعن عليّ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تكذبوا عليَّ، فإنه من كذب عليّ فليلجِ النار»[١١].



١٠. البخاري، (١٠٩).
١١. البخاري، (١٠٦).

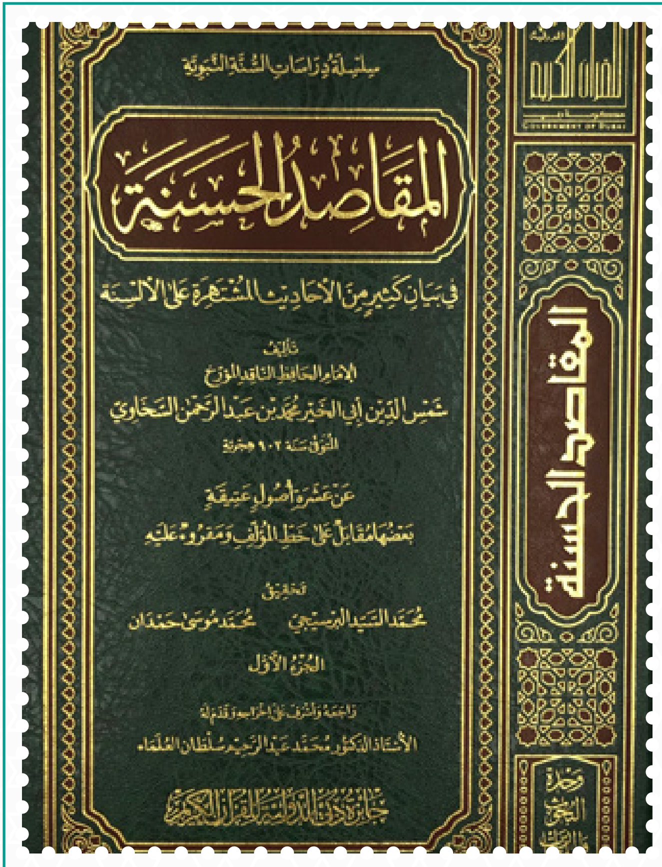
قال الحافظ السخاوي: «... لأنّ الكذب عليه صلى الله عليه وسلم ليس كالكذب على غيره من الخلق والأمم، حتى اتفق أهل البصيرة والبصائر أنه من أكبر الكبائر، وصرح غير واحد من علماء الدين وأئمته بعدم قبول توبته»[١٢]. أي: الوضاع الكاذب.

وذهب بعض العلماء إلى القول بكفر واضع الحديث متعمدًا، وعلى رأسهم الإمام الجويني، وهو والد إمام الحرمين الشافعي المعروف، وأيّد الجوينيَّ في هذا العلامة ابنُ الوزير، واستدل عليه في التنقيح بقوله الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:١٧]، فسوّى بين الكذب على الله وتكذيبه. انتهى.

ونقل الحافظ ابن كثير عن أبي الفضل الهمذاني شيخ ابن عقيل من الحنابلة، أنه وافق الجويني في هذا الكلام، قال السيوطي -رحمه الله- في الألفية:

وجزم الشيخ أبو محمّد •• بكفره بوضعه إنْ يقصِد

والرَّاجح أنّ الوضع من أكبر الكبائر.



ولا يحلّ لأحد أن يرويه منسوباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا مقروناً ببيان وضعه، وهذا الحظر عام في جميع المعاني، سواء القصص والتّرغيب والتّرهيب وغيرها.

كيفية معرفة الأحاديث المكذوبة

رسم العلماء الجهابذة طرقاً لأهل الحديث وذلك لكشف زيف الكذّابين المفترين، الوضاعين أحاديثَ يزعمون أنها من سلسلة الوحي الأمين، وقد لخصوا بعض تلك الطرق منها:

١٢. المقاصد الحسنة، للسخاوي، (ص٤).

- **أولاً:** أن يكون مخالفاً للقواعد الكلية أو الدلالة القطعية.

- **ثانياً:** ركاكة اللفظ تدل على الوضع، لأن النبي ﷺ أُوتي جوامع الكلم.

- **ثالثاً:** ركاكة المعنى تدلّ على وضع الحديث. وركاكة المعنى أنه يجمع بين نقيضين، فيأتي بحديث بالحل والحرمة في أمر معين، وهذا لا يمكن، لأنه لا يمكن لعاقل أن يجمع بين نقيضين، فضلاً عن أن يكون النبي ﷺ الذي يأتيه الوحي من السماء.

- **رابعاً:** أن يجمع بين الاثنين: يأتي بركاكة اللفظ مع ركاكة المعنى.

والوضع كما قلت كان كثيراً في هذه الأمة، لكن كشفه الجهابذة كما تَقدم.

نصيحة لكل المرشدين والكُتَّاب والمدونين على وسائل التواصل الاجتماعي لا تجعلوا أنفسكم ضمن قائمة الكاذبين على رسول الله ﷺ وتأكدوا من صحة الأحاديث.

قال السيوطي في ألفية الأثر:

الْخبَرُ الْمَـوْضُـوعُ شَـرُّ الْخبَـرِ .. وَذِكْرُهُ لِعَالِمٍ بِهِ احْظُرِ

فِي أَيِّ مَعْنًى كَانَ إِلا وَاصِفَا .. لِوَضْعِهِ،..........

فلذلك ينبغي لكل مسلم حريص على سُنة النبي صلى الله عليه وسلم وأحاديثه أن يتأكد من عدم نشره ومشاركته في الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بالبحث عن صحة الأحاديث وضعفها وقبولها وردها، حتى لا يكون أحد الكاذبين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلئن كان العلماء شددوا على من يَلحن في قراءة الحديث فما بالكم بمن ينشر أو يشارك في ذلك؟ خاصة مع وسائل التواصل الحديثة التي أصبحت الكلمة فيها تبلغ الآفاق، فلنتقِ الله في وحي الله عزّ وجلّ وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، ولنحتَطْ لديننا وسُنة نبيّنا، فالأمر خطير لا سيما مع تساهل النّاس وجهلهم بهذا الأمر الخطير، حتى صار اليهودي والنصراني والملحد ينشرون ما يشتهون في تضليل هذه الأمة، وعلى الدعاة والعلماء وطلبة العلم بيان خطر الأحاديث الضعيفة والموضوعة وخطرها على أمة محمد صلى الله عليه وسلم. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبيه الكريم.

جهود الإمام الشافعي
في نصرة سنّة رسول الله ﷺ



د. علي محمد الصلابي

المؤرخ الإسلامي

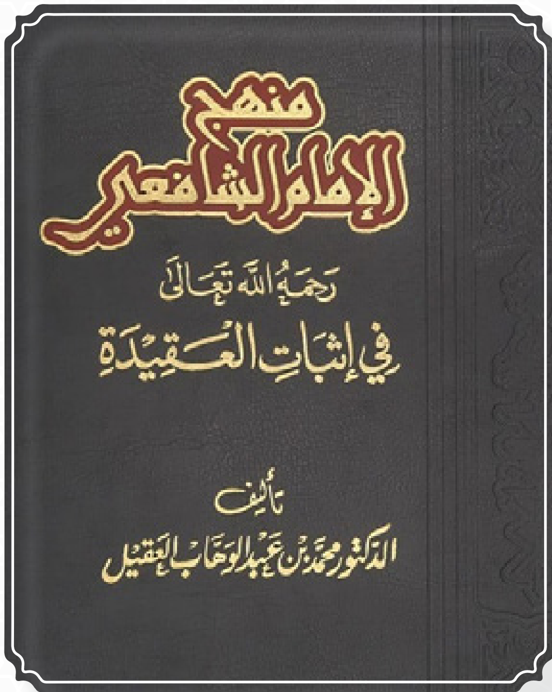
لدراسة التراث العلمي والفكري لعلماء الأمة وأئمتها الكبار دور كبير في بناء النهوض الحضاري، فلربما يسهم تراث بعض المصلحين في نهضة الأمة بعد وفاته بقرون، ومن هؤلاء الأئمة بل من أبرزهم على الإطلاق الإمام الجليل والعلَم الكبير، ناصر السنة وقامع البدعة، محمد بن إدريس الشافعي، فقد ذاع صيته، وطارت شهرته في الآفاق، وتناقل العلماء وطلبة العلم كتبه، ورحل إليه أهل الحديث والفقه من شتى أطراف العالم الإسلامي، ليأخذوا عنه العلم، وظلت كتبه وآثاره محجة للأجيال التي جاءت من بعده، وإلى يوم الناس هذا[1].

---

١. التجديد في الفكر الإسلامي، ص٩٥.

١. اسمه ونسبه

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، أبو عبد الله القرشي الشافعي المكي؛ نسيب رسول الله ﷺ وابن عمه[٢]. قال النووي رحمه الله: الشافعي رضي الله عنه قرشي مطلبي بإجماع أهل النقل من جميع الطوائف، وأمه أزدية[٣]، وينسب إلى جده شافع بن السائب صحابي صغير لقي النبي ﷺ وهو شاب مترعرع، ويروى أنَّ النبي ﷺ كان ذات يوم في فسطاط، إذ جاءه السائب بن عبيد ومعه ابنه -يعني شافع بن السائب- فنظر النبي ﷺ إليه، فقال: من سعادة المرء أن يشبه أباه[٤].



٢. لقبه

يلقب رحمه الله بناصر الحديث، وذلك لما اشتهر عنه من نصرته للحديث، وحرصه على اتباعه.

٣. مولده ونشأته

اتفق المؤرخون على أنه وُلد عام (١٥٠هـ)، وهو العام الذي تُوفي فيه الإمام أبو حنيفة رحمه الله[٥].

٤. مكان ولادته

اختلفت الروايات في مكان ولادته، فأشهرها: أنه وُلد بغزة، وقيل: بعسقلان، وقيل: باليمن[٦]. وقد قال ابن حجر في ذلك: إنه لا مخالفة بين الأقوال؛ لأن عسقلان هي الأصل في قديم الزمان، وهي وغزة متقاربتان، وعسقلان هي المدينة، فحيث قال الشافعي: غزة؛ أراد القرية، وحيث قال: عسقلان أراد

٢. منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص ١٩.
٣. تهذيب الأسماء واللغات (١/١٤٤).
٤. الإصابة (٢/١١)، ضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم (٥٣٠١).
٥. منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص٢١.
٦. المصدر السابق نفسه.

المدينة. والذي يجمع بين الأقوال: أنه ولد بغزة عسقلان، ولما بلغ سنتين حوَّلته أمه إلى الحجاز ودخلت به إلى قومها وهم من أهل اليمن؛ لأنها كانت أزدية، فنزلت عندهم، فلما بلغ عشراً؛ خافت على نسبه الشريف أن ينسى ويضيع، فحولته إلى مكة[٧]، وبهذا الجمع يذهب اللبس في اختلاف الروايات. والله أعلم[٨].

توفرت في الإمام الشافعي مآثر وصفات رفعته إلى مصافِّ المجددين، ولعل من أبرزها:

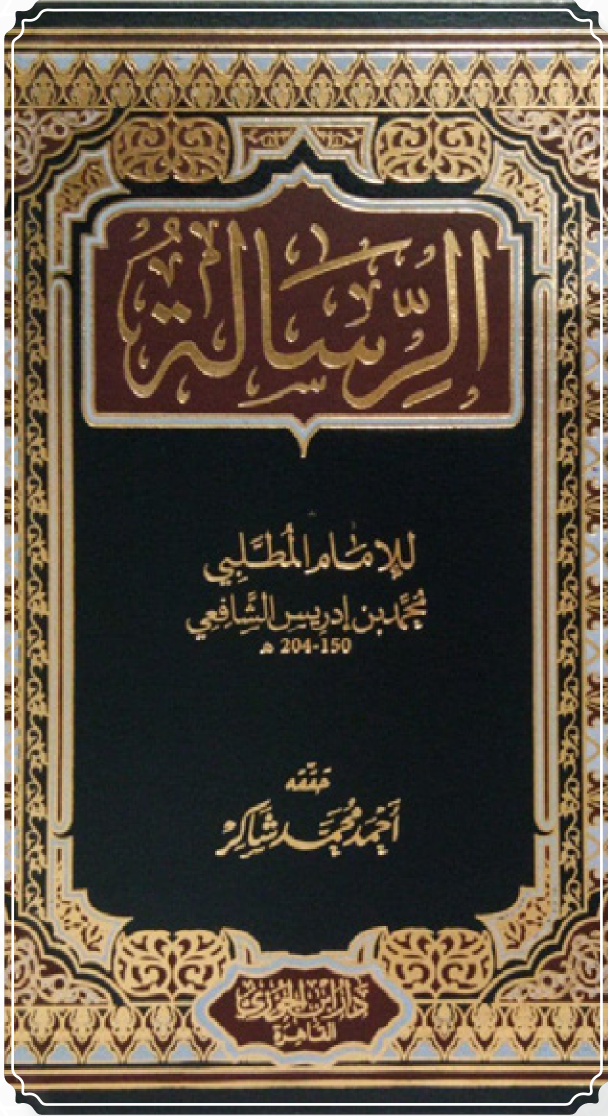
١. دفاعه عن عقيدة النبي ﷺ وأصحابه: وحربه للمنحرفين عنها.

٢. تدوينه على أصول الفقه: ويعد الشافعي أول من صنَّف في أصول الفقه، وأرسى قواعده بلا اختلاف ولا ارتياب، وذلك في كتابه (الرسالة).

٥. نصرته للسنة

وقد برزت نصرته للسنة في عدة ميادين:

أ- وضعه لقواعد أصول الحديث: يقول أحمد شاكر: وليس كتاب (الرسالة) أول كتاب ألف في علم أصول الفقه، بل هو أول كتاب في علم أصول الحديث؛ لأن ما عرض له الشافعي في كتاب (الرسالة) من بيان لحجية خبر الواحد، وشروط صحة الحديث، وعدالة الرواة، وردِّ الخبر المرسل، والمنقطع إلى غير ذلك هو أدق، وأعلى ما كتب العلماء في أصول الحديث، بل إن المتفقه في علوم الحديث يعرف أن ما كتب بعده، إنما هو فروع منه وعالة عليه، وأنه جمع ذلك وصنفه على غير مثال سبق[٩].



---

٧. توالي التأسيس، ص٥١ ـ ٥٢ بتصرف.

٨. منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة، ص٢٣.

٩. تحقيقات كتاب الرسالة للإمام الشافعي، أحمد شاكر، ص١٣.

ب ـ تعظيم السنة ورد شبهات المنكرين لحجيتها أو حجية بعضها.

ج ـ جمعه بين رواية السنة ودرايتها



فقد كان أصحاب الحديث يُعْنَون بالرواية والنقل، أكثر من عنايتهم بالفقه والاستنباط، مما جعلهم عاجزين عن المناظرة والمجادلة، وغير قادرين على تزييف طريق أصحاب الرأي، فجاء الإمام الشافعي، فأقام توازناً بين الفقه والحديث، وبين الرواية والدراية من غير غلو ولا شطط، وأعاد الناس إلى منهج الاعتدال والوسطية، لذلك فرح أصحاب الحديث بالشافعي فرحاً شديداً، وأثنوا عليه ثناء حارّاً، وسموه ناصر السنة"[١٠]، وقال إبراهيم الحربي: سألت أبا عبد الله عن الشافعي فقال: حديث صحيح، ورأي صحيح"[١١]. وقال محمد بن الحسن: إن تكلم أصحاب الحديث يوماً فبلسان الشافعي، يعني لما وضع من كتبه"[١٢]، وقال أحمد: ما كان أصحاب الحديث يعرفون معاني أحاديث رسول الله ﷺ فبيَّنها لهم"[١٣].

د - إنصافه ورجوعه إلى الدليل وعدم تعصبه

فقد قال: إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله ﷺ فقولوا به، ودعوا قولي، فإني أقول به وإن لم تسمعوا مني، وفي رواية: فلا تقلدوني. وفي رواية: فلا تلتفتوا إلى قولي. وفي رواية: فاضربوا بقولي عُرض الحائط، فلا

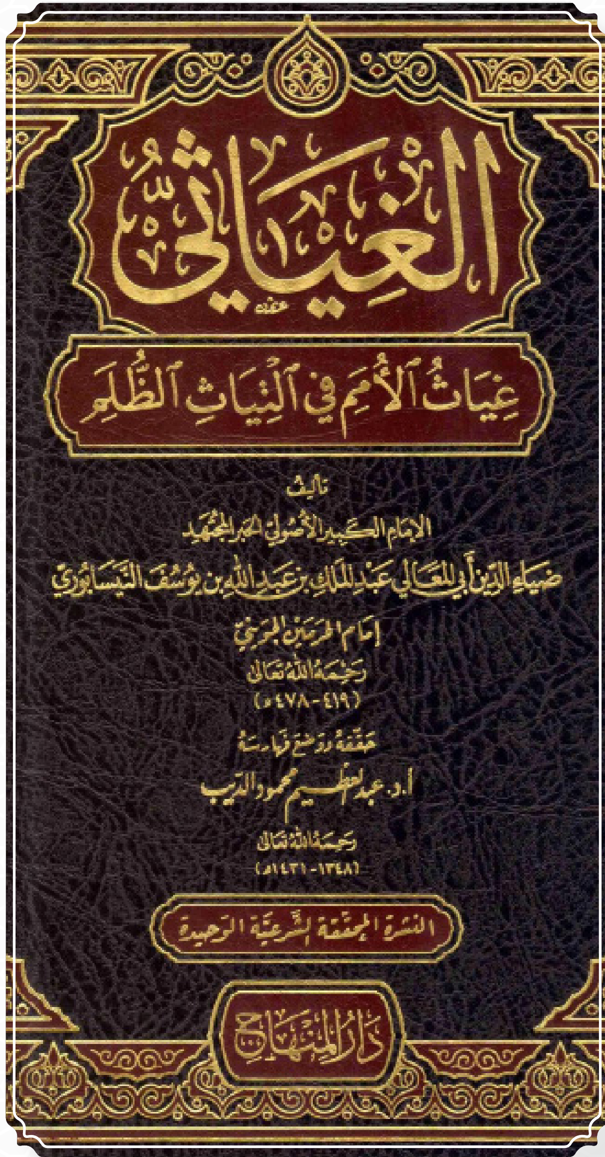
---

١٠. التجديد في الفكر الإسلامي، ص ٩٣.
١١. سير أعلام النبلاء (٨/٣٩٥).
١٢. تهذيب الأسماء واللغات (١/٧١).
١٣. المصدر السابق نفسه (١/٨٠).

قول لي مع رسول الله ﷺ[١٤]، وقال الحميدي: روى الشافعي يوماً حديثاً فقلت: أتأخذ به؟ فقال: رأيتني خرجت من كنيسة، أو عليَّ زنار، حتى إذا سمعت عن رسول الله حديثاً لا آخذ به؟![١٥]. وكان يقول لأحمد: يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث، فأعلمني به أذهب إليه، حجازياً كان، أو شامياً، أو عراقياً، أو يمنياً[١٦].

هـ - عموم علمه ونفعه أهل الإسلام

ومن خلال ما مضى عن سيرة الإمام الشافعي يتضح لنا أن اختيار نظام الملك لتراث الإمام الشافعي وفقهه في مناهج المدارس النظامية كان صحيحاً، وقد كانت جهود الوزير نظام الملك في نصرة المذهب الشافعي ذات أثر بالغ الأهمية في تثبيت دعائمه في المشرق، وتزامنت هذه الجهود مع وفرة عدد من كبار فقهاء الشافعية المتبحرين، من الذين رسخت أقدامهم في العلم، وليس أدل على المكانة المرموقة التي حظي بها الوزير نظام الملك عند علماء الشافعية من تصنيف إمام الحرمين الجويني -وهو من أكابر الشافعية- كتاباً في أحكام الشريعة، وجهه لنظام الملك، وسماه بالنظامي، ثم تصنيفه لكتاب الغياثي، والمسمى أيضاً (غياث الأمم في التياث الظلم)، وهو في أحكام السياسة الشرعية كذلك، حيث جعل قسماً كبيراً منه موجهاً للوزير نظام الملك، بعد أن أثنى عليه في مقدمة الكتاب ثناء حسناً ومدحه ببعض أبيات الشعر[١٧].



---

١٤. البداية والنهاية، نقلاً عن: التجديد في الفكر الإسلامي، ص٩٤.
١٥. المصدر السابق نفسه.
١٦. تهذيب الأسماء واللغات (٨٣/١).
١٧. المدخل إلى مذهب الشافعي، ص ٣٥٦، الغياثي، ص١٠ ـ ١٢.

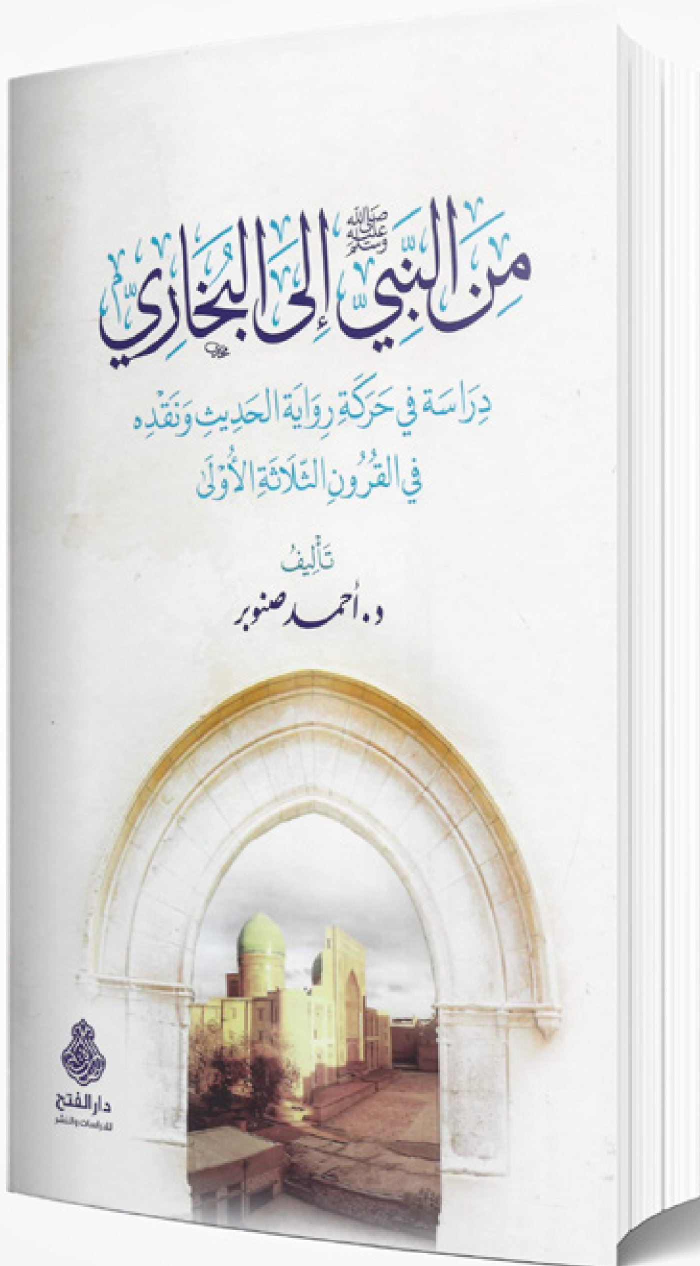
التعريف بكتاب

من النبي إلى البخاري



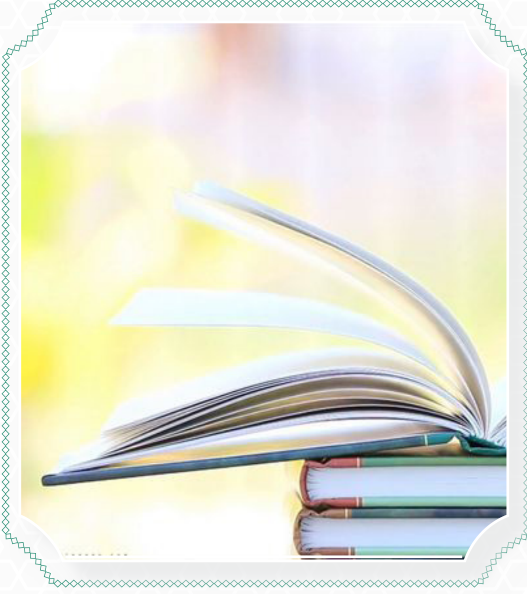
د. أحمد صنوبر

أستاذ مساعد علم الحديث



كتاب في تاريخ الحديث النبوي الشريف، يعرض تطور رواية الأحاديث النبوية على مدار القرون الثلاثة الأولى من زمن تلقّي الصحابة رضي الله عنهم الحديثَ عن النبي ﷺ وصولًا إلى زمن تصنيفها في كتب الحديث المعروفة في القرن الثالث الهجري، ويمثّل الكتاب على الحقبة الأخيرة بنموذج تصنيف البخاري صحيحَه، إذ هو معبِّرٌ تعبيرًا واضحًا عنها.

ويُظهر الكتّابُ تطورَ رواية الحديث النبوي بناءً على انتقال الرواية من جيل إلى جيل، فجاء تقسيمه على فصول أربعة:



الأول: من النبي ﷺ إلى الصحابة رضي الله عنهم.

الثاني: من الصحابة رضي الله عنهم إلى التابعين.

الثالث: من التابعين إلى أتباع التابعين:

الرابع: من أتباع التابعين إلى الكتب الحديثة المشهورة.

وكان كل فصل يهتم بسؤالين:

الأول: هل كانت رواية أحاديث النبي ﷺ روايةً طبيعية منسجمة مع حركة التاريخ في القرون الثلاثة الأولى؟ وهل هناك ما يشهد لطبيعيَّتها أم يشهد لعوامل تزويرٍ واسعةٍ لابستها؟

الثاني: هل كان هناك منهج نقدي لتوثيق تلك الروايات أيامَ حركتها وتطورها وانتشارها؟ وهل كان ذلك المنهج النقدي ذا أثر حقيقي في ضبط مسار الروايات؟

"وهما سؤالان تاريخيان، يمكن أن يُسأل بهما عن كل قول تاريخي أو حدث في الماضي، إذ لا بد أن نتثبت من أحداث التاريخ ونتوثّقَ من الأخبار فيه عبر التأكد من طبيعية الرواية وانسجامها، ومن وجود منهج نقدي يضبطها ويتأكد من صحتها وسلامتها على مدار التاريخ."

أما السؤال الأول فقد أجاب الكتّاب عنه في فصوله الأربعة، فقد اهتم في كل فصل بمظاهر ما سماه «طبيعية الرواية» وهي المظاهر التي توضح أن الرواية انتقلت على وجه طبيعي لا تشوبه مظاهر التزوير، ويدلل الكتّاب على ذلك بأدلة كثيرة منها طبيعة تلقي الصحابة عن النبي ﷺ إذ كانت أكثر الأحاديث داخلة تحت موقف «طبيعي» أكثر من أن تكون في مجالس علمية، ومنها: كذلك الطبيعية في كثرة رواية الأحاديث عند بعض الصحابة دون بعض، فإن كثيرًا من ذلك يتعلق بزمن وفاة الصحابي ومكان إقامته وأحواله الشخصية.

وكذلك الطبيعية في الفروق الشخصية بين الصحابة في أسلوب الرواية، وتحفظ بعضهم من التحديث واهتمام آخرين بذلك اهتمامًا واسعًا.



والأمر ذاته في الفصل الثاني في الكلام عن طبيعية تلقي التابعين عن الصحابة لما انتشر الحديث في الأمصار الإسلامية، إذ فاقت الكوفة البصرة في الرواية وكلاهما كان دون المدينة النبوية، وقد جاء الكتاب بأمثلة كثيرة تظهر طبيعية ذلك الانتقال.

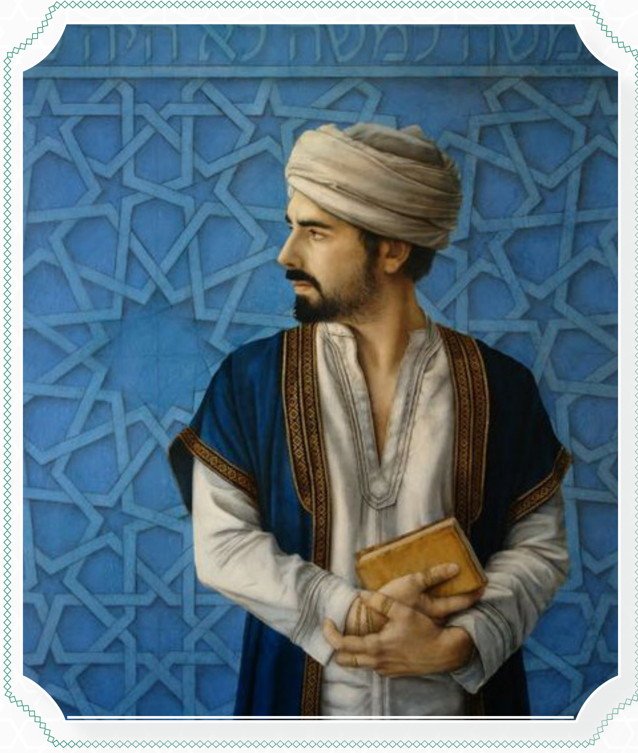
ثم ركز الكتاب في الفصل الثالث على انتشار الورق وأثره في كثرة التصانيف في الأمة الإسلامية في الربع الثاني من القرن الثاني، وأن من الطبيعي أن يكون انتشار الورق عاملًا مهمًا في انتشار صنعة الكتابة واستفادة كبار علماء المسلمين من ذلك في نشر الحديث النبوي وغيره في عصر أتباع التابعين، واختار نموذجًا لذلك وهو كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس، فبيَّن عدة معالم هامة تصوّر تطور حركة الرواية مع ظهور أمثال الموطأ.

وأما السؤال الثاني المتعلق بوجود منهج نقدي ضابط لمسار الروايات فقد ركز الكتاب تركيزًا هامًا على النقد المصاحب للرواية في كل مراحلها وتنقلاتها، مُؤْثِرًا تسميتها بـ «سلطة النقد» لِمَا فيها من تشدُّدٍ على الرواة والروايات وتخويفٍ لهم وإشعارِهم بخطورة التحديث من غير تثّبت، وهو ما له أثر هامٌّ في مسيرة النقد الحديثي.

وأظهر الكتاب أن النقد كان مصاحبًا للرواية منذ أن بدأت في زمن الصحابة فأظهر سلطة عمر بن الخطاب النقدية في ضبط مسار الرواية في زمن كبار الصحابة ثم سلطة السيدة عائشة في زمنها ثم سلطة ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما في زمن صغار الصحابة، وتطرق الكتاب لقضية الحروب التي وقعت بين الصحابة مستثمرًا إياها في تثبيت عدالتهم وأن الكذب على النبي ﷺ لم يكن من شأنهم، إذ لو تجرؤوا على الكذب -حاشاهم- لتجرؤوا في أشد موقف يحتاجونه وهو موقف الحرب، ولم يكن شيء من ذلك البتة.

" كما اعتنى بمظاهر ضبط الصحابة للأحاديث ضبطًا عاليًا، وأن نسيان الأحاديث النبوية كان بعيدًا عنهم لأمور تتعلق بالمحفوظ عنه وهو النبي ﷺ، وبطبيعة حفظهم، وبطبيعة المحفوظ. "

ثم أتبع الكتّاب نقد الصحابة لبعضهم بملحظ هام في نقد كبار التابعين لبعض أحاديث صغار الصحابة مظهرًا أن مجتمع التابعين لم يكن مجتمعًا ساذجًا في تلقيه الحديث والعلوم عن الصحابة وإنما كان مجتمعًا نقديًا من خلال أمثلة كثيرة.



ثم بيَّن في الفصل الثاني مظاهر النقد عند التابعين فتطرق لمقولات ابن سيرينَ والنّخَعي وغيرِهما مما كان له أثرٌ هامّ في الأحكام على الرواة والحديث، ليتوسع في الفصل الثالث في سلطة النقد عند أتباع التابعين ممثلًا عليها بسلطة الإمام الكبير شعبة بن الحجاج النقدية، وهو الإمام صاحب المركزية الهامة في النقد في تلك الحقبة، فتوسع الكتّاب في مظاهر نقده وأساليبه في الحكم على الروايات مختتمًا ذلك المبحث بمظاهر خوف الرواة من شعبة، الأمر الذي كان له أثر كبير في ضبط مسار الروايات، وموضحًا تأثير شعبة في صفوف طلابه من أمثال النقاد الكبار: يحيى القطان، وعبدُ الرحمن بنُ مهديٍّ، ثم طلابهم من أمثال: ابن معين، وعليِّ بن المديني، وأحمدَ بنِ حنبل، وغيرهم، وصولًا إلى: البخاري، ومسلم، وأبي زرعةَ، وأبي حاتمٍ، وغيرِهم.

وقد أظهر الكتّاب أن النقاد المعايشين للرواة والروايات استعملوا أدواتٍ نقديةً تاريخية عالية للاختبار والتمحيص والتدقيق، منها: اختبار الرواة على مدار السنين، وتلقينهم الأخطاء للامتحان، وفحُص كتبهم والتدقيق فيها من جهة أنواع الخطوط ومواضع التغير والزيادة والنقصان، ثم نظامُ مقارنة روايات الراوي بروايات غيره، وفحُص عدد تفردات الراوي عن غيره أو موافقته لهم ومخالفته، وتأثير كل حديث يخطئ فيه الراوي في الحكم عليه، ليخرج الناقد بنتيجة واضحة عن عدد روايات الراوي وعدد الأخطاء وعدد الصحيح.

"وتطرق الكتّاب إلى قضية اشتعال المجتمع في أحايينَ كثيرةٍ بعدد من النقاد الذي يختلفون وينظّرون ويدقّقون ويجهرون باختلافاتهم، مما شكّل «مجتمعا نقديًّا» لا مجاملة فيه ولا محاباة، ولم يكن النقد نقدًا مبنيًّا على ذاتية الناقد وانطباعاته الشخصية، فقد ظهر أنّ عددًا من النقاد كان يوثق بعض المخالفين في المذهب، وبعضهم من الغلاة، وكان يضعّف بعض الصالحين الأتقياء، والأمر في ذلك عائد إلى منهجية تاريخية ينظر فيها الناقد في حديث الراوي ويُصدِرُ حكمَه عليه، دون أن يُحابِيَه لمعرفة شخصية أو لعلاقة اجتماعية."

ثم أظهر الكتّاب أن البخاري ورث كل تلك الروايات وذلك النقدَ، فاجتهد اجتهادًا عاليًا في التمحيص والتدقيق والتمييز ورحل وجمع وصنف، فخرج من بين يديه كتاب من أجلِّ كتب الإسلام، من جهةِ منهجيّة التوثيق التاريخي، وقد أقرّ علماء عصر البخاري ومَن بعدهم بدقّة نظره في هذا الكتاب بناءً على شروطه العالية التي اشترطها لكل حديث، وبناءً على حسن الاختيار والجمع.

وقد كان البخاري في كتابه هذا رجلَ إشارة لا رجلَ عبارة، فأودع فيه الكثير من الإشارات الخفية المتعلقة باختيار الحديث وصيغ التحديث والسماع، وعلل بعض الروايات، وبعض الأبواب التي يظهر فيها نقد الروايات، وهو ما شَغل كثيرًا من العلماء بتتبع تلك الإشارات وتوضيحها وبيانها، مع إقرارهم بعلو قدره في هذا التوثيق، وبأهمية تلك الإشارات.

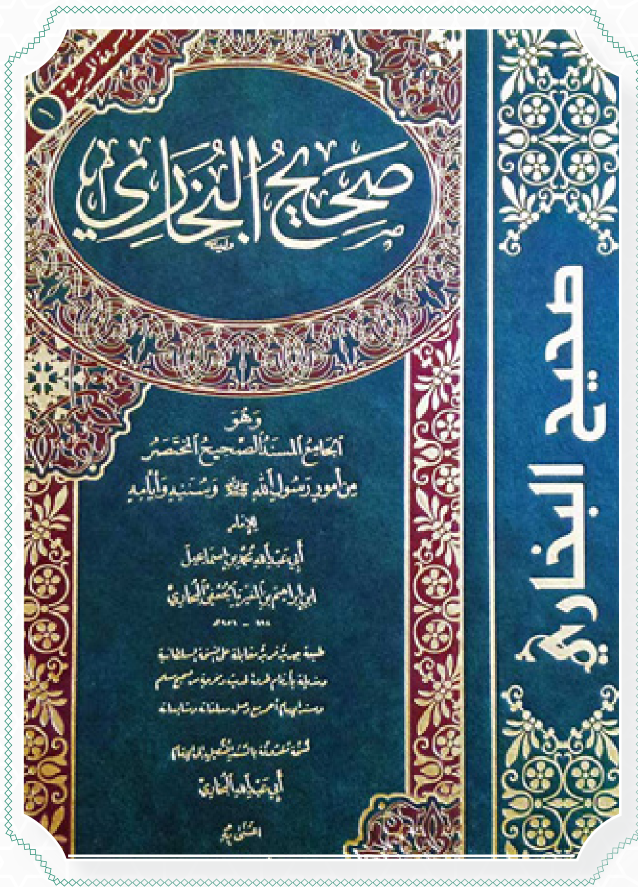


فكأنّ البخاريَّ لم يخاطب بذلك الكتابِ عوامَّ المسلمين في عصره، فإن تلك الإشارات ونظامَ الاختيار الدقيقَ والإشارات إلى العلل لا يُخاطَبُ بها إلا كبارُ النقاد والعلماء، وهم الذين فهموا مرامي البخاري فأقرّوا له.

ثم استثمر الكتّابُ نقدَ المحدثين -وأهمهم الدارقطني في نقده المشهور- لصحيح البخاري في تثبيت مكانته وأنه أرفع كتاب حديثي، وذلك بإظهار عدة قضايا، منها: أن النقد توجه إلى عدد قليل جدًا

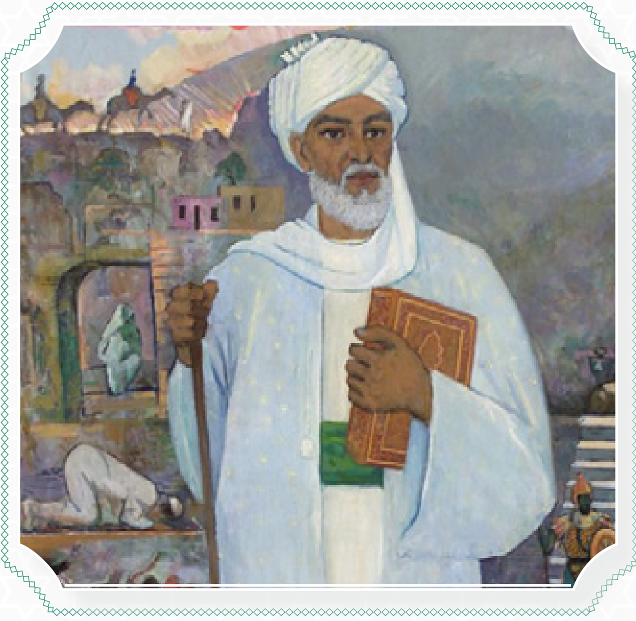
من أحاديث الصحيح لا تتجاوز نسبته ١.٥٪ من مجموع الأحاديث، وهو ما يعني زيادة تثبيت في مكانة الصحيح، فكأن الدارقطني يقول: إنني حاولت تتبُّع الصحيح ودقّقت عليه فلم أخرج إلا بأحاديثَ يسيرةٍ جدًّا، وأمّا الباقي فأنا مسلِّم له معترِف بقوّة ما فيه. ومنها: أن جلّ نقد الدارقطني توجه إلى قضايا شكلية إسنادية دون أن يتوجه إلى حديث برمته سندًا ومتنًا، إذ لم يوجد -من خلال عينة مختارة- أيُّ حديث منتقد يمكن أن يقال فيه: حديث ضعيف، وأخطأ البخاريُّ في إخراجه. ومع أن الانتقادات كان شكلية إلا أن الحافظ ابنَ حجر أجاب عن أكثر تلك الانتقادات وبيّن دقّة نظرِ البخاري فيها، ومنها: أن الدارقطني «تتبع» صحيح البخاري ولم ينتقده دائمًا، ولذلك سمّى كتابه «التتبع»، وهو أمر مغاير أوسع من الانتقاد، إذ التتبع شامل للانتقاد ولمجرد التدقيق الزائد دون أن يكون انتقادًا، ويمكن إظهار كونه تتبعًا صرفًا في أنّ الدارقطنيَّ نفسَه كان يرجّح بعض الروايات التي اختارها البخاري في مواضعَ أخرى من كتبه.

ثم انتهى الكتاب إلى تثبيت مكانة صحيح البخاري بإظهار أن الأحاديث كلها التي رواها البخاري في صحيحه قد رويت بأسانيد صحيحة في الكتب الحديثية الأخرى، فلم يتفرد البخاري في حوالي ٧٢٥٠ حديثًا إلا بحديث واحد فقط، رواه البخاري ولم يكن عند غيره من مصنفي كتب الحديث المشهورة بين أيدينا، فتفردَ البخاريُّ بإسناده كاملًا ومتنه، وهو ما رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب، باب ما يكون من الظن قال: «حدثنا سعيد بن عفير: حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان من ديننا شيئًا. قال الليث: كانا رجلين من المنافقين» .



وهو ما يعني أنّ البخاريَّ لم يخترع شيئًا من قِبل ذاته في صحيحه، بل جميع الأحاديث التي رواها موجودة بأسانيد واضحة صحيحة عند غيره من علماء الإسلام، فلو لم يخلق الله تعالى البخاري لما نقص من الدين شيء، لا سيما أن الحديثَ الذي تفرّد به البخاري لم يكن من الأحاديث التي يدور عليها الإسلام،

ولا تدور عليها الأحكام ويغني عنه أحاديثُ كثيرةٌ في بابه، فلو لم يكن مَرْوِيًّا لم ينقص من الدين شيء.



وخلص الكتاب من ذلك كله إلى أن صحيح البخاري كان ثمرة الرواية والنقد في العصور الأولى، وأنّ النقاد أقرُّوا بأنّ منهجية البخاري في التوثيق التاريخي للأحاديث كانت منهجيةً عاليةً متميزة، وأن هذا الأمر استقرَّ ردحًا طويلًا من الزمن، حيث صرّحوا مرارًا وتكرارًا بتلقيهم صحيحَي البخاري ومسلم بالقبول، مناقشِين إياهما في بعض الأحاديث وبعض المنهجيات مدققين عليهم فيها، ولم يقتصر الثناء والاعتماد على جماعة المحدثين والنقاد، بل شمل طوائف عديدة من الفقهاء والأصوليين والمتكلمين وغيرِهم.

لكن جملة تغيرات ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية غيّرت النظام العالمي في القرن الثاني عشَرَ الهجريِّ/ التاسعَ عَشَرَ الميلاديّ، وأثّرت تأثيرًا بالغًا في بلاد المسلمين، فآل الأمر إلى استعمار بلاد كثيرة في العالم الإسلامي، وانتشارٍ قويٍّ للثقافة الأوروبية والفكر الغربي، واهتزازٍ في نفوس المسلمين بعقائدهم وتراثهم أمام ما يرونه من تقدم عسكري وتقني وثقافي وفكري وسياسي في البلاد الغربية، وصار العلم التجريبي حاكمًا قويًّا على ثقافات العالم كلّها، وصار الإنسان في المركز بعد أن كان المركز للإله والدين، فبرزت مجموعة من غير المتخصصين في علوم الحديث أو الرواية أو التراث من المثقفين الذي حصّلوا شيئًا من علوم الغرب وفكره ونظامه في جامعاتهم ومؤسساتهم التعليمية، وكان تعاملهم مع تراث المسلمين تعاملًا سطحيًا، ولما نظروا في الأحاديث نظروا نظرة سريعة لم يتعرفوا فيها على نظام توثيقها ولا نظامِ روايتها وتدقيقها، ولا نظامِ النقد المصاحب لها، ولا على ما تميز به ذلك النظام التوثيقي على جميع الأنظمة في العالم في العصور الخالية، فكان حاصل نظرتهم السريعة: أنهم لم يشهدوا إلا نظامًا بسيطًا متشكلًا من مجرد إسناد ومتن، ليس فيه أيُّ نقد وتفكير وجهد، فلم يعبؤوا به.

وأيّد هذه النظرة أنّ المثقفين لم يرو أقدسَ مما سَمَّوه «النظر العقلي» بعد أن نُحّي الوحي، وأنّ الحكم على النص إنما ينبع من قارئ النص وعقله، ولم يكن ذلك النظر إلا تابعًا للعقل التجريبي لا العقل التجريدي.

وأيّدها كذلك انتشارُ مصطلحات «النهضة» و«التقدم» و«العقل» و«المدنية» في مقابل وصمهم للعصور قبل ذلك بـ«التخلف» و«الانحطاط» و«الجمود» و«الجهل»، وهي المصطلحات التي أثّرت كثيرًا في استعلاء نظرة المثقفين عند تعاملهم مع التراث، إذ هي نظرة من عَلٍ لأزمنة قديمة مليئة بالجهل والتخلف -على رأيهم-، وهو ما أورثهم حقَّ النقد دون أن يكلّفوا أنفسهم التعرّفَ على الأنظمة التراثية والفكرية السابقة، إذ هي عصورُ تخلُّفٍ أساسًا، فمن الطبيعي عندهم أن يكون نقدها ضروريًّا قويًّا.

ولهذا كله وغيره فقد تَتابع الكُتّاب المعاصرون على هذه الطريقة السطحية من النقد، وانفرط الأمر وصار لكل من يُمسك قلمًا أن ينظر في الأحاديث وينتقدها بناءً على ثقافته الحديثة ومعارفه الجديدة دون أن يكلف نفسه عناء التحقق من الحديث بوصفه حدثًا تاريخيًّا، فآل الأمر إلى سيولة عالية في الثقافة والفكر.

ويرى الكاتبُ في سبيل التخلص من السيولة الحداثية المفرطة في التعامل مع التراث الحديثي أمرين:

الأول: ضرورة إعادة بناء منهج التوثيق التاريخي للأحداث والروايات، وأهمية بناء الثقة بعلم التاريخ نفسِه، وطريقةِ التوثق من الروايات التاريخية والأحداث عمومًا، ومِن ثَمّ بناء الثقة بمنهجية نقاد الحديث، فإنّ النقد التاريخي لا يصح أن يكون تابعًا لذوق المثقف ونظرته وفكره، إذ لا تاريخ في هذه الحالة إلا ما كان في انطباعات المثقف، والتاريخ علم حقيقي بذاته متشكل في الواقع، وعلم الحديث علم تاريخ أساسًا، فتثبيت منهجية النقد التاريخي أساس في تثبيت منهجية نقد المحدثين، منعًا للسيولة المعرفية التي سيطرت على الحالة العلمية في القرنين الماضيين، مع اجتياح الحداثةِ المعارفَ كلَّها، والإسلاميةَ منها في بحثنا هذا.

الثاني: ضرورة التخلّي عن النظرة الاستعلائية إلى الماضي بعيون «التقدّم» و«التنوّر» و«النهضة» واصفين إياه بـ «التخلّف» و«الانحطاط» و«الجمود»، دون دراسة حقيقيّة لتراث ذلك الماضي، وأخصّ هنا علمَ النقد الحديثي، إذ قد ظهر أنّ منهجيةً نقديةً عالية استقرّت في المجتمع العلمي الإسلامي قرونًا طويلة، لم يطلع عليها مثقفو الحداثة ولم يَخْبُروها، فصاروا يطالبون بالتفكير «خارج الصندوق» دون أن يعرفوا «الصندوق» نفسَه، ولا المعارف التي يحتوي عليها، فكان النقد سطحيًّا ذاتيًّا أيديولوجيًّا، قبل أن يكون معرفيًّا منهجيًّا.

الحافظ ابن حجر العالِم الموسوعي



أ.د عبد الرحمن بن إبراهيم فودة

أستاذ البلاغة بكلية دار العلوم - القاهرة

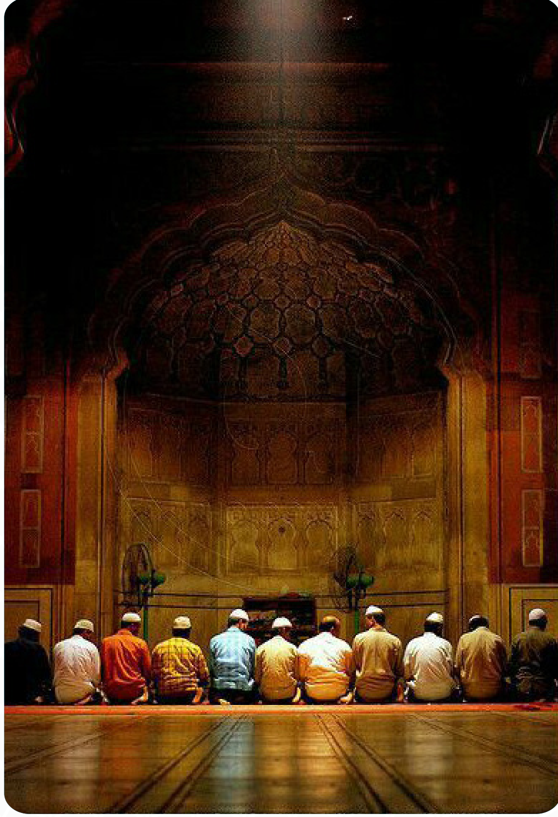
الحمد لله الذي نزَّل القرآن وعلَّمه، وخلق الإنسان وكرَّمه، وشرع الدين فأحكمه، وصلاة وسلامًا دائمين متلازمين على سيد الخلق، ورسول الحق، والناطق بالصدق، رسولنا محمد ﷺ، ورضي الله عن صحابته والتابعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد..

فلا شك أن الاشتغال بسنة الحبيب المصطفى، والرسول المجتبى، والشفيع المرتضى، نبينا، ورسولنا، وحبيبنا، وقرة أعيننا، وتاج رؤوسنا، وفخار جنسنا، محمد ﷺ - من أجَلِّ ما تفنى فيه الآجال، وتقطع لأجل تحصيله الوِهَاد والوديان والجبال، فيكفي المشتغِلَ به فخرًا ما يقتبسُه من هدي السراج المنير، ونور الهادي البشير ﷺ، ويكفيه كذلك ما يحصِّلُه من الصلاة عليه، وما يجنيه من بهجة القربِ منه والوصولِ إليه، فما جاوَرَت سنَّتُه شيئًا إلا شرَّفتْه، وما سَطَعَت أنوارُ بهائِه على ظلام إلا أجْلَتْه، صلواتُ ربي عليه تترا، ما أحصى العادُّ شفعًا ووترا.



ولقد أدرك هذا الفضلَ سلفُنا الصالح المبارك، الذين عرفوا لسنة رسول الله ﷺ قدرها، وعظيم منزلتها بين العلوم، فوهبوها أعمارهم، واشتغلوا بها ليلهم ونهارهم، تعلُّمًا وتعليمًا وعملًا، إذ هي والقرآن خير عند الله عز وجل ثوابًا وخير أملًا، فما ضنوا عليها بشيء من جهدهم، وما بخلوا عليها بشيء من مالهم، فصنفوا فيها التصانيف النافعة، التي رجوا أن تكون لهم عند الله شافعة، ولقد جاءت إسهاماتهم متآزرة متكاملة، ولعلوم سنة الحبيب المصطفى ﷺ شاملة، فهذا تجرد للصحيح، وهذا لجمع السنن، وذاك لمرويات كل صحابي على حدة، وذلك لدراسة أحوال الرجال الذين عليهم مدار السند، وذلك لشرح المتن وبيان ما فيه من أنوار، وفوائد، وأحكام... إلخ.

فكان فضلهم على الأمة عظيماً، وعملهم في جلالة القدر جسيما، حتى إن المسلم في هذه الأيام التي بينها وبين الساعة رمية حجر، ولا يكاد يعرف من علماء الأمة من له حظ وخطر - لَيَعرف (بكبسة زر) درجة الحديث، ومدى صحة نسبته إلى الصادق المصدوق ﷺ، ولَيَعرف كذلك وصف النبي ﷺ الخَلقي والخُلقي، وماذا كان يلبس ﷺ، وكيف كان يمشي ﷺ، وعلى أي فك كان يمضغ ﷺ، وعلى أي جنب كان يضطجع ﷺ، بل كيف كان يشير بيده ﷺ، وكيف كان ينظر ﷺ، وكيف كان يبتسم ﷺ، وإلى أي درجة كان تبسمه ﷺ، بل من أي الأنواع كان هذ التبسم، وكيف كان يكلم الكبير والصغير، والمرأة



والطفل، وكيف كان تنفسه ﷺ، وملمس يديه ﷺ، بل كيف كانت رائحته ﷺ... إلخ. هذا فضلًا عن كيفية الصلاة، والصيام، والنسك، وردّ المظالم، وإقامة الحدود، وتجييش الجيوش، ومراسلة الملوك والأمراء، ومخاطبة الملائكة، ودعوة الجن... إلخ.

يعرف هذا بسنده إلى النبي ﷺ، فيقرأ ذلك وكأنه يرى حبيبه وقرة عينه ﷺ، وما كان هذا ليكون إلا بفضل الله -، وبجميل تقديره ﷺ، وبما قيضه من نفوس طاهرة اصطفاها لصحبة نبيه ﷺ، وقلوب مخبتة اختارها لصحبة أصحاب رسوله ﷺ، وعقول فذة أودعها اللهُ العلمَ فوعتْه، وألسنة صادقة لهجت به وبلَّغتْه.

ولقد كان من هؤلاء الجبال الشُّمّ، والأعلام العُظم - الإمامُ البخاري رحمه الله، الذي جرَّد كتابه لجمع الصحيح المسند من أحاديث رسول الله ﷺ وأموره، وسننه، وأيامه ﷺ، وأودعه من دقائق العلم، ونوابغ الفهم ما يتنسَّم العالِم عبيره يتضوَّع من ترجمات أبوابه وفنونها، وتقسيمات أحاديثه وتقطيعات متونها؛ لذلك انبرى كثير من العلماء لشرحه وبيانه، وتفيؤ ظلاله وأفنانه، مستقين من معينه، ومقتنين من ظاهر كنوزه ودفينه، فخرجت المؤلفات التي تخدم هذا السفر النفيس تربو على المئات، ولعل من أهم هذه الكتب: (فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله)، فلا يكاد يُذكر ابن حجر إلا ويستحضر في الأذهان كتابه (فتح الباري)، فيُقرن اسمه باسم الإمام البخاري رحمه الله، ولا يكاد يُذكر الإمام العَلَم البخاري رحمه الله إلا ويُذكر صحيحهُ الذي نقَّح فيه أحاديث رسول الله ﷺ، فيُقرن اسمه باسم النبي الأعظم ﷺ، فأي شرف، وأي فخر هذا الذي يربطك بحبيبك وشفيعك ﷺ، ويجعل اسمك مقرونًا باسمه المرفوع، وحديثه المتبوع ﷺ!

وفي هذه السطور المتبقية نعرف القارئ الكريم بالحافظ ابن حجر رحمه الله، وبجهده في عمل واحد فقط من أعماله العظيمة والنافعة، وهو كتابه (فتح الباري) الذي يعد -بحق- درة تاج مصنفاته، وواسطة عقدها، بادئين بترجمته مختصرةً، ثم بذكر طرف يسير من جهده في خدمة الصحيح.

ترجمة موجزة لابن حجر رحمه الله[١]:

هو أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن أحمد الكناني، العسقلاني الأصل، ثم المصري، الشافعي، قاضي القضاة، شيخ الإسلام، شهاب الدين، أبو الفضل بن نور الدين، بن قطب الدين، بن ناصر الدين، بن جلال الدين، المعروف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه. الإمام، العلامة، الحافظ، فريد الوقت، مفخر الزمان، بقية الحفاظ، علم الأئمة الأعلام، عمدة المحققين، خاتمة الحفاظ المبرزين والقضاة المشهورين، فريد زمانه، وحامل لواء السنة في أوانه، ذهبي هذا العصر ونضاره، وجوهره الذي ثبت به على كثير من الأعصار فخاره، إمام هذا الفن للمقتدين، ومقدم عساكر المحدثين، وعمدة الوجود في التوهية والتصحيح، وأعظم الشهود والحكام في بابي التعديل والتجريح، شهد له بالانفراد خصوصًا في شرح البخاري كل مسلم، وقضى له كل حاكم بأنه المعلم، له الحفظ الواسع الذي إذا وصفته فحدِّث عن البحر ابن حجر ولا حرج، والنقد الذي ضاهى به ابن معين فلا يمشي عليه بهرج هرج، والتصانيف التي ما شبَّهتها إلا بالكنوز والمطالب، فمن ثم قيَّض لها موانع تحول بينها وبين كل طالب، جمَّل الله به هذا الزمان الأخير، وأحيا به وبشيخه سنة الإملاء بعد انقطاعه من دهر كثير.

ولد في مصر في ثاني عشر -وقيل: ثالث عشر- من شعبان المكرم سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، مات عنه والده وهو طفل في شهر رجب من سنة سبع وسبعين؛ فنشأ يتيمًا في كنف أحد أوصيائه، وهو زكي الدين الخروبي أحد كبار التجار، فأُدخل الكُتَّاب بعد إكمال خمس سنين، وكان لديه ذكاء وسرعة حافظة بحيث إنه حفظ سورة مريم في يوم واحد! وكان يحفظ الصحيفة من الحاوي الصغير من مرتين: الأولى تصحيحًا، والثانية قراءة في نفسه، ثم يعرضها حفظًا في الثالثة! فحفظ القرآن وهو ابن تسع عند الصدر السفطي شارح مختصر التبريزي، وصلى به على العادة بمكة حيث كان مع وصيه بها.

---

١. انظر ترجمته في: لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ لابن فهد (ص٢١١)، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر للسخاوي (١/ ١٠١)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (٢/ ٣٦)، نظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي (ص٤٥-٤٦)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي (١/ ٧٤-٧٥)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (١/ ٨٧-٨٩)، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول لصديق حسن خان (ص٣٥٤-٣٥٥)، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (٢/ ٢٠-٢١)، الأعلام للزركلي (١/ ١٧٨).

ثم حفظ العمدة، وألفية الحديث للعراقي، والحاوي الصغير، ومختصر ابن الحاجب في الأصول والملحة، وبحث في ذلك على الشيوخ، وعني بالأدب والشعر حتى برع فيهما، ونظم الكثير فأجاد، وهو ثاني السبعة الشهب من الشعراء، وكتب الخط المنسوب.

ثم حبب إليه فن الحديث؛ فأقبل عليه بكلِّيته سماعًا وكتابةً وتخريجًا وتعليقًا وتصنيفًا، وطلبه من سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وما بعدها، ولازم حافظ عصره زين الدين العراقي حتى تخرج به، وأكبَّ عليه إكبابًا لا مزيد عليه، وحمل عنه جملة نافعة من علم الحديث سندًا ومتنًا وعللًا واصطلاحًا حتى رأس فيه في حياة شيوخه وشهدوا له بالحفظ.



وأدرك من الشيوخ جماعةً كلٌّ واحد رأسٌ في فنه الذي اشتهر به، فتفقه على الشيخ سراج الدين البلقيني، والشيخ سراج الدين ابن الملقن، والشيخ برهان الدين الأنباسي، وأخذ الأصول وغيرها عن العلامة عز الدين بن جماعة ولازمه طويلًا.

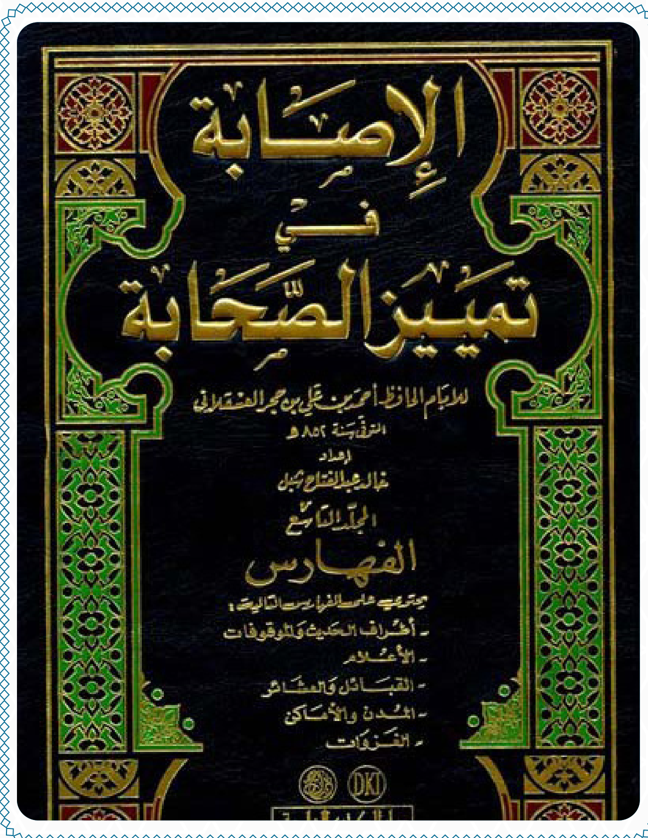
وحج في أواخر سنة أربع وثمانين وجاور بمكة في السنة التي بعدها وهي سنة خمس، فسمع بها اتفاقًا على العفيف الشوري صحيح البخاري، وهو أول شيخ سمع عليه الحديث، وبحث في عمدة الأحكام للحافظ عبد الغني المقدسي، وعلى عالم الحجاز الحافظ أبي حامد محمد بن ظهيرة، وصلى التراويح بالمسجد الحرام بالقرآن العظيم في هذه السنة، ثم في سنة ست سمع صحيح البخاري بمصر على عبد الرحيم بن رزين، وسمع بها بعد التسعين فطلبه من جماعة من شيوخها والقادمين إليها من ذوي الإسناد العالي كابن أبي المجد والبرهان الشامي وعبد الرحمن بن الشيخة والحلاوي والسويداوي ومريم بنت الأذرعي.

ورحل إلى دمشق في سنة اثنتين وثمانمائة، فأدرك بها بعض أصحاب القاسم ابن عساكر والحجار ومن أجاز له، والتقى سليمان بن حمزة وأشباهه ومن قرب منهم، وحج مرات، وسمع بعدة من البلاد كالحرمين، والإسكندرية، وبيت المقدس، والخليل، ونابلس، والرملة، وغزة، وغيرها - على جمع من الشيوخ، منهم نور الدين الهيثمي، والأبشيطي، والخليلي، والأيكي، وابن سالم، والقلقشندي، وبدر الدين ابن مكي، وغيرهم.

ورحل إلى الشام والحجاز ودخل اليمن، فاجتمع بالعلامة مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي صاحب القاموس.

ثم رجع فأقبل بكليته على الحديث، وقصر نفسه عليه مطالعة وإقراء وتصنيفًا وإفتاء، وتفرد بذلك، وشهد له بالحفظ والإتقان القريبُ والبعيدُ والعدوُّ والصديقُ حتى صار إطلاق لفظ الحافظ عليه كلمةَ إجماع، وصار هو المعول عليه في هذا الشأن في سائر الأقطار، وقدوة الأمة، وعلامة العلماء، وحجة الأعلام، ومحيي السنة.

وكان فصيح اللسان، راوية للشعر، عارفًا بأيام المتقدمين وأخبار المتأخرين، صبيح الوجه، وولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل، ورحل الطلبة إليه من الأقطار، وطارت مؤلفاته في حياته وانتشرت في البلاد، وتكاتبت الملوك من قُطر إلى قُطر في شأنها، وهي كثيرة جدًّا، منها ما كمل ومنها ما لم يكمل، وقد عددها السخاوي في الضوء اللامع، وقد زادت تصانيفه التي انتهى معظمها في فنون الحديث، وفنون الأدب، والفقه، وغير ذلك - على مئة وخمسين تصنيفًا، ورُزق فيها السعد والقبول، خصوصًا (فتح الباري في شرح البخاري) الذي لم يسبق لنظيره، وقد بيع بثلاث مئة دينار، و(الإصابة في تمييز الصحابة)، و(الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة)، وله نظم جيدة، وخطب بليغة، وديوان شعر.

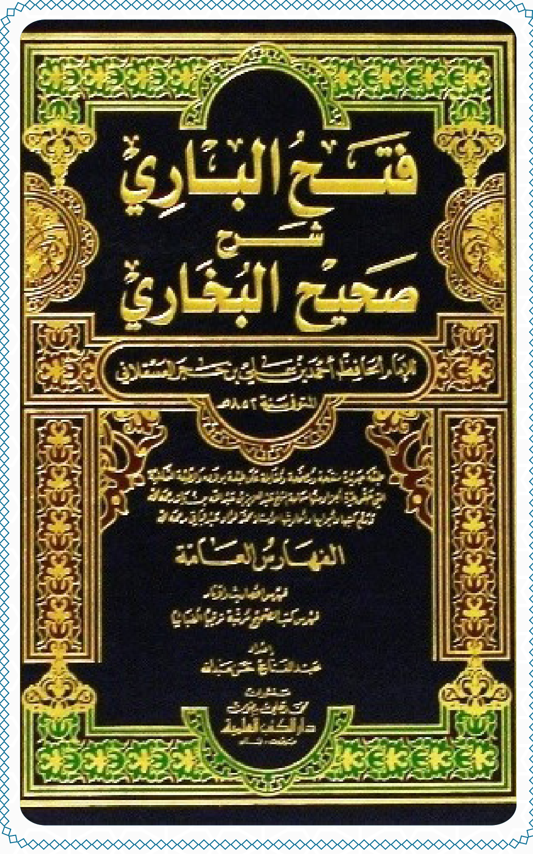


وقد توفي الحافظ ابن حجر بمصر في الثامن عشر من ذي الحجة من سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة. رحمات الله عليه تَترا، وأعاننا على الوفاء بحقه علينا دعاءً وشكرا، وجمعنا به في جنات الخلود؛ إنه سبحانه خير مأمول ومقصود، والحمد لله رب العالمين.

أما عن جهده في خدمة صحيح البخاري فهو مما لا توفيه هذه المقالة الموجزة، لكن يكفي أن يُعلَم أن الحافظ ابن حجر رحمه الله قد سار على نَفَس البخاري رحمه الله -كما يقولون- في تصنيفه الصحيح وتبويبه له، ذلك أن البخاري رحمه الله كان يقطّع الحديث الواحد -كما هو معلوم- فيذكره في غير موضع من صحيحه، لعلَّة عنده، تظهر لبعضهم، وتخفى على آخرين، فسار الحافظ الشارح على نهج البخاري المصنف، فكان يشرح الحديث بما يناسب الغرض الذي من أجله ذكره الإمام البخاري رحمه الله في هذا الباب تحديدًا، فساعةَ تفتح الحديث في أيٍّ من مواضعه في الصحيح تجد الحافظ رحمه الله قد شرحه شرحًا مستوفيًا، أو أحال على ما تقدم مع ذكر بعض الفوائد، أو قال: «وسيأتي الكلام على بقيته في باب كذا».

وهذا الصنيع الطيب جعل قارئ الفتح يشعر فيه بما يعادل الوحدة الموضوعية التي يجدها قارئ القصيدة الجيدة، فنَفَس الحافظ في شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات...» -وهو أول أحاديث الصحيح- كنفَسِه في شرح حديث « كلمتان خفيفتان...» -وهو آخر أحاديث الصحيح-، وهذ التوازن يعد من مناقب هذا الفتح ومآثره، فلا تكاد تجده عند كثير من شراح الصحيح، حيث يقفون عند أول مواضع الحديث ذكرًا في الصحيح، ويلقون فيه ما في جعبتهم، ويأتون على كل فائدة فيه فيبينونها أحسن بيان، ثم تأتي لمواضع الحديث الباقية فلا تكاد تجد فيه شيئًا إلا قليلًا، ولك أن تقارن مقال ابن حجر في حديث: «إنما الأعمال بالنيات» في مواضعه السبعة من الصحيح بمقال الكرماني، والعيني -مثلًا- في المواضع نفسها. رحم الله الجميع، وجزاهم عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

والحافظ ابن حجر عالم موسوعي، له في كل علم سهام نافذة، وله في كل فن آراء بارزة، يظهر ذلك لقارئ الفتح جليًّا، فإذا تكلم في فقه الحديث رأيته فقيهًا أصوليًّا، وإذا تحدث في اللغة وجدته لغويًّا، وإذا تكلم في طرق الحديث ورجاله وجدته محدِّثًا، وكذا في كل فن، حتى إنك لتشعر من كلامه أنه عالم في هذا الفن ولا يحسن غيره.



وقد وجد العبد الفقير أثر ذلك عندما وفقه الله لفهرسة فتح الباري، حيث جاءت الفهارس مقاربة لحجم الكتاب الأصلي في أربعة عشر مجلدًا، وهذا دليل على أن كل كلمة كتبها الحافظ خليقة بأن تدون في فهرس!

وسأضع بين يدي القارئ الكريم عناوين هذه الفهارس (في رؤوس أقلام) ليعلم القارئ موسوعية ابن حجر رحمه الله، وتبحره في العلوم التي أودعها شرحه حتى قيل فيه: «لا هجرة بعد الفتح»!

حيث جاءت فهارسنا على النحو التالي:

المجلد الأول، وفيه بعد المقدمة الفهارس الآتية:

١. فهرس الآيات القرآنية. ٢. فهرس علوم القرآن. ٣. فهرس كتب صحيح البخاري مرتبة حسب ورودها في الكتاب بدءًا من كتاب رقم (١) : بدء الوحي في الجزء الأول، وانتهاءً بكتاب (٩٧) : التوحيد في الجزء الثالث عشر، وقد رقَّمناه بذكر رقم الكتاب، ثم عنوانه، ثم الجزء والصفحة.

٤. فهرس كتب صحيح البخاري مرتبة ألفبائيًا بدءًا من كتاب (الإجارة) وانتهاء بكتاب (الوكالة)، ونذكر عنوان الكتاب، ورقمه، والجزء الذي ورد فيه.

٥. فهرس أبواب صحيح البخاري مرتبة الفبائيًّا بدءًا من باب (آخر ما تكلم به النبي ﷺ)، فنذكر عنوان الباب ورقمه، ورقم الكتاب التابع له، واسمه، والجزء والصفحة.

ولم نذكر فهرس أبواب صحيح البخاري على حسب ورودها في الكتاب؛ لأنها موجودة في نهاية كل جزء من الكتاب المطبوع بين أيدي الناس.

٦. فهرس العقيدة. ٧. فهرس التعريفات الشرعية والمصطلحات. ٨. فهرس الفقه. ٩. فهرس أصول الفقه. ١٠. فهرس الإجماع.

المجلد الثاني: فهرس أطراف الأحاديث متنًا وشرحًا، ومنهجنا فيه كما يلي:

وضعنا كل الأطراف الحديثية مما نص عليه النبي ﷺ بقول أو فعل أو تقرير، ولو اضطرنا ذلك إلى تجزيء الحديث الواحد ووضعه في أكثر من موضع في الترتيب الألفبائي.

على سبيل المثال: حديث رقم (٨٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إن وفد عبد القيس أتوا النبي ﷺ...». فقد أوردناه في:



- إن وفد...
- من الوفد؟
- مرحبًا بالقوم.
- فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع
- هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟
- شهادة أن لا إله إلا الله.

مع مراعاة وضع كل طرف في مكانه من الترتيب الألفبائي.

وقد استخدمنا في فهرس الأحاديث، وفهرس الآثار رموزًا للاختصار في الملاحظات التي نكتبها في نهاية طرف الحديث أو الأثر، فوضعنا (م) لمسلم، و(ق) للمتفق عليه، و(د) لأبي داود، و(ت) للترمذي، و(ن) للنسائي... إلخ، وهي تناهز المائة اختصار!

المجلد الثالث، ويشمل:

١- فهرس الآثار. ٢. فهرس غريب الحديث والأثر. فهرس مصطلح الحديث. ٣. فهرس الفوائد الحديثية. ٤. فهرس اللطائف الإسنادية. ٥. فهرس من ليس له في البخاري سوى موضع واحد. ٦.

فهرس ناسخ الحديث ومنسوخه. ٧. فهرس الجمع بين الترجمة وما تحتها. ٨. فهرس الجمع بين المتعارضات. ٩. فهرس توضيح المبهمات. ١٠. فهرس ما قال فيه الحافظ لم أجده. ١١. فهرس التكميلات، وهو ما وضعه الحافظ ابن حجر تحت عنوان (تكميل). ١١. فهرس التنبيهات، وهو ما وضعه الحافظ ابن حجر تحت عنوان: (تنبيه). ١٢. فهرس الخواتيم، وهو ما عنون له الحافظ بعنوان خاتمة، ودائمًا ما يكون في نهاية كل كتاب فقهي، وقد قسَّمنا كلًّا تقسيمًا حسنًا، ورتبناه بذكر الباب، والجزء، والصفحة، ورقم الحديث؛ ليسهل على القارئ الكريم الوصول إليه.

المجلد الرابع: ويشمل الفهارس الآتية:

١- مسائل النحو. ٢- مسائل الصرف. ٣- مسائل البلاغة. ٤- فهرس الفوائد اللغوية. ٥- فهرس الأمثال والحكم. ٦- فهرس الشعر وأنصاف الأبيات. ٧- فهرس الفوائد الفرائد. ٨- فهرس الفوائد التي نص عليها ابن حجر بعنوان: فائدة. ٩- فهرس الآداب والأخلاق. ١٠- فهرس الرقاق والمواعظ. ١١- فهرس الترجيحات. ١٢- فهرس المنوعات. ١٣- فهرس تقييدات الغريب. ١٤- فهرس تقييدات الأماكن. ١٥- فهرس تقييدات الطوائف والقبائل. ١٦- فهرس تقييدات أعلام الرجال. ١٧- فهرس تقييدات أعلام النساء. ١٨- فهرس تقييدات الكنى والألقاب. ١٩- فهرس تقييدات المنوعات.

المجلد الخامس: ويشمل الفهارس الآتية:

١. فهرس الكتب والمصنفات الواردة في الفتح. ٢. فهرس الأسر والقبائل. ٣. فهرس الأحداث والغزوات. ٤. فهرس الأماكن والبلدان. ٥. فهرس الفرق والطوائف. ٦. فهرس الأوائل. ٧. فهرس لطائف التراجم. ٨. فهرس الألقاب الفخمة. ٩. فهرس منهج البخاري وعاداته. ١٠. فهرس الاستدراكات بأنواعها. ١١. فهرس الأخطاء الطباعية.

المجلد السادس:

ويشمل (الإحالات)، وقد راعينا فيه ما ذكره الحافظ مما قال: «كما سيأتي»، أو: «كما مضى»، أو: «وفي رواية المصنف في التفسير»، أو غير ذلك من العبارات التي يحيل فيها القارئَ على معلومة سابقة أو لاحقة.

المجلد السابع والأخير، وفيه (فهرس الأعلام) مرتبًا على الألفبائي، وقد راعينا فيه أن نضع أمام العالم معلومة تضيف للقارئ شيئًا جديدًا، فنكتب أمام العَلَم (جبريل): «أمين الوحي»، أو: «مَلاك»، أو نكتب: «شيخ البخاري» مثلاً، أو: «صحابي»، أو نضع: «رضي الله عنه»، أو: «عليه السلام» إن كان نبيًّا، أو: «ثقة»، أو: «ضعيف» أو ما إلى ذلك مما يزيل الرتابة والملل من الباحث في فهرس الأعلام، وقد راعينا فيه ما يلي:

١- البدء من الألف إلى الياء.

٢- إسقاط (ابن)، و: (أب)، و: (أم) من الترتيب.

٣- وضع المعرف بـ (أل) بعد انتهاء الحرف الذي يليها؛ مثلاً: (التميمي) يأتي بعد (تيم الله).

فأنت ترى -أيها القارئ الكريم- أن هذه الفهارس قد فهرست لأمور تتعلق بعلوم القرآن، وأخرى بعلوم الحديث ورجاله، وثالثة بالفقه وأصوله، ورابعة باللغة نحوها، وصرفها، وبلاغتها، فضلاً عن الشعر، والأمثال، والحِكَم، والرقائق، والآداب... إلخ.



وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سعة علم الحافظ الذي أودع في شرحه هذه الدرر والجواهر، فالتقطها العبد الفقير لينظمها في موسوعة فهارس تسهل على القارئ الوصول إليها. وهذا من عظيم فضل الله علينا، حيث يرتبط اسمنا باسم الحافظ ابن حجر، المرتبط بالإمام البخاري، المقترن بسيدنا رسول الله ﷺ، فالحمد لله ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شاء الله ربُّنا من شيء بعد.

وصلاة وسلامًا على المنصور من ربه، المفدي من أتباعه وأحبابه، محمد ﷺ.

التاسع والعشرون من شهر ربيع الأول

من سنة ١٤٤٤ من هجرة المصطفى ﷺ



أدلة تدوين الحديث في العهد النبوي

والرد على المشككين



الشيخ شكري مجولي

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

اشتهر في أذهان عامة الناس من غير المتخصصين في علم الحديث والمشتغلين به بصورة راسخة أن السُّنة لم تدون إلا في القرن الثاني، يتناقلها العلماء حفظاً دون تقييد أو كتابة، ومن أجل دحض هذه الفكرة الخاطئة أردنا في هذا البحث ومن خلال النصوص أن نثبت الحقيقة التي يجهلها كثير من الناس ويروج لها المشككون في السنة النبوية والطاعنون فيها من المستشرقين والمستغربين والعلمانيين ومنكري السنة الذين يطلقون على أنفسهم زوراً وبهتانا (القرآنيون)، وهي أن السنة دُونت في القرن الأول، في عهد الرسول ﷺ، وفي عهد الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

وقد "وردت أحاديث كثيرة عن عدد من الصحابة تبلغ بمجموعها رتبة التواتر، في إثبات وقوع الكتابة للحديث النبوي، في عهده ﷺ"[١]. و"لا مجال للشك في تحقيق تقييد الحديث في عصر النبي ﷺ نفسه، وليس على رأس المائة الثانية للهجرة... لأن الكتب والأخبار والوثائق التاريخية لا تدع مجالاً له"[٢].

تدوين السنة بدأ في حياة النبي ﷺ



الأحاديث والآثار الواردة في الإذن بكتابة الحديث

ورد الإذن بكتابة الحديث في روايات كثيرة منها:

حديث أبي هريرة: "ما من الصحابة أحدٌ أكثر حديثاً مني، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو، فإنه يكتب وأنا لا أكتب"[٣].

وعنه أيضاً قال: خطب رسول الله ﷺ في فتح مكة إلى أن قال: "اكتبوا لأبى شاه"[٤].

حديث ابن عباس: إن رسول الله ﷺ قال في مرضه: "ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده"[٥].

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: "كنت اكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ". إلى أن قال: "فقال رسول الله ﷺ: أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حقاً"[٦].

جهود الصحابة رضي الله عنهم في تدوين السُّنَّة المطهَّرة

لقد كانت جهود الرعيل الأول من الصحابة الكرام رضي الله عنهم في تدوين السُّنَّة ونقلها إلى الأمة، وحفظها من كل مايشوبها. وفيما يلي بعض النماذج من تلك الجهود الطيبة المباركة:

١. منهج النقد في علوم الحديث، للدكتور نور الدين عتر (ص٤٠).
٢. علوم الحديث، لصبحي الصالح (ص ٣٣).
٣. باب كتابة من العلم من كتاب العلم من صحيح الإمام البخاري.
٤. المصدر السابق.
٥. المصدر السابق.
٦. رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ١٦٣، والدارمي في سننه باب من رخص في كتابة العلم ١/ ١٠٣، ورواه أيضا أبو داود في كتاب العلم من سننه ٤/ ٦٠، والخطيب في تقييد العلم ص٧٤، ٨١ من عدة طرق وبعدة ألفاظ.

الحث على حفظ الحديث وتثبيت ذلك الحفظ، حتى كان كثير منهم يأمر تلاميذه بالكتابة لتثبيت حفظهم ثم محو ما كتبوه حتى لا يتكل على الكتاب، قال الخطيب البغدادي: "وكان غير واحد من السلف يستعين على حفظ الحديث بأن يكتبه، ويدرسه من كتابه، فإذا أتقنه محا الكتاب، خوفاً من أن يتّكل القلب عليه فيؤدي إلى نقصان الحفظ وترك العناية بالمحفوظ"[٧].

كتب أسيد بن حضير الأنصاري رضي الله عنه بعض الأحاديث النبوية، وقضاء أبي بكر وعمر وعثمان، وأرسله إلى مروان بن الحكم[٨].



وكتب جابر بن سمرة رضي الله عنه بعض أحاديث رسول الله ﷺ وبعث بها إلى عامر بن سعد بن أبي وقاص بناء على طلبه ذلك منه[٩].

وكتب زيد بن أرقم رضي الله عنه بعض الأحاديث النبوية، وأرسل بها إلى أنس بن مالك رضي الله عنه[١٠].

وكتب زيد بن ثابت في أمر الجدِّ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك بناء على طلب عمر نفسه[١١].

جمع سمرة بن جندب ما عنده من حديث رسول الله ﷺ وبعث به إلى ابنه سليمان، وقد أثنى الإمام محمد بن سيرين على هذه الرسالة فقال: "في رسالة سمرة إلى ابنه علمٌ كثير"[١٢].

---

٧. تقييد العلم للخطيب، ص٥٨.
٨. مسند الإمام أحمد، ٤/ ٢٢٦.
٩. صحيح مسلم كتاب الإمارة ح ١٠، ومسند أحمد ٥/ ٨٩.
١١. مسند الإمام أحمد، ٤ / ٣٧٠ - ٣٧٤، وتهذيب التهذيب لابن حجر، ٣/ ٣٩٤.
١٢. سنن الدارقطني ٤ /٩٣ - ٩٤.

وكتب عبد الله بن أبي أوفى بأحاديث رسول الله ﷺ إلى عمر بن عبيد الله[١٣].

حث الصحابة تلاميذهم على كتابة الحديث وتقييده

فهذا الصحابي الجليل أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه يحثُّ أولاده على كتابة العلم فيقول: "يابني قيدوا العلم بالكتاب"، وكان يقول رضي الله عنه: "كنا لا نعد علم من لم يكتب علمه علماً"[١٤].

وروى الخطيب بسنده عن عدة من تلاميذ عبد الله بن عباس حَبر الأمّة أنه كان يقول: "قيدوا العلم بالكتاب، خير ما قُيِّد به العلم الكتاب"[١٥].

وروى أيضا بأسانيده من عدة طرق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "قيدوا العلم بالكتاب"[١٦].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "من يشتري مني علماً بدرهم"، قال أبو خيثمة: "يقول: يشتري صحيفة بدرهم يكتب فيها العلم"[١٧].

تدوين الحديث في الصحف

صحيفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فيها فرائض الصدقة. روى الخطيب بسنده إلى أنس بن مالك: "إن أبا بكر الصديق بعثه مصدِّقا، وكتب له كتاباً فيه فرائض الصدقة، وعليه خاتم رسول الله ﷺ وفيه: "هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين""[١٨].

١٣. تهذيب التهذيب ٤/ ٢٣٦.
١٤. تقييد العلم ص: ٩٦.
١٥. جامع بيان العلم ١/ ٧٢.
١٦. المصدر السابق.
١٧. تقييد العلم ص: ٩٠.
١٨. تقييد العلم ص: ٨٧.

صحيفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أخرج الخطيب وابن عبد البر من عدة طرق عن علي بن أبي طالب أنه خطب الناس فقال: "من زعم أن عندنا شيئاً نقرأه ليس في كتاب الله تعالى وهذه الصحيفة فقد كذب". قال الراوي عنه: "وكانت الصحيفة معلقة في سيفه، وفيها أسنان الإبل، وشيء من الجراحات، وقوله ﷺ: المدينة حرمٌ ما بين عيرٍ إلى ثورٍ، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"[19].

صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص، المعروفة بالصحيفة الصادقة. عن مجاهد قال: "أتيت عبد الله بن عمرو فتناولت صحيفة من تحت مفرشه، فمنعني، قلت: ما كنت تمنعني شيئاً، قال: هذه الصادقة، هذه ما سمعت من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه أحد"[20]. هذه الصحف الثلاث كلها كتبت في حياته ﷺ وهناك غيرها كثير مما كتب في حياته ﷺ.

صحيفة عبد الله بن أبي أوفى، ذكرها الإمام البخاري في كتاب الجهاد من صحيحه، باب الصبر عند القتال[21].

صحيفة أبي موسى الأشعري.

صحيفة جابر بن عبد الله.

الصحيفة الصحيحة التي يرويها همام عن أبي هريرة من حديثه.

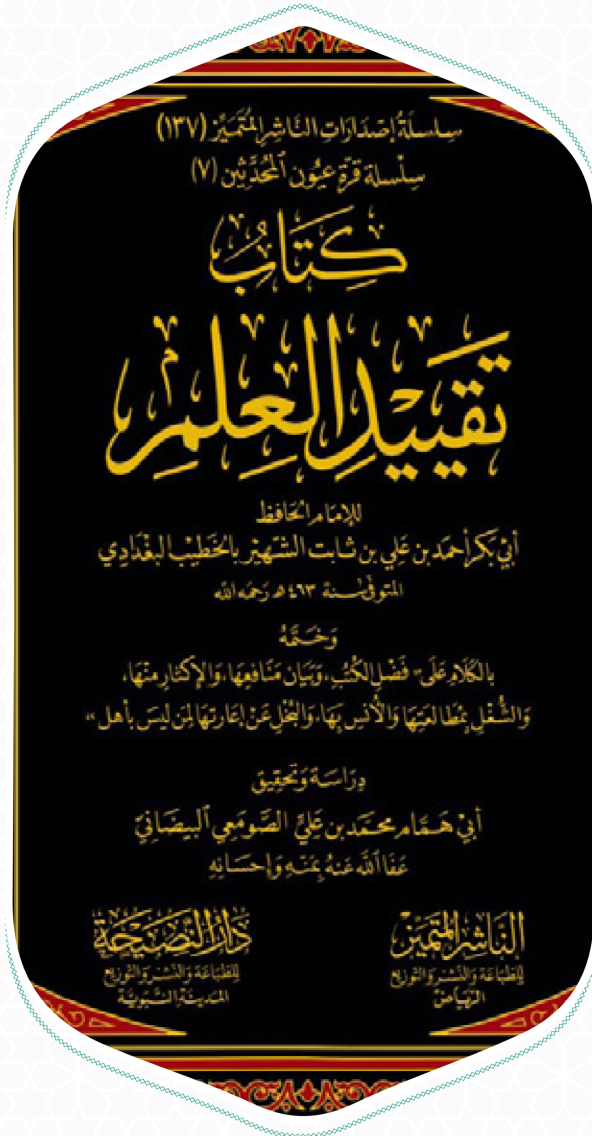
جهود التابعين في تدوين السُّنَّة المشرفة

روى الخطيب عن الإمام عامر الشعبي رحمه الله أنه كان يقول: "إذا سمعت شيئاً

١٩. تقييد العلم ص: ٨٨.
٢٠. تقييد العلم ص: ٨٤.
٢١. فتح الباري لابن حجر ٦/ ٤٥ ح ٢٨٣٣.

فاكتبه ولو في الحائط فهو خيرٌ لك من موضعه من الصحيفة فإنك تحتاج إليه يوماً ما"[٢٢]. وعن الحسن البصري قال: "ما قُيِّد العلم بمثل الكتاب، إنما نكتبه لنتعاهده"[٢٣]. وعن سعيد بن جبير قال: "كنت أكتب عند ابن عباس في صحيفتي حتى أملأها، ثم أكتب في ظهر نعلي، ثم أكتب في كَفِّي"[٢٤].

وعن صالح بن كيسان قال: "اجتمعت أنا والزهري -ونحن نطلب العلم- فقلنا: نكتب السنن، فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ، ثم قال: نكتب ما جاء عن أصحابه فإنَّه سُنَّة، فقلت أنا: ليس بسُنَّة فلا نكتبه، قال: فكتب ولم أكتب، فأنجح وضيعت"[٢٥].



وعن ابن شهاب الزهري قال: "لولا أحاديث تأتينا من قِبل المشرق نُنكِرها لا نعرفها، ما كتبت حديثاً ولا أَذِنْتُ في كتابه"[٢٦].

وروى الخطيب من عدة طرق عن معاوية بن قرة قال: "كنا لا نعد علم من لم يكتب علمه علماً"[٢٧].

جهود أتباع التابعين في تدوين السنة الشريفة

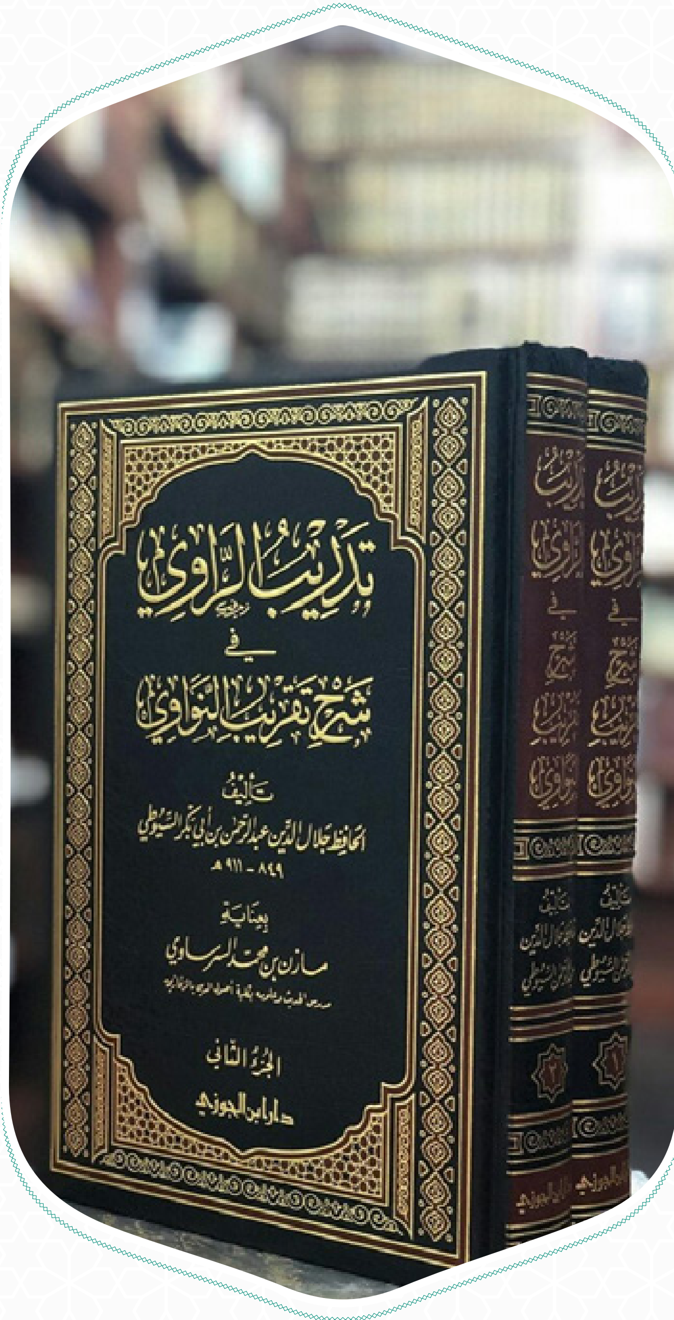
استطاع هذا الجيل التصدي لظاهرة الكذب على رسول الله ﷺ، الذي انتشر في هذا العصر وتنوعت أسبابه وتعددت، يقول الحافظُ ابنُ حجر العسقلاني رحمه الله: "والحامل للواضع على الوضع، إما عدم الدين كالزنادقة، أو غلبة الجهل كبعض المتعبدين، أو فرط العصبية

٢٢. تقييد العلم ص: ١٠٠.
٢٣. تقييد العلم ص: ١٠١.
٢٤. تقييد العلم ص: ١٠٢ -١٠٣.
٢٥. تقييد العلم ص: ١٠٧، جامع بيان العلم وفضله ١/ ٧٦.
٢٦. تقييد العلم ص: ١٠٧- ١٠٨.
٢٧. المصدر السابق ص١٠٩.

كبعض المقلدين، أو اتباع هوى بعض الرؤساء، أو الإغراب لقصد الاشتهار. وكل ذلك حرام بإجماع من يُعتد به، إلا أن بعض الكرّامية وبعض المتصوفة نقل عنهم إباحة الوضع في الترغيب والترهيب، وهو خطأ من قائله، نشأ عن جهل، لأن الترغيب والترهيب من جملة الأحكام الشرعية، واتفقوا على أن تعمد الكذب على النبي ﷺ من الكبائر[٢٨].

وقال السيوطي: "والواضعون أقسام بحسب الأمر الحامل لهم على الوضع، أعظمهم ضرراً قوم يُنسبون إلى الزهد، وضعوه حسبة، أي احتساباً للأجر عند الله، في زعمهم الفاسد، فقُبلت موضوعاتهم ثقة بهم وركوناً إليهم، لما نسبوا إليه من الزهد والصلاح"[٢٩].

فقيض الله هذا الجيل من تابعي التابعين لخدمة السُّنَّة والذبّ عنها، قال الحافظ الذهبي بعد ذكره ظهور البدع والأهواء وانتشارها في هذا العصر: "وقام على هؤلاء علماء التابعين وأئمة السلف وحذَّروا من بدعهم، وشرع الكبار في تدوين السنن وتأليف الفروع وتصنيف العربية، ثم كثر ذلك في أيام الرشيد، وكثرت التصانيف، وألفوا في اللغات، وأخذ حفظ العلماء ينقص، ودوِّنت الكتب واتّكلوا عليها، وإنما كان قبل ذلك علم الصحابة والتابعين في الصدور فهي كانت خزائن العلم لهم رضي الله عنهم"[٣٠].



٢٨. نزهة النظر شرح نخبة الفكر: ٤٤٥ بشرح القاري.
٢٩. تدريب الراوي- شرح تقريب النواوي ١/ ٢٣٨.
٣٠. تذكرة الحفاظ ١ / ١٦٠.

كما نشأ على أيديهم علم الرجال، بعد أن كان السؤال عن الإسناد قد بدأ في أواخر عصر الصحابة وكبار التابعين، فكانت لهم الريادة في ابتداء التدوين المرتَّب على الأبواب والفصول، كذلك كانت لهم الريادة في ابتداء التصنيف في عِلم الرجال، حيث أَلَّف في تاريخ الرجال كل من: الليث بن سعد (ت: ١٧٥هـ)، وابن المبارك (ت: ١٨١هـ)، وضمرة بن ربيعة (ت ٢٠٢ هـ) ، والفضل بن دكين (ت ٢١٨ هـ) وغيرهم.

ويعدّ هذا الجيل الجيل المؤسس لعلوم السُّنَّة المطهَّرة، أمثال الأئمة: مالك بن أنس، والشافعي، والثوري، والأوزاعي، وشعبة، وابن المبارك، وإبراهيم الفزاري، وابن عيينة، والقطان، وابن مهدي، ووكيع وغيرهم كثير.



مميزات التدوين في هذا العصر

- ظهور التفريق بين التدوين الذي هو مجرد الجمع، وبين التصنيف الذي هو الترتيب والتبويب والتمييز في المصنفات في هذا القرن. فالمصنفات المدونة في هذا العصر قد جمعت إلى جانب أحاديث الرسول ﷺ أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، بعد أن كانت تتناقل مشافهة وكانت الصحف فيما مضى تقتصر على الأحاديث النبوية فقط.

طريقة التدوين في مصنفات هذا القرن هي: جمع الأحاديث المتناسبة في باب واحد ثم يجمع جملة من الأبواب أو الكتب في مصنف واحد، بينما كان التدوين في القرن الماضي مجرد جمع الأحاديث في الصحف بدون ترتيب أو تمييز.

إن مادة المصنَّفات في هذا القرن قد جُمعت من الصحف والكراريس التي دُونت في عصر الصحابة والتابعين، ومما نقل مشافهة من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين.

من أعلام السنة

الإمام الأعمش

الشيخ حسين عبد العال

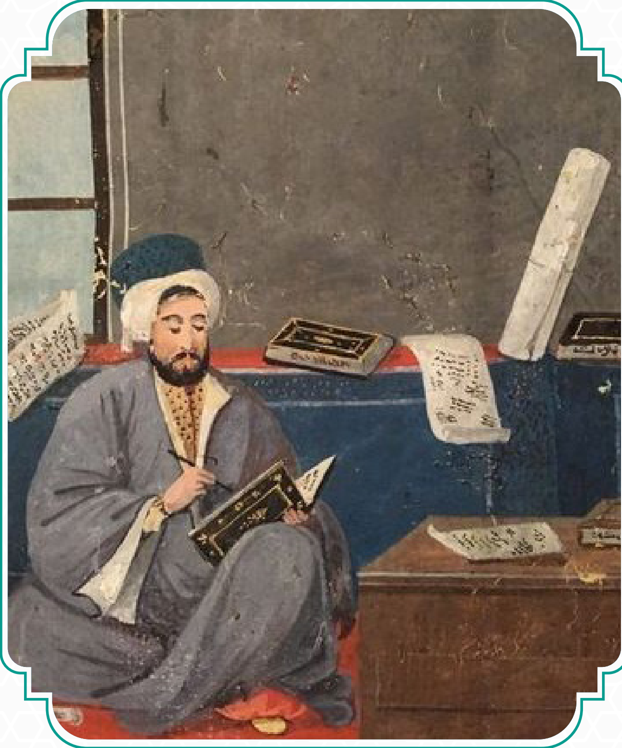


عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

إن أئمة الحديث ورواته هم الواسطة بيننا وبين رسول الله ﷺ، وهم الذين حفظ الله بهم هذا الدين بعد صحابة رسول الله رضوان الله عليهم، وهم بعملهم في السنة جمعًا وحفظًا وتنقيحًا وتعليمًا كانوا خير من ناصر رسول الله ﷺ نصرة عملية، بل إن هؤلاء أفنوا أعمارهم نصرة لله ولرسوله دون كلل أو ملل، ولذا ففضلهم علينا بعد الله عظيم، وواجبهم علينا من التبجيل والتكريم كبير، وحقهم علينا من الثناء والدعاء لا يخفى على طالبِ علمٍ أو داعٍ إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

•• **قال الإمام ابن قيم الجوزية:** ولما كانت الدعوة إلى الله والتبليغ عن رسوله شعار حزبه المفلحين، وأتباعه من العالَمين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وكان التبليغ عنه من عينِ تبليغ ألفاظه وما جاء به وتبليغ معانيه، كان العلماء من أمته منحصرين في قسمينْ:

أحدهما: حُفَّاظ الحديث وجهابذته، والقادة الذين هم أئمة الأنام وزوامل الإسلام، الذين حفظوا على الأمة معاقد الدين ومعاقله، وحموا من التغيير والتكدير موارده ومناهله، حتى ورد من سبقت له من الله الحسنى تلك المناهل صافية من الأدناس لم تَشُبها الآراء تغييراً، ووردوا فيها ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦][1]



ثلاثة أعمش!

ولعل القارئ يتعجب من أن هذا الإمام الذي نتحدث عنه اليوم، عُرِف وحُفظ في تاريخنا بهذا الاسم «الأعمش»، وهنا ينبغي التنبيه إلى أن هذا الوصف ليس من الغيبة المحرمة، إذ هو من باب التعريف والتمييز للشخص عن غيره، وليس من باب انتقاصه أو السخرية منه، فما كان لمؤمن أن ينتقص من أئمة الحديث.

•• **غير أن الطريف في هذا الباب أن في أئمتنا المحدثين ثلاثة يُعرفون بالأعمش:**

١. الإمام سليمان بن مهران، وهو صاحبنا في هذا المقال، وقد وُلِد سنة ٦١ للهجرة.

٢. الإمام أبو حامد أحمد بن حمدون، وهذا لقب بالأعمشي، لأنه كان حافظاً لحديث الإمام الأعمش -صاحبنا في هذا المقال- وكان شديد العناية بحديثه.

---

١. إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/٧.

٣ الإمام أبي العلاء حمد بن نصر بن أحمد، وهذا متأخر، بينه وبين صاحبنا في هذا المثال أربعة قرون، إذ وُلد سنة ٤٣١هـ[٢].

والسبب في تلقيب الإمام سليمان بن مهران بالأعمش، هو المرض الذي أصابه صغيراً في عينيه، فالعمش هو ضعف في البصر مع سيلان في الدمع، فلذلك عرف بأنه «الأعمش».

سيد المحدثين

ولأنه من أئمة الحديث الكبار، فهو ممن روى له البخاري ومسلم في الصحيحيْن، وكذلك أصحاب السنن وغيرهم من الرواة، وقد فاضت أقوال أهل العلم في بيان فضله ومكانته، فقد كان فوق علمه وحفظه عابداً زاهداً ورعاً تقياً.



- **قال سفيان بن عيينة:** كان الأعمش أقرأهم لكتاب الله، وأحفظهم للحديث، وأعلمهم بالفرائض.
- **وقال يحيى القطان:** هو علاّمة الإسلام[٣].
- **وقال أبو بكر بن عياش:** كنا نسمّي الأعمش سيد المحدثين.
- **وقال العجلي:** ثقة ثبت، كان محدث الكوفة في زمانه.
- **وقال شعبة بن الحجاج:** ما شفاني أحد في الحديث ما شفاني الأعمش.
- **وقال علي بن المديني:** حفظ العلم على أمة محمد ﷺ ستة: عمرو بن دينار بمكة، والزهري بالمدينة، وأبو إسحاق السبيعي والأعمش بالكوفة، وقتادة ويحيى بن أبي كثير بالبصرة.

---

٢. سير أعلام النبلاء ١٤/٥٥٣.
٣. سير أعلام النبلاء ٦/٢٣٨.

وهؤلاء القائلون هم أئمة الجرح والتعديل، الذين فهرسوا الرجال وخبروهم ونخلوا أحاديثهم، فأقوالهم هذه تشهد بمكانة الأعمش!



الأعمش عابدًا زاهدًا

وحري بمن يثني عليه العلماء في علمه ودينه أن يكون من أعبد الناس، فإنما العلم العمل، والعلماء أكثر الناس معرفة بالله وأعظمهم عبادة له سبحانه.

قال عنه وكيع: كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفُته التكبيرة الأولى، واختلفتُ إليه أكثر من ستين سنة فما رأيته يقضي ركعة[٤].

وقال عبد الله الخريبي: ما خلَّف الأعمش أعبدَ منه[٥].

وقال عيسى بن يونس: أرسل الأمير عيسى بن موسى إلى الأعمش بألف درهم وصحيفة، ليكتب فيها حديثاً، فكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، وقل هو الله أحد. ووجَّه بها إليه، فغضب الأمير وظنَّ أن الأعمش يستهزئ به ويحسب أن الأمير لا يُفرّق بين القرآن والحديث، فأرسل إليه ساخطاً: ظننتَ أني لا أحسن كتاب الله؟! فقال الأعمش: أظننتَ أني أبيع الحديث؟![٦]

ولذلك قال عيسى بن يونس: لم نرَ نحن والقرن الذي قبلنا مثل الأعمش، ما رأيت الأغنياء والسلاطين عند أحد أحقر منهم عند الأعمش مع فقره وحاجته.

وذات يوم مشى مع الأعمش إمام آخر هو إبراهيم النخعي، وكان أعوراً، فقال له الأعمش: إن الناس إذا رأونا معاً قالوا أعور وأعمش! فقال النخعي: وما عليك أن نؤجر ويأثموا؟! فقال له الأعمش: وما عليك أن يسلموا ونسلم.

---

٤. وفيات الأعيان ٢/ ٤٠١.
٥. سير أعلام النبلاء ٦/٢٢٨.
٦. سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٣٦، ٢٣٧.

يقصد بذلك أن نفترق فلا نمشي معاً، فلا نعرضهم لأن يرتكبوا هذا الإثم!

خشيته من الله عزوجل

وكان الأعمش ممن يخافون الله سبحانه وتعالى ويكثرون من ذكر الموت، ولم لا وقد بين لنا ربنا أن العلماء هم من يخشون الله حق خشيته، وهم من يعملون ليوم لقاء الله تعالى، كتب يومًا إلى بعض إخوانه يعزيه:

إنـا نعزيك لا أنا على ثقة •• من البقاء ولكن سنة الدين

فلا الـمُعزَى بباق بعد ميتِهِ •• ولا المعزِي وإن عاشا إلى حين

وقال زائدة بن قدامة: تبعت الأعمش يوماً، فأتى المقابر فدخل في قبر محفور فاضطجع فيه، ثم خرج منه وهو ينفض التراب عن رأسه ويقول: واضيق مسكاه[٧].

من طرائف الأعمش



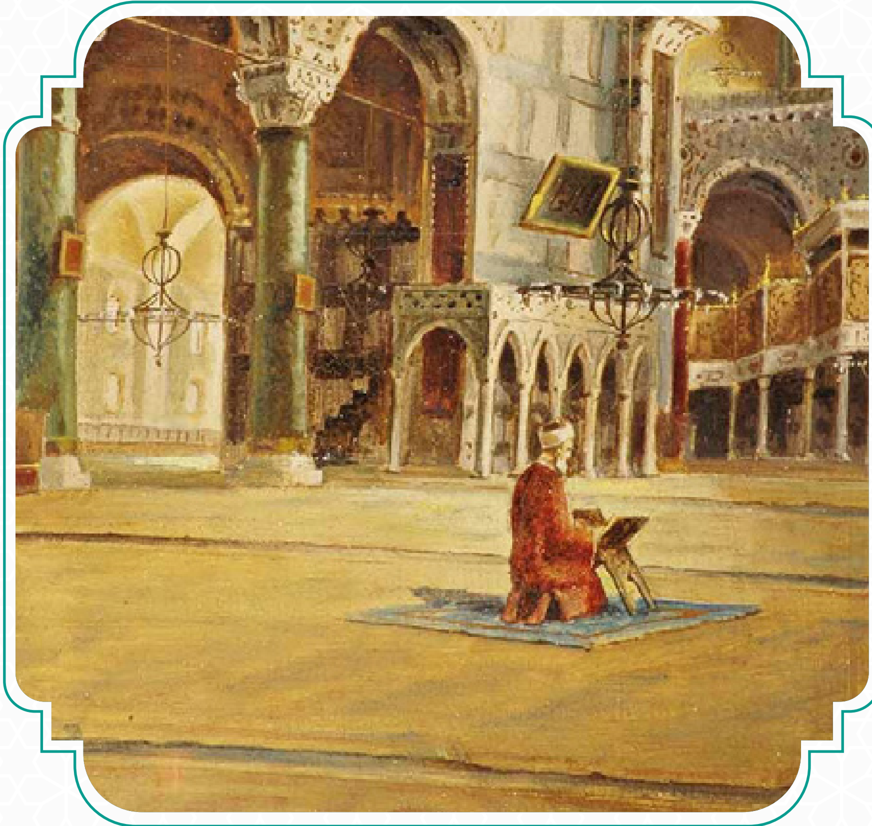
كان هؤلاء الأئمة العظماء في حياتهم كبقية الناس، يعتريهم ما يعتري الناس، من الرضا والغضب، والغِنى والفقر، والجد والمزاح، والصحة والمرض، نذكر ذلك لربما يظن البعض أن هؤلاء الصفوة كانوا عابسين أو كانوا لا يعرفون المزاح ولا البسمة، ولا عجب فقد ظن التابعون أنفسهم أن الصحابة هكذا، فقد روى الترمذي عن ابن سيرين رحمه الله أنهم كانوا يسألونه: هل كانوا يمزحون؟ يقصدون أصحاب النبي ﷺ، فقال: كانوا كمثل

---

٧. وفيات الأعيان ٢/٤٠٠ وما بعدها.

الناس وكان ابن عمر رضي الله عنه يمزح ويقول الشعر. وعن بكر بن عبد الله قال: «كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَبَادَحُونَ بِالْبِطِّيخِ، فَإِذَا كَانَتِ الحقائِق كَانُوا هُمُ الرجال»[٩].

بيد أن هؤلاء المحدثين كانوا لا يقولون إلا حقًّا اقتداء برسول الله ﷺ لما سئل: إنك تداعبنا، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا، قَالَ: «إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا»[١٠].



لذلك لا عجب أن تعرف عن بعضهم أنه كان كثير المزاح والدعابة، أو كان صاحب مزاح في حديثه مع أصحابه، أو كان شديدًا على تلاميذه وهم مع ذلك حريصون على مجالسته وأخذ الحديث عنه، والمهم فيهم ما يراه أهل الجرح والتعديل من حفظهم وصدقهم وأمانتهم في النقل.

وكان الأعمش من أكثر العلماء ظرفًا، صاحب بسمة وفكاهة، مما يخفف به عن طلابه وجلسائه، وذلك مما يجعل له ودًا عند محبيه وطلابه والسامعين له. قال عنه ابن خلكان: وكان لطيف الخلق مزاحاً، جاءه أصحاب الحديث يوماً ليسمعوا عليه، فخرج إليهم، وقال: لولا أن في منزلي من هو أبغض إليَّ منكم ما خرجت إليكم[١١].

---

٩. الأدب المفرد صـ١١٧.

١٠. سنن الترمذي رقم ١٩٩٠.

١١. وفيات الأعيان ٢/٤٠٢.

وصوّر الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي بقلمه المرصع أدباً موقفاً من مزاح الأعمش مع أبي حنيفة، فقال: قال ابن جُحادة: إن شيخنا على هذا الجد ليمزح، لقد كنتُ عنده في مَرْضَته، فعاده أبو حنيفة صاحب الرأي، وهو جبل علم شامخ، فطوّل القعود مما يحبه ويأنس به، إذ كانت الأرواح لا تعرف مع أحبابها زمنًا يطول أو يقصر. فلما أراد القيام قال له: ما كأني إلا ثقلتُ عليك. فقال الشيخ: إنك لثقيل عليَّ وأنت في بيتك! وضحك أبو حنيفة كأنه طفل يناغيه أبوه بكلمة ليس فيها معناها، أو أب داعبه طفله بكلمة فيها غير معناها. وجاءه في الغداة قوم يعودونه، فلما أطالوا الجلوس عنده أخذ الشيخ وسادته وقام منصرفًا، وقال لهم: قد شفى الله مريضكم"[١٢].

- **وقيل:** إن الأعمش كان له ولد مغفل فقال له: اذهب فاشتر لنا حبلاً للغسيل.

فقال: يا أبة طول كم؟

قال: عشرة أذرع

قال: في عرض كم؟

قال: في عرض مصيبتي فيك.



- **ويقال:** إن الأعمش لبس مرة فرواً مقلوباً فقال له قائل: يا أبا محمد! لو لبستها وصوفها إلى داخل كان أدفأ لك! قال: كنت أشرت على الكبش بهذه المشورة"[١٣].

رحم الله الشيخ الإمام الأعمش، ورحم جميع من حافظوا وعملوا على نشر السُّنة الصحيحة لرسول الله ﷺ وعملوا على الدعوة إلى الله وهداية الخلائق، اللهم ارضَ عنهم، وألحقنا بهم في عبادك الصالحين، اللهم آمين.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

١٢. وحي القلم ١/ ١٢٤، ١٢٥.
١٣. سير أعلام النبلاء ٦/٢٣٩، ٢٤٤.

تدوين السنة

معجزة خالدة لأمة الإسلام

عبد الله الطبلوهي

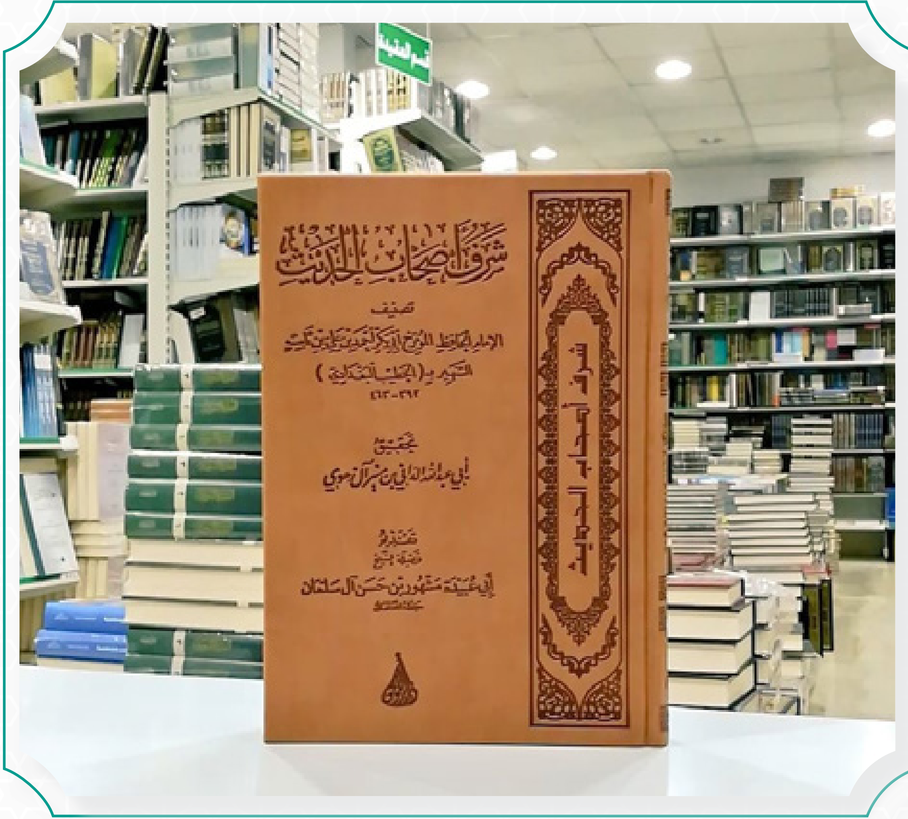
باحث شرعي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد؛

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، فالله جل وعلا يؤيد الدين بالآيات المتتابعة والشواهد المتتالية التي تزيد المؤمن إيماناً وثباتاً وتدل المستبصر على طريق الحق والصواب.

ومن تلك الآيات الباهرة حفظ سنة النبي ﷺ وتدوينها والتثبت منها وتمحيص كل حرف فيها؛ في ظاهرة معجزة لم تعرف البشرية من قبل ولا من بعد لها مثيلاً.

قال أبو حاتم الرازي: «لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمناء يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة»[١].

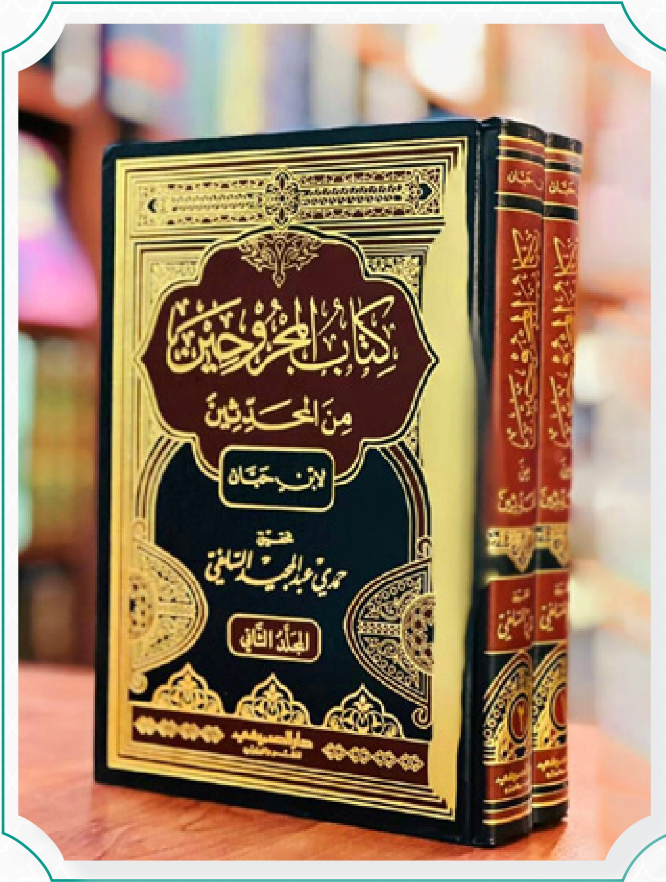


وقال ابن المظفر: «إن الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمهم وحديثهم إسناد، وإنما هي صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل مما جاءهم به أنبياؤهم وتمييز بين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوا عن غير الثقات، وهذه الأمة إنما تنص الحديث من الثقة المعروف في زمانه، المشهور بالصدق والأمانة، عن مثله، حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهاً وأكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل، ويضبطوا حروفه ويعدوه عداً. فهذا من أعظم نعم الله تعالى على هذه الأمة، نستوزع الله شكر هذه النعمة، ونسأله التثبيت والتوفيق لما يقرب منه ويزلف لديه، ويمسكنا بطاعته، إنه ولي حميد، فليس أحد من أهل الحديث يحابي في الحديث أباه ولا أخاه ولا ولده، وهذا علي بن عبد الله المديني، وهو إمام الحديث في عصره، لا يُروى عنه حرف في تقوية أبيه بل يروى عنه ضد ذلك، فالحمد لله على ما وفقنا»[٢].

---

١. شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي.
٢. شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي.

فأين في البشرية أمة -سوى أمة الإسلام- تتبعت حياة عظيم من عظمائها في أقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته الخَلقية والخلقية؛ فدونت مواعظه وأوامره ونواهيه، وكيفية قيامه وقعوده ومشيه وركوبه وحديثه وسكوته وإقباله وإعراضه وابتساماته وتأنيبه، وحاله في السلم والحرب والحضر والسفر والصحة والمرض والفرح والحزن، وآدابه في الطعام والشراب والملبس والنوم، وعدد الشعرات البيض في وجهه، والرؤى التي عرضت له في نومه، وتدقيق نسبه وأزواجه وأولاده وخدمه وأضيافه وأصحابه وخيله ومنازل إقامته ومواطن سيره؟



وإن تعجب فاعجب أنه في ذاك الزمن البعيد، حيث لا وسائل نقل ولا تواصل إلا الوسائل البدائية القديمة، فإنه مع ذلك قد «سمع كتاب الصحيح لمحمد بن إسماعيل تسعون ألف رجل»[٣] ، فإذا كان هذا سماع كتاب واحد من محدث واحد فكيف بسماع بقية الكتب والمحدثين!

أهل الحديث هم أهل الرسول فإن •• لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا

وأين في البشرية أمة -سوى أمة الإسلام- مع تتبع أخبار حياة عظيم من عظمائها محصت تلك الأخبار فجمعت أسماء الرواة الذين نقلوا تلك الأخبار وأحوالهم وأخبارهم، وأسماء وأحوال وأخبار من نقل عنهم، ومن نقل عمن نقل عنهم، فميزت مراتب صدقهم، وحددت مقدار ضبطهم فرداً فرداً، وكيف تحملوا الخبر وتلقوه ثم كيف أدوه ونقلوه لمن بعدهم؟ حتى لقد تتبع إمام واحد من الأئمة حال ستة عشر ألف راوٍ من رواة الحديث، وهو ابن حبان في كتابه الثقات، فما بالك بمن تتبع حالهم بقية العلماء؟!

٣.تاريخ بغداد للخطيب البغدادي

قال ابن حبان: «فرسان هذا العلم الذين حفظوا على المسلمين الدين وهدوهم إلى الصراط المستقيم، الذين آثروا قطع المفاوز والقفار على التنعم في الدمن والأوطار في طلب السنن في الأمصار، وجمعها بالرحل والأسفار والدوران في جميع الأقطار، حتى إن أحدهم ليرحل في الحديث الواحد الفراسخ البعيدة، وفي الكلمة الواحدة الأيام الكثيرة»[٤].

وأين في البشرية أمة -سوى أمة الإسلام- مع تتبعها لأخبار عظيم من عظمائها وتحيصها لأحوال الرواة دققت النص المروي جملة جملة وكلمة كلمة وحرفاً حرفاً بل وضبطاً لتشكيل كل حرف في الحديث؛ فميزت ما روي باللفظ وما روي بالمعنى، ونص الحديث وتعليق الراوي، وهل كامل نص الحديث قيل في موقف واحد أم قيل كل جزء منه في موقف أم تكرر قوله في مواقف متعددة؟ وقارنت ألفاظ الحديث في الروايات المتعددة لتصل إلى النص الكامل الدقيق له الذي لا يشوبه وهم راو من الرواة.

يقول سعيد بن المسيب: «إن كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد»، ويقول بسر بن عبيد الله الحضرمي: «إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه»[٥].

وأين في البشرية أمة -سوى أمة الإسلام- مع تتبعها لأخبار عظيمها وتدقيقها وتدوينها خدمت تلك النصوص أكمل خدمة؛ فرتبتها حسب مواضيعها، ورتبتها حسب رواتها، ورتبتها حسب حروفها، وجمعت طرق وروايات كل حديث في موضع واحد؛ فكانت كتب الموطآت والمسانيد والجوامع والسنن والمعاجم والمصنفات والأجزاء والمستدركات والمستخرجات والأطراف والزوائد والأمالي والتجريدات...إلخ؟

وأين في البشرية أمة -سوى أمة الإسلام- قامت مع كل ما سبق بشرح الأحاديث وتدارسها واستنباط الأحكام والفوائد واللطائف منها، وجعلها منهاجاً للحياة ودستوراً لها؟ وقد زخرت المكتبة الإسلامية بآلاف الكتب الشارحة للحديث النبوي الشريف، سوى شروح الحديث المتضمنة في كتب العقيدة والفقه والتفسير واللغة وسائر الفنون.

إنها معجزة خالدة لأمة الإسلام تنتظم في عقد غير متناه من المعجزات البينات الواضحات والآيات الظاهرات القاهرات، تبصرة وذكرى للمؤمنين وحجة على الكافرين المعاندين، والحمد لله رب العالمين.

---

٤. كتاب المجروحين.

٥. رواهما الخطيب البغدادي في كتاب الرحلة في طلب الحديث.



انطباعات وتوقيعات عن الهجرة الشريفة



د. عبد السلام البسيوني

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ



حين أراد المنان تبارك وتعالى نقل عبده من الأرض للسماء، ورفعه لمقام الحضرة العلية: لم يكن ثم بشر، ولا أي تدخل إنساني، فهو تعالى قد أسرى بعبده، وعرج به! وحين أمره أن يهاجر كان لا بد من عمل جماعي، منظم ومحسوب: يشمل صُلب المشروع (محمدًا ﷺ وما يمثله)، ومعه آمَنُ الناس عليه، وأعرفُهم به وأحرصُهم! وكانوا مختلفين متباينين بكل المعايير:

صِدِّيق/ وشابّ (عبد الله بن الصديق) وشابّة (أسماء بنت الصديق) وعبدٌ مأمون (عامر بن فهيرة) كان صادق الإسلام، مجاهدًا، حتى قال عدد من مؤرخي السيرة إنه -بعد مقتله يوم بئر معونة- قد رُفع للسماء (ابن سعد في الطبقات الكبرى، وابن الأثير في أسد الغابة، وابن حجر في الإصابة). ومعهم كافر مأمون (عبد الله بن أريقط)! وكانت زيادةُ الحضور من بيت الصديق، تصديقًا لمثل قوله تعالى في [الأعراف: ٥٨]: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُه بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾. وتوثيقًا للاحتياط، وتقليلًا للاحتمالات!

•• هجرة محمد ﷺ كانت بأمر رباني، وليس باقتراح سيدي المصطفى ﷺ الذي قال: «قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، رَأَيْتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ، بينَ لَابَتَيْنِ». وَهُما الحَرَّتَانِ[1]. لذا فإنها رغم ما حفها من الهوائل كانت مضمونة ربانيًا، ولذا فلم يُبدِ سيدي المصطفى قلقًا بأي حال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، «كُنْتُ مع النبيِّ ﷺ في الغَارِ فَرَأَيْتُ آثَارَ المُشْرِكِينَ، قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، لو أنَّ أحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا، قالَ: «ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»[2].

•• بمجرد أن انتقل محمد ﷺ للمدينة زال عنها التثريب، وطابت، وصارت طيبة وطابة، ونسي الناس يثرب، وصارت المدينة بـ (ال) العهدية، التي تنقل الاسم إلى العلمية! فإذا ذُكر اسم المدينة لم يتبادر لذهن المسلم اسم مدينة أخرى، حتى عاصمة دولته!



•• رصدت قريش جائزة لسراقة مائتي ناقة، ورصد محمد ﷺ له سواري كسرى جائزة، فلم يصمد أمام إغراء جائزة المصطفى ﷺ ؛ لعقله، وإيمانه بصدقه!

•• لا شك أن هجرة المرء تغير حياته تمامًا، وتنقله لمعطيات فوق الحسبان، سلبًا وإيجابًا، إلا ما كان لله تعالى، فكله خير، ولو بدا غير ذلك!

١.البخاري: ٢٢٩٧.

٢.البخاري/ ٤٦٦٣، ومسلم/ ٢٣٨١.

•• هجرة الأفراد تغير حياتهم، وبعضٍ من حولهم، أما هجرة الإمام، أو القائد فإنها تغير التاريخ، كهجرات الرسل، والأنبياء عليهم السلام، والأئمة المصلحين، بل وحتى المفسدين!

•• **من مقتضيات الهجرة الخسارة الكثيرة أو القليلة، ومن ثمارها الفتح المبين!**



•• رمزية اجتماع سيوف فتيان قريش لتفريق دمه ﷺ في القبائل، إشارة إلى اجتماع الشرور، والمصاعب في وجه المهاجر لله تعالى، والتي تصل إلى قطع الرقبة!

•• ولّدت كلمة الهجرة ظلالًا، وصنعت عِلمًا كثيرة: الهجرة الجسدية، من أرض الكفر أو الجور إلى أرض العدل والأمن! وهجرة الجوارح للمآثم، وهجرة القلب للشقاق والنفاق، والشرك والكفر «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»، وهجرة الدنيا ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ومفاصلة الباطل، ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾! وقسمها النبي ﷺ لهجرة حق؛ كالانتقال بالدين والنفس إلى حيث أمن الدين والنفس! وهجرة ما نهى الله تعالى هنا، وعواقبها تمتد حتى: نصر قريب، وفتح مبين، ورضوان من الله أكبر! وهجرة باطلة، وعاقبتها سوأى: (لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها)، والمعنى هنا فسيح جدًّا، يتناول أشكالًا كثيرة. فكم من مهاجر لغير الله تعالى، جازف وترك خلفه كل شيء، ثم لم يجنِ غير خسارة كل شيء: ترك لغته، وعوائده، وجذوره، وخسر دينه وأبناءه وأحفاده وآخرته! وقد رأيت أناسًا وصلوا لذروة المجد العلمي في الغرب، ثم نسوا العربية، وسموا أبناءهم أيفان، وليز، وكريستينا، وتركوا الصلاة والصيام، ونسوا لا إله إلا الله!

ولعل من المهم أن أشير هنا إلى أكذوبة خوف أوربا من زيادة عدد المسلمين؛ حتى يكونوا أكثرية بها! فهي سحابة دخانية يثيرها ساستهم وإعلامهم؛ لأن الذين يرتدّون أكثر ممن يسلمون؛ فمن الإحصاءات المهمة

جدًّا التي لم يسمع بها كثيرون: ارتداد نسبة أكبر من نسبة معتنقي الإسلام في المستقبل القريب؛ فوفقًا لتوقعات لمركز بيو للأبحاث للفترة بين ٢٠١٠-٢٠٥٠ حول أعداد المسلمين، لن يكون التحول إلى الإسلام سببًا في نمو السكان المسلمين في أوروبا، حيث -وفقًا لنفس الدراسة- ستتخطى أعدادُ تاركي الإسلام أعدادَ المتحولين عنه في أوروبا بنسبة طفيفة، وسيبلغ صافي الخسارة (٦٠.٠٠٠) بسبب التحول الديني، ويتوقع المركز أن يتحول ١.٥٨٠.٠٠٠إلى الإسلام في مقابل ترك ١.٦٤٠.٠٠٠ شخص له، خلال هذه الفترة! كما وثقت ويكيبيديا[٣].



•• تحول محمد ﷺ إلى مشارط، بعد أن كان مطاردًا، ففي البخاري: لَمَّا أقْبَلَ النبيُّ ﷺ إلى المَدِينَةِ تَبِعَهُ سُرَاقَةُ بنُ مَالِكِ بنِ جُعْشُمٍ، فَدَعَا عليه النبيُّ ﷺ فَسَاخَتْ به فَرَسُهُ قَالَ: ادْعُ اللَّهَ لي ولَا أضُرُّكَ، فَدَعَا له. وفي البخاري ومسلم: فارتحلْنا والقومُ يطلبوننا، فلمْ يدركْنا أحدٌ منهم إلا سُراقةُ بنُ مالكٍ بنِ جُعْشُمٍ، على فرسٍ له! فقلتُ: يا رسولَ اللهِ هذا الطلبُ قد لحِقَنا! فقال: لا تحزنْ إنَّ اللهَ معنَا! حتَّى إذا دَنَا منَّا فكانَ بيننَا وبينَه قَدْرَ رُمْحٍ أو رُمْحَيْنِ أو ثلاثةٍ، قلتُ: يا رسولَ اللهِ هذا الطلبُ قد لحقَنا، وبكَيْتُ! قال: لِمَ تبكِي؟ قلت: أما واللهِ ما على نفسِي أبكي ولكنْ أبكِي عليكَ! قال فدعَا عليه رسولُ الله ﷺ فقالَ: اللهمَّ اكفِناهُ بما شئتَ! فساخَتْ قوَائِمُ فرَسِه إلى بطْنِها، في أرضٍ صلْدٍ! ووثَبَ عنها، وقالَ: يا محمدُ: قد علِمْتُ أن هذا عملُكَ، فادعُ اللهَ أن ينجِّيَني مما أنا فيهِ، فواللهِ لأُعمِّيَنَّ مَن ورائِي من الطَّلَبِ! وهذه كِنَانَتِي، فخُذْ منها سهمًا، فإنك ستُمُرُّ بإبِلِي وغنَمِي في موضعِ كذا وكذا، فخُذْ منها حاجتَكَ! فقال رسولُ اللهِ ﷺ: لا حاجةَ لِي فيها! وَدَعَا له رسولُ الله ﷺ فَأُطْلِقَ، فرجعَ إلى أصحابِهِ»[٤].

---

٣. The Future of World Religions p.159 Projected Religious Composition of Europe in 2050, With and Without Religious Switching: SCENARIO WITH SWITCHING (10.2%), SCENARIO WITHOUT SWITCHING (10.1%)!

٤. البخاري ٣٦٥٢، ومسلم ٢٠٠٩.

•• وروى البغوي في شرح السنة: «فناديتُهم بالأمانِ، فوقفوا فركبتُ فرسي حتى جئتُهم، ووقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيتُ من الحبسِ عنهم أن سيظهرُ أمرُ رسولِ اللهِ ﷺ، فقلتُ له: إنَّ قومَك قد جعلوا فيك الدِّيَةَ، وأخبرتهم أخبارَ ما يريد الناسُ بهم، وعرضتُ عليهم الزادَ والمتاعَ، فلم يرْزآني، ولم يسألاني إلا أن قال: أَخْفِ عنا. فسألتُه أن يكتُبَ لي كتابَ أمنٍ، فأمر عامرَ بنَ فُهَيرَةَ، فكتب في رقعةٍ من أدمٍ[5].

•• الهجرة لملك لا يُظلم عنده أحد أمر مهم، وفاصل، وهي نهج نبوي؛ ما لم يكن عن تنازل عن الدين، والكرامة، وهذا يبرز موقف سيدي جعفر رضي الله تعالى عنه أمام سيدي النجاشي رضي الله تعالى عنه: (أمرَنا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ أن ننطلقَ معَ جعفرَ بنَ أبي طالبٍ إلى أرضِ النَّجاشيِّ، فبلغَ ذلِكَ قومَنا فبعثوا عَمرو بنَ العاصِ وعمارةَ بنَ الوليدِ، وجمَعوا للنَّجاشيِّ هديةً! فقَدِمنا وقَدِما علَى النَّجاشيِّ، فأتَوهُ بِهَديَّتِه فقبِلَها وسجدوا، ثمَّ قالَ لَهُ عَمرو بنُ العاصِ: إنَّ قومًا منَّا رغِبوا عن دينِنا وَهُم في أرضِكَ. فقالَ لَهُمُ النَّجاشيُّ: في أرضي؟ قالوا: نعم. فبعثَ إلينا فقالَ لَنا جعفرٌ: لا يتَكَلَّمُ منكُم أحدٌ أَنا خطيبُكُمُ اليومَ. فانتَهَينا إلى النَّجاشيِّ، وَهوَ جالسٌ في مَجلسِهِ، وعَمرو بنُ العاصِ عن يمينِهِ، وعمارةُ عن يسارِه، والقسّيسونَ والرُّهبانُ جلوسٌ سماطينِ، وقد قال لهُ عمرو بنُ العاصِ وعمارةُ: إنَّهم لا يسجدونَ لَكَ. قال فلمَّا انتَهَينا، زَبَرَنا مَن عندَهُ منَ القسّيسينَ والرُّهبانُ (زجرونا): اسجدوا للملِكِ. فقالَ جعفرٌ: لا نسجدُ إلَّا للَّهِ!



فلمَّا انتهَينا إلى النَّجاشيِّ قالَ:

ما يمنعُكَ أن تسجُدَ؟

قالَ: لا نسجُدَ إلَّا للَّهِ قالَ لَهُ النَّجاشيُّ:

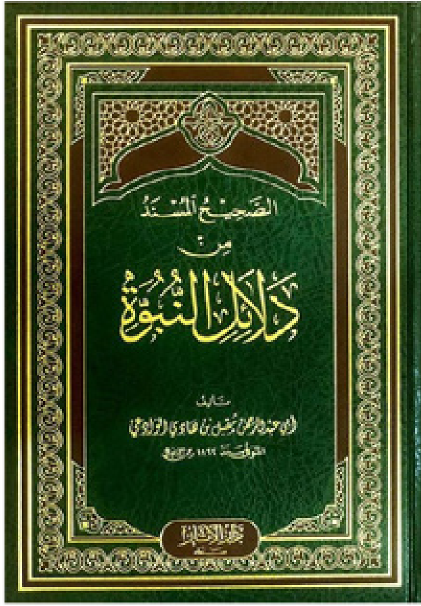
وما ذاكَ؟ قالَ: إنَّ اللَّهَ بعثَ فينا رسولَهُ، وَهوَ الرسولُ الَّذي بشرَ بِهِ عيسَى ابنُ مريمَ برسولٍ يأتي من بعدي اسمُهُ أحمدُ، فأمرَنا أن نعبدَ اللَّهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شيئًا، ونقيمَ الصَّلاةَ، ونُؤْتيَ الزَّكاةَ، وأمرَنا بالمعروفِ، ونَهانا عنِ المنكرِ.

---

٥. شرح السنة، ١٠٦/٧.

فأعجَبَ النَّجاشيَّ قولُه، فلمَّا رأى ذلِكَ عَمرو بنُ العاصِ قال: أصلحَ اللَّهُ الملِكَ، إنَّهم يخالفونَ في ابنِ مريمَ.

فقالَ النَّجاشيُّ لجعفرٍ: ما يقولُ صاحبُكَ في ابنِ مريمَ؟ قالَ: يقولُ فيهِ قَولَ اللَّهِ: هوَ روحُ اللَّهِ وَكَلمتُهُ، أخرجَهُ منَ البتولِ العذراءِ الَّتي لم يَقربْها بشرٌ!



فتَناولَ النَّجاشيُّ عودًا منَ الأرضِ، فقالَ: يا معشرَ القسِّيسينَ والرُّهبانَ، ما يزيدُ ما يقولُ هؤلاءُ علَى ما تقولونَ في ابنِ مريمَ ما يزنُ هذهِ، مرحبًا بِكُم وبِمَن جئتُمْ من عندِهِ، فأنا أشهدُ أنَّهُ رسولُ اللَّهِ، والَّذي بشَّرَ بهِ عيسَى ابنُ مريمَ، لَولا ما أَنا فيهِ منَ المُلكِ لأتَيتُهُ حتَّى أحملَ نعليهِ، امكثوا في أرضي ما شئتُمْ وأمرَ لَنا بطعامٍ وَكِسوةٍ، وقالَ: ردُّوا علَى هذَينِ هديَّتَهما[٦]!

•• جزاء المهاجر لله تبارك وتعالى أكبر كثيرًا من مجرد الجزاء الدنيوي، بل يملك فاعله الجنة كلها: ربضها وأوسطها وأعلاها، يتنقل فيها حيث شاء، وتأمل قيمة هذه الجائزة الخيالية: فعن سيدي فضالة بن عبيد رضي الله تعالى عنه، مرفوعًا: «أنا زعيمٌ -والزَّعيمُ الحميلُ- لمن آمنَ بي، وأسلمَ وَهاجرَ، ببيتٍ في رَبضِ الجنَّةِ، وببيتٍ في وسطِ الجنَّةِ! وأنا زعيمٌ لمن آمنَ بي، وأسلمَ، وجاهدَ في سبيلِ اللَّهِ، ببيتٍ في ربضِ الجنَّةِ، وببيتٍ في وسطِ الجنَّةِ، وببيتٍ في أعلى غُرَفِ الجنَّةِ! من فعلَ ذلِكَ فلم يدَع للخيرِ مطلبًا، ولا منَ الشَّرِّ مَهْربًا، يَموتُ حيثُ شاءَ أن يموتَ»[٧].

•• **الفواريق يصنعون المراحل، كما نقل عمر رضي الله تعالى عنه المسلمين:**

من مرحلة الاستسرار بالدعوة للتعالن بها، كما ورد: قلت يا رسول الله ألسنا على حق؟ قال: «بلى» قلت: ففيم الإخفاء؟ فخرجنا صفين أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد، فنظرت قريش إليّ

---

٦. الوادعي، صحيح دلائل النبوة، ١٠٤.
٧. صحيح سنن النسائي، ٣١٣٣.

وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة شديدة، لم يصبهم من قبل مثلها، فسماني رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ لأنه أظهر الإسلام وفرق بين الحق والباطل[٨].



والاستخفاء بالهجرة لإعلانها، كما جاء في الأثر: اتَّعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص ابن وائل السهمي التناضب، من أضاة بني غفار [حي على بعد ١٣كيلو من مكة]، فوق سرِف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس، فليمضِ صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام، ففتن فافتتن[٩].

ثم صناعة أولياته التي لم يسبق لها، حتى قال فيه سيدي المصطفى ﷺ: أُرِيتُ كَأَنِّي أَنْزِعُ بدَلْوِ بَكْرَةٍ علَى قَلِيبٍ، فَجَاءَ أبو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوبًا، أوْ ذَنُوبَيْنِ، فَنَزَعَ نَزْعًا ضَعِيفًا واللَّهُ، تَبارَكَ وتَعالَى يَغْفِرُ له، ثُمَّ جاءَ عُمَرُ، فاسْتَقَى فاسْتَحالَتْ غَرْبًا، فَلَمْ أرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرْيَهُ، حتَّى رَوِيَ النَّاسُ وضَرَبُوا العَطَنَ[١٠].

والعبقري المتقن المتمرس الحاذق في فعل ما يوكل له، ومعناه: لم أر سيدًا يعمل عمله عمَلَ عمر، وينهج نهجه. قال النووي في شرحه على مسلم: «اتفقوا على أن معناه لم أر سيدا يعمل عمله، ويقطع قطعه، وأصل الفري بالإسكان القطع. يقال: فريت الشيء أفريه فريا قطعته للإصلاح، فهو مفري، فري وأفريته إذا شققته على جهة الإفساد، وتقول العرب: تركته يفري الفري إذا عمل العمل بإجادة، ومنه حديث حسان رضي الله تعالى عنه: لأفرينهم فري الأديم؛ أي: لأقطعنهم بالهجاء كما يقطع الأديم».

---

٨. تاريخ الخلفاء، ٩٣.

٩. السيرة النبوية لابن هشام ١٢٩/٢، وطبقات ابن سعد: ٢٧١/٣-٢٧٢.

١٠. رواه البخاري ٣٦٨٢، ومسلم ٢٣٩٣.

ومن ذلك أنه رضي الله تعالى عنه هاجر علنًا، متحديًا قريشًا وجبروت بعض رجالها، فقد ذكر أصحاب السيرة أن عليًّا رضي الله عنه قال: ما علمت أحدًا من المهاجرين هاجر إلا مختفيًا، إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى في يده أسهمًا، واختصر عنَزته، ومضى قِبَلَ الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا متمكنًا، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحِلَق واحدة واحدة، وقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن يُثكِل أمه، أو ولده، أو يرمل زوجته؛ فليلقني وراء هذا الوادي! فلم يتبعه أحد إلا قوم من المستضعفين، علمهم ما أرشدهم إليه، ثم مضى لوجهه!

•• الاستعانة بغير مسلم عند الاقتضاء لا إشكال فيها، وإطلاق منع المسلم من الاستعانة بالمشرك في مهام أموره غير منطقي؛ ما لم تكن ريبة، أو غلبة ظن! خصوصًا في زماننا، مع اختلاط الشعوب، والعقول، والتشارك في مكان العمل، ويمكن التقييد هنا، بالاستعانة في أمور، وتركها في أمور!

وقد استعان ﷺ بكافر أمنه على سر الهجرة؛ بنص حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: وَاسْتَأْجَرَ النَّبِيُّ ﷺ، وأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِن بَنِي الدِّيلِ، ثُمَّ مِن بَنِي عبدِ بنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا -الخِرِّيتُ: المَاهِرُ بالهِدَايَةِ- قدْ غَمَسَ يَمِينَ حِلْفٍ في آلِ العَاصِ بنِ وائِلٍ، (وهو علَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ) (فأمِنَاه) فَدَفَعَا إلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وواعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، فأتَاهُما برَاحِلَتَيْهِما صَبِيحَةَ لَيَالٍ ثَلَاثٍ، فَارْتَحَلَا وانْطَلَقَ معهُما عَامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ، والدَّلِيلُ الدِّيلِيُّ، فأخَذَ بهِمْ أسْفَلَ مَكَّةَ، وهو طَرِيقُ السَّاحِلِ[11].

وقد ورَدَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ استعانَ ببَعضِ المشْرِكين؛ فاستعانَ بصَفوانَ بنِ أُميَّةَ قبْلَ إسلامِه، فاستعارَ منه أدْرُعًا يومَ حُنَينٍ، فقال: «أغصْبًا يا محمَّدُ؟ قال: لا، بلْ عاريَّةٌ مَضمونةٌ»، رواهُ أبو داودَ وأحمدُ، وقدْ أخَذَت طائفةٌ من العلماءِ بالحديثِ على إطلاقِه، أي: لم يُجيزوا الاستعانةَ بمُشرِكٍ على أيِّ حالٍ، وقال آخَرون: إنْ كان الكافرُ حَسنَ الرَّأيِ في المسْلِمين ودَعَت الحاجةُ إلى الاستعانةِ به، استُعِينَ به، وحَمَلوا الحديثَينِ على هذينِ الحالينِ[12].

وللكلام بقية، وبالله الاستعانة!

---

١١. البخاري، ٢٢٦٣.

١٢. dorar.net/hadith/sharh/152183

قصيدة

الشيخ أحمد جعفر عالم أحمذي*

شاعر موريتاني

في ذكرى مولد سيد الوجود •• عليه أزكى الصلاة وأبهى السلام

أتيتَ الكونَ أخلاقاً ودِينا •• وبِشْرًا يغمر الأرواح لِينا
ووحياً يملأ الآفاقَ نورا •• يعيد إلى الطريق التائهينا
أتيت الأرض غيثاً من أمان •• يُريش الجائعين الخائفينا
أتيت الأرض ترفع كل إصْرٍ •• وتنشر في الورى عدلاً مَكينا
وتنثر في المدى دِفئاً وظِلا •• وقولاً لَيِّناً سلسا مبينا
وتدعو للإله الخلق حباً •• وترشد في الدروب الحائرينا
وتملأ من هدى الإيمان أفقاً •• تلبد من سواد الكفر حينا
تفتّح بالهدى والنور عقلاً •• يألّهُ بالهوى حجراً وطينا
وتفتح للرسالة كل أرض •• لها كان الخنا والجهل دينا

* موريتانيا، الأحد ١٢ربيع الأول ١٤٤٤هـ

تزود جيشك الغازي برفق •• وتوصي بالضعاف السائرينا
تؤسس من هُدَى القرآن نهجاً •• قويما مستقيما مستبينا
وترقى نحو ربك في اشتياق •• لتَلقى المخلصين الصادقينا
وتبقى في المدى ذكراً وعطراً •• يثير الساهمين الشائمينا



رسولَ الله يا ثغر المعالي •• ويا أنف السيادة، يا جبينا
ويا زهــو المعاني والمباني •• ويا مثوى قوافي المادحينا
زففت لك المشاعر صادقات •• وأشهدت التّولّه والحنينا
فما لي غير قافية وشوق •• يؤجج في الحشا توقاً دفينا
تراودني الأماني كل عام •• بأنّي في الوفود الزائرينا
ويتركني الحجيج أسير عجز •• فأبقى في الجوى أَسِفًا حزينا
فمن لي أن أزورك يا شفائي؟ •• لأزرع في خواطريَ اليقينا
وأغسل من ندى الإيمان قلبا •• عليه الرَّانُ عافٍ مذ سنينا
وأملأ من صدى الدعوات روحي •• وأدعو في جموع المخبتينا
لعل اللــه يغفر كل ذنب •• وينسيني دروب الغافلينا
ويعمر بالهدى والنور قلبي •• فأرقى في مقام الذاكرينا



عليك الله صلى كل حين •• صــلاة تملأ الدنيا رنينا
وآلكَ والصحابةِ ما استهلت •• دموع الراكعين الخاشعينا

مساحة إعلانية

سلسلة السيرة النبوية

الشيخ د. محمد الصغير

الأمين العام للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

استعراض لوقائع السيرة النبوية التي نحتاجها في واقعنا المعاصر

- من نبعته إلى بعثته ﷺ
- من بعثته إلى هجرته ﷺ
- من هجرته إلى وفاته ﷺ
- الغزوات النبوية

سلسلة السيرة النبوية الفرنسية

محمد إلهامي

عضو الأمانة العامة
للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

استعراض لسيرة النبي ﷺ من خلال دراسات ومؤلفات المستشرقين والمؤرخين الفرنسيين، تحقيقا لقوله تعالى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾

- السيرة النبوية الفرنسية

في هذا العدد، نخصص قسم "أئمة الهدى" للعلامة الشيخ يوسف القرضاوي -رحمه الله-
نلتقط فيه بعضاً من تراثه الذي نافح فيه عن النبي المعظم ﷺ وسنته الشريفة.

أئمة الهدى

﴿قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾

من تراث علمائنا الراحلين



الرسول المعلم



د. يوسف القرضاوي*

رحمه الله



إذا كان عصرنا يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلمية في معالجة الأمور، وهو فارق مميز بين العلميين والعشوائيين أو الغوغائيين من الناس، فإن النبي قد بادر إلى الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة. فقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "احصوا لي كم يلفظ الإسلام". وفي رواية للبخاري أنه قال: "اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس".

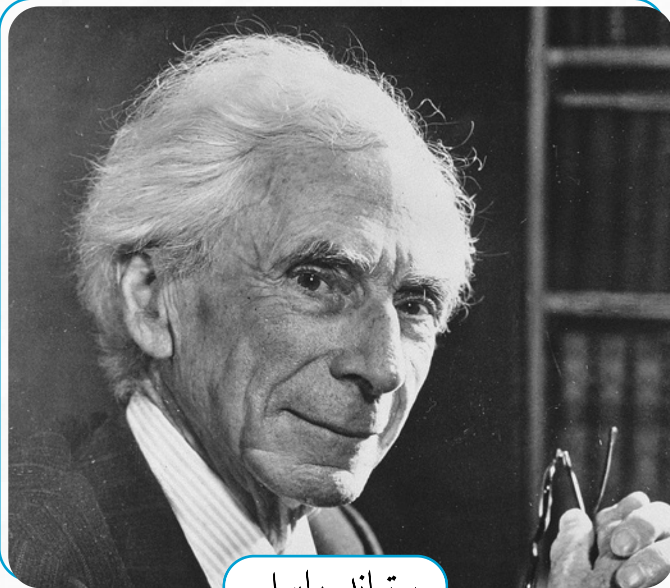
---

* د. يوسف القرضاوي، الرسول والعلم، ص٤٤ وما بعدها.

قال حذيفة: "فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل"[١]... الحديث.

فهو إحصاء كتابي يراد تدوينه وتثبيته، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البشرية الضاربة التي يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به، ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط، أي القادرين على القتال. والإحصاء الذي تم في عهد مبكر من حياة الدولة المسلمة، وتم بأمر من الرسول نفسه في سهولة ويسر، يرينا إلى أي حد يرحب الإسلام باستخدام الوسائل العلمية.

وفي مقابل هذا نجد في العهد القديم أن أحد أنبياء بني إسرائيل أراد أن يعمل لهم إحصاء فنزلت عقوبة سماوية بهم! كأنما (الإحصاء) يمثل تحدياً للقدر أو للإرادة الإلهية، وهذا ما استنبط منه الفيلسوف المعاصر الشهير "برتراند راسل" أن التوراة والكتاب المقدس لا يتيح مناخاً مناسباً لإنشاء عقلية علمية.


برتراند راسل

التخطيط

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية فالتخطيط كذلك، بل هو أوضح دلالة عليها! والتخطيط إنما يعتمد على الإحصاء، ويراد بالتخطيط وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل وتحقيق الأهداف المنشودة. ومن الناس من يتصورون أو يصورون الدين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل، وهذا من أثر الفكرة القديمة التي جعلت العلم مقابلاً للإيمان فهما ضدان لا يجتمعان، أو خطان متوازيان لا يلتقيان!

---

١. انظر: جامع الأصول، ج١٠ ص١٠٠، حديث ٧٥٧٠، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط.



والحقيقة أن فكرة الدين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل؛ ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده، وبعبارة أخرى من حياته لموته، ومن دنياه لآخرته، ولابد له أن يخطط حياته! ويضع لنفسه منهاجاً يوصله إلى الغاية، وهي رضوان الله ومثوبته.



وفي القرآن الكريم قصة جعلها الله عبرة لأولي الألباب، وهي قصة نبي الله يوسف عليه السلام، وفيها يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط للاقتصاد الزراعي لمدة خمسة عشر عاماً، لمواجهة أزمة غذائية عامة عرف يوسف -بما ألهمه الله وعلمه من تأويل الأحاديث- أنها ستصيب المنطقة كلها. وقد اقترح يوسف عليه السلام مشروع الخطة ووُكّل إليه تنفيذها، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧-٤٩].

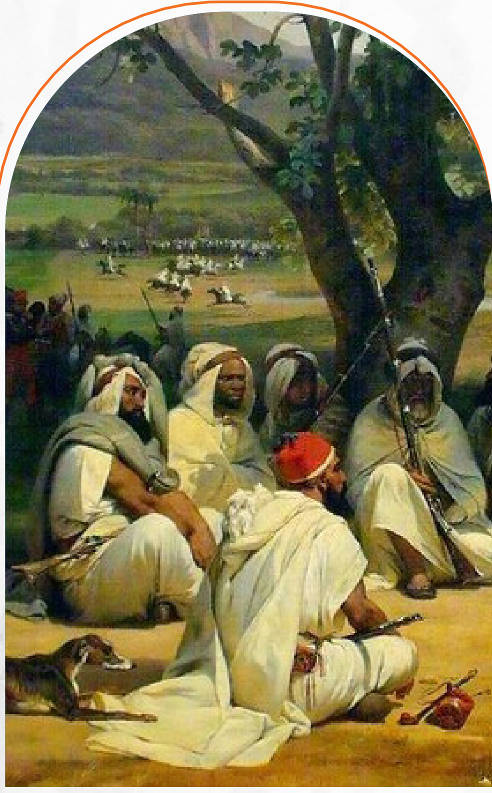
ويظن آخرون أن التخطيط للغد ينافي التوكل على الله أو الإيمان بقضائه وقدره، ولهذا يستبعدون كل الاستبعاد أن يقبل الدين فكرة التخطيط، فضلاً عن أن يوجه إليه أو يحث عليه. والحق أن الذي يتعمق في دراسة كتاب الله وسنة رسوله يتبين له أنهما يرفضان الارتجال والعشوائية، وترك الأمور تجري في أعنتها بغير ضابط ولا رابط ولا نظام. وبيّن الرسول صلى الله عليه وسلم أن التوكل على الله لا يعني اطراح الأسباب أو إغفال السنن التي أقام الله عليها نظام هذا الوجود.



ولا يكاد مسلم يجهل قصة الأعرابي الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وترك ناقته أمام المسجد قائلاً: يا رسول الله أأعقل ناقتي وأتوكل أم أُطلقها وأتوكل؟ فقال له صلى الله عليه وسلم: "اعقلها وتوكل"[٢].

وقال الإمام الطبري يرد على من زعم أن تعاطي الأسباب يؤثر في كمال التوكل: "الحق أن مَن وثق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماضٍ، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب، اتباعاً لسُنته وسنة رسوله، فقد ظاهر صلى الله عليه وسلم بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة! وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب وادخر لأهله قوتهم ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك"[٣].

ومن قرأ سيرته عليه الصلاة والسلام وجد أنه كان يعد لكل أمر عدته، ويهيئ له أسبابه وأهميته، آخذاً حذره، مقدراً كافة الاحتمالات. واضعاً ما أمكنه من الاحتياطات مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله تعالى. فهو حين أمر أصحابه -بعد أن اشتد إيذاء قريش لهم- بالهجرة إلى الحبشة، لم يكن هذا الأمر اعتباطاً أو رمية من غير رام، بل كان نتيجة معرفة بالظروف الجغرافية والدينية والسياسية للحبشة في ذلك الوقت، فلم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يأمرهم بالهجرة إلى مكان -مهما بعُد- في شبه جزيرة العرب، فإن قريشاً بما لها من نفوذ ديني وأدبي تستطيع أن تلاحقهم. ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن



٢. رواه الترمذي من حديث أنس وقال غريب أي ضعيف وأنكره يحيى القطان، لكن أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث عمرو بن أمية الضمري وإسناده كما قال الزركشي صحيح، ورواه أيضاً عنه ابن خزيمة في صحيحه بلفظ «قيدها وتوكل» وإسناده كما قال الزين العراقي جيد، انظر فيض القدير ص٧ حديث ١١٩١.

٣. نقله الشوكاني في نيل الأوطار، ج٩ ص٩٢، ط: دار الجيل - بيروت.



يذهبوا إلى بلد تحت سيطرة الفرس أو الروم حيث يحكمها أباطرة لا يقبلون مثل هذه الدعوة الجديدة. ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا بعيداً إلى بلاد مثل الهند والصين، حيث تنقطع أخبارهم، وتكون الهجرة مهلكة لهم.

ولقد كانت الحبشة هي المكان المناسب جغرافياً، فهو ليس جد بعيد ولا جد قريب، بل بينه وبين قريش بحر. وكانت الحبشة هي المكان المناسب دينياً؛ فقد كانوا أهل كتاب من النصارى الذين يعدون أقرب مودة للمسلمين. وكانت الحبشة هي المكان المناسب سياسياً، فقد كان يحكمها رجل اشتهر بالعدل والنصفة، ولهذا قال الرسول لأصحابه: "إن بها ملكاً أرجو ألا تُظلموا عنده".

وهذا يدلنا على أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في عزلة عن العالم من حولهم رغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها وبعض، ويدل على ذلك أيضاً موقفهم من حرب الفرس والروم وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين في هذا، مما نزلت فيه أوائل سورة الروم: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الروم: [١-٤] وهكذا.. فقد كانوا -وهم في فجر الدعوة ورغم الضعف والاضطهاد- على صلة بالصراع العالمي بين الدولتين العُظميين في ذلك العصر، أو المعسكرين الكبيرين، الشرقي والغربي.

وأوضح من ذلك موقفه صلى الله عليه وسلم في هجرته إلى المدينة؛ ففيها يتجلى التخطيط العلمي، والتوكل الإيماني جنباً إلى جنب، فلقد أعد عليه الصلاة والسلام من جانبه كل ما يستطيع البشر إعداده من الوسائل والاحتياطات والمعينات:



• ولقد اطمأن إلى المهجر الذي سينتقل إليه، بعد أن بايع المؤمنين من الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى والثانية، واشترط لنفسه أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم.

- واطمأن إلى الرفيق الذي سيصحبه في رحلته الجاهدة بما فيها من أخطار وما تحمله من مفاجآت ولم يكن هناك أفضل من أبي بكر رفيقاً.

- واطمأن إلى الفدائي الذي سيبيت مكانه، معرضاً نفسه لاحتمالات الخطر وغدارات المتربصين، ولم يكن ثم أفضل من عليّ ابن عمه أبي طالب فارس الإسلام لهذه المهمة. ورتب الدليل الخريت الذي يدله على الطريق وما فيه من منعطفات ومخابئ يمكن أن تضلل عنه أعين الطالبين، فكان مشركاً أميناً، هو عبد الله بن أريقط، وهو ما أخذ منه الفقهاء جواز الاستعانة بالخبرة الفنية غير الإسلامية مع الاطمئنان والأمان.

- وهيأ الرواحل التي سيمتطيها هو وصاحبه. ودليله في سفرهم الطويل.

- واتفقوا على المكان الموعود الذي يستقلون به الركائب.

- وتخير المخبأ الذي يختفي فيه أياماً معدودة حتى تخف حدة الطلب ويتملك القوم اليأس، واختاره في غير طريق المدينة زيادة في التعمية على القوم. فكان غار "ثور".

- وأعد فريق الخدمة الذي يأتي بالزاد والأنباء خلال أيام الاختفاء، فكانت أسماء وعبد الله بن أبي بكر، ومن بعدهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يأتي بغنمه فيحلبون منها، ويعفي على آثار أسماء وعبد الله.

خطة محكمة الحلقات، متقنة التدبير، ولم تُترك فيها فجوة دون أن تُملأ، ولا ثغرة دون أن تُسد، ووضع فيها كل جندي في دوره المناسب لظروفه وقدراته، فدور أبي بكر غير دور علي، غير دور أسماء، وكل في موقعه الصحيح.

ومع هذا الإحكام الدقيق، كادت الخطة تخفق، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار ويقفوا على بابه، وكان يكفي لكشف الأمر وإفساد الخطة أن ينظر أحد القوم تحت قدميه ليرى الرسول وصاحبه في الغار، وهذا ما خشيه أبو بكر رضي الله عنه وصرح به للرسول صلى الله عليه وسلم حين قال: "لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فقال له كلمته المؤمنة الواثقة: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]



وهنا تجلى دور التوكل الحق، فبعد أن يبذل الإنسان ما في وسعه، ويتخذ من الأسباب والخطط ما يقدر عليه، يدع ما لا يقدر عليه من مفاجآت القدر لله وحده. وهنا تقع ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ موقعها وتؤتي أكلها.

إقرار منطق التجربة في الأمور الدنيوية

ولعل أظهر ما يميز "العلم" بالمفهوم العصري أو الغربي: أنه لا يقوم على المنطق الشكلي أو الصوري أو القياسي الذي ينسب إلى أرسطو، وإنما يقوم على منطق الملاحظة والتجربة، ويخضع في نتائجه لما تأتيان به، ولهذا يسمى "العلم التجريبي" ويسمى منهجه "المنهج التجريبي".

وهنا أيضاً نجد الرسول عليه الصلاة والسلام سبق إلى إقرار مبدأ التجربة في الأمور الدنيوية الفنية، مثل أمور الزراعة والصناعة والطب وما شاكلها، فما أثبتت التجربة نفعه في هذا فهو مطلوب شرعاً، وما أثبتت ضرره فهو مرفوض شرعاً.

وأوضح مثال لهذا المبدأ موقفه عليه الصلاة والسلام من قضية تأبير النخل، حيث رأى أصحابه من الأنصار يفعلون ذلك ولم يكن له بذلك عهد، حيث نشأ بمكة وهي واد غير ذي زرع، فقال لهم كلمة من باب الظن والتخمين، يشير بها إلى أن هذا العمل لا ضرورة له، وفهم الأنصار منها أنها من أمر الوحي، والدين الذي لا يجوز مخالفته، فتركوا التأبير في ذلك الموسم، فخرج التمر رديئاً، فلما علم ذلك عليه الصلاة والسلام بيّن لهم أن كلمته لم تكن من باب الوحي الإلهي، بل من باب المشورة الدنيوية، حسب ظنه الناشئ عن خبراته البيئية المحدودة، ثم قال لهم في النهاية "أنتم أعلم بأمر دنياكم"، فهذه الشؤون الدنيوية الفنية المحض، متروكة لعقولهم ومعارفهم يدبرونها وفق مصلحتهم، وليس من شأن الوحي أن يتدخل فيها، فهم بها أدرى وأعلم.



والقصة في صحيح مسلم، ومسند أحمد وغيرهما، رواها عدد من الصحابة منهم طلحة بن عبيد الله ورافع بن خديج وعائشة، وأنس رضي الله عنهم.

ففي المسند عن طلحة رضي الله عنه قال: مررت مع النبي صلى الله عليه وسلم في نخل المدينة، فرأى أقواماً في رؤوس النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قال يأخذون من الذكر فيحطون في الأنثى يلقحون به. فقال: ما أظن ذلك يغني شيئاً. فبلغهم فتركوه ونزلوا عنها، فلم تحمل تلك السَّنة شيئاً، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إنما هو ظن ظننته إن كان يغني شيئاً فاصنعوا فإنما أنا بشر مثلكم، والظن يخطىء ويصيب، ولكن ما قلت لكم قال الله عز وجل، فلن أكذب على الله"[٤].

وفي صحيح مسلم[٥] من رواية رافع بن خديج أنه قال لهم: "إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي، فإنما أنا بشر".

وفيه[٦] من رواية عائشة وأنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم بعد أن خرج التمر شِيصاً (بسراً رديئاً): ما لنخلكم؟! قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم.

فالقانون الذي يجب الخضوع له هنا: هو القانون الذي تنتجه الخبرة والممارسة، أو المشاهدة والتجربة، ويكفي العقل الإنساني في هذه الأمور هادياً ودليلاً، أما الوحي فحسبه أن يضع للناس القيم والمبادىء العامة والضوابط، ثم يدع البشر يتصرفون تبعاً لما يعلمون، وحسبهم هذه الكلمة الجليلة: "أنتم أعلم بأمر دنياكم" .

---

٤. رواه الإمام أحمد في مسند طلحة، حديث رقم١٢٩٩١، قال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، وقد جاء في المسند مختصراً برقم١٣٩٥ ورواه مسلم أيضاً برقم٢٣٦١.

٥. رواه مسلم من حديث رافع بن خديج، برقم٢٢٣٦٢.

٦. رقم٢٣٦٣.



الحل الإسلامي ومصدر الإلهام



د. يوسف القرضاوي*

رحمه الله

لكي يكون الحل إسلامياً يجب أن تُستمد عناصره من منابع الإسلام الصافية، من كتاب الله تعالى وسنة رسوله الصحيحة.. من الإسلام النقي المصفّى من الشوائب والتشويهات والفضول والانحرافات التي لحقت به وأضيفت إليه على مختلف العصور.

---

* د. يوسف القرضاوي، الحل الإسلامي، ص ٩٥ وما بعدها.

لابد من الرجوع إلى الإسلام الصحيح: الإسلام كما أنزله الله، وكما دعا إليه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وكما فهمه الصحابة وتابعوهم بإحسان، بعيداً عن تزمت المتزمتين وتحلل المتحللين، بعيداً عن غلو الغالين وتقصير المقصرين.

لا يستحق حل شرف الانتساب إلى الإسلام ما لم يكن مصدره الإسلام الخالص، لا الماركسية ولا المادية ولا الديمقراطية ولا الرأسمالية ولا الليبرالية، وغيرها من مذاهب البشر وفلسفات البشر أياً كانوا.

الحل الإسلامي إذن هو الذي يطوع كل الأوضاع وكل الأنظمة لأحكام الإسلام، وليس هو الذي يطوع أحكام الإسلام لأوضاعه وأنظمته؛ فالإسلام يعلو ولا يعلى ويقود ولا يقاد ويوجه ولا يتوجه، لأنه كلمة الله وكلمة الله هي العليا.

إن الرسول ﷺ يقول: "من مات ولم يغزُ ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من النفاق!"[1].

فهل يمكن أن يتم هذا الجهاد دون دولة تهيئ الأمة له بالتدريب وإعداد ما استطاعت من قوة، وتوزيع أبناء الأمة على الأعمال العسكرية والعلمية والاقتصادية وغيرها بالقسط الذي تمليه المصلحة العامة، واستنفار الناس جميعاً عند الضرورة وهو ما يعرف اليوم بالتعبئة العامة. ونحو ذلك مما لا يتسنى تحقيقه إلا في ظل دولة مسؤولة؟



١. رواه مسلم.

ومن هنا نعلم أن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]، ونحوها من الآيات لا يتيسر تنفيذها إلا في ظل سلطان دولة.

الحل الإسلامي هو الذي يتخذ الإسلام وحده مصدر الإلهام، ومصدر الإلزام. مصدر الإلهام في الشئون الفكرية، ومصدر الإلزام في الشؤون العملية.

ذهبت فلسفات الأرض كلها -فرضاً- إلى أن الإنسان لا حياة له بعد هذه الحياة. وقال الإسلام إن الإنسان خلق للخلود، للأبد، لحياة أخرى بعد هذه الحياة؛ فماذا يتبنى الحل الإسلامي؟ ليس له أن يتبنى غير كلمة الإسلام، وفكرة الإسلام، عليها يبني فلسفته، ويقيم حياته، وينشئ مؤسساته التربوية والثقافية والإعلامية كلها. ويصدر في كل أموره عن هذه الفكرة.

ولو قالت كل شرائع الأرض -افتراضاً- إن منافع الخمر أكبر من إثمها، وإن شربها لازم للتقدم البشري، وقال الإسلام إنها رجس من عمل الشيطان وإن إثمها أكبر من نفعها، وإنها أم الخبائث، فالحل الإسلامي هو الذي ينقاد لكلمات الله وحكم الإسلام ويبادر إلى إغلاق الحانات وتحريم الخمر.. شُربها وصُنعها واستيرادها وبيعها وشرائها، وكل ما يعين على تناولها أو ييسره.



ومثل ذلك: إذا قال الإسلام إن إباحة الربا إيذان بحرب من الله ورسوله؛ فالحل الإسلامي ليس له إلا أن يمنع الفوائد الربوية، وأن يجند كل الطاقات الفنية والمادية لإنشاء بنوك إسلامية تحل محل البنوك الرأسمالية التي نجسها خبث الربا.

وإذا قال الإسلام إن الناس سواسية كأسنان المشط، وألا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وألا مجال في الإسلام لطبقات يستعلي بعضها على بعض أو يقهر بعضها بعضاً؛ فالحل الإسلامي هو الذي يقيم نظامه الاجتماعي ونظامه السياسي على أساس هذه المساواة، فلا امتياز لفرد على فرد، ولا امتياز لأسرة على أسرة، ولا امتياز لطبقة على طبقة، بل كلهم سواء في المغانم والمغارم، في التكاليف والعقوبات.

حتى رئيس الدولة نفسه يكلف بما يكلف غيره من الفرائض، ويزيد على غيره بما حُمل من أمانة المسؤولية عن الأمة، كما قال عمر بن عبد العزيز بعد أن ولي الخلافة: "إنما أنا واحد منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً". كما أنه يخضع لقانون الشرع وحكم القضاء، ويطالَب بالبينة، كما يخضع سائر الرعية، حتى رأينا أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه يقف مع نصراني في دعوى مدنية، أمام القاضي شريح، فيعجز علي عن إقامة البينة، فيحكم شريح للنصراني على أمير المؤمنين، وهو يوقن أنه صادق، كما أقر النصراني نفسه بعد ذلك وأعلن إسلامه، ولكنه عدل القضاء الإسلامي ومساواته حتى بين أمير المؤمنين وأحد رعاياه من غير المسلمين!

وإذا أمر الإسلام بوجوب التكافل بين الأغنياء والفقراء، وفرض الزكاة على ذوي الغنى -باعتبارها الحد الأدنى الواجب في المال- وبرئ ممن بات شبعان وجاره جائع، ومن أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائع، وأوجب تخصيص الفئات الضعيفة مثل اليتامى والمساكين وأبناء السبيل بالحظ الأعظم من الفيء، ما يفيئه الله من أموال على الدولة المسلمة: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]





فالحل الإسلامي هو الذي يقيم سياسته الاقتصادية والاجتماعية على الدعائم الإسلامية الواضحة: محاربة الفقر والجوع، وفرض التكافل بسلطان الدولة، وأوله جباية الزكاة، وتوزيع الثروة وخيرات الدولة بالعدل، بحيث لا يأخذ الأغنياء والحكام ومحاسيبهم نصيب الأسد ولا ينال الضعفاء إلا الفتات؛ بل الحل الإسلامي هو الذي يعمل جهده ليرفع من مستوى الفقراء ويحد من طغيان الأغنياء.

وإذا قال الإسلام إن المسلمين أمة واحدة، وإن المؤمنين إخوة، وإن الرابطة الإسلامية فوق الرابطة القومية والوطنية -بل فوق رابطة الأبوة والبنوة والأخوة النسبية- فالحل الإسلامي هو الذي يقيم سياسته العملية على الولاء لأمة الإسلام والعداء لأعداء الإسلام، والعمل الجاد المخلص المستمر على إعادة الوحدة الإسلامية والخلافة الإسلامية.

وإذا قال الإسلام ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فالحل الإسلامي هو الذي يقول سمعنا وأطعنا يا رب، ويقيم فقهه وفكره وتشريعه وقضاءه على أساس حكم الله الذي لا يتصور أن يوجد حكم أعدل منه، ولا أرحم منه، ولا أجدر بتحقيق مصلحة المجتمعات البشرية منه، فينفذ حد الله على اللص الكبير، كما ينفذه على اللص الصغير على وفق الحديث الشهير: "وايم الله، لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها".

وإذا شرع الإسلام الطلاق عند تعذر الوفاق، وفشلت وسائل التقريب والإصلاح، فالحل الإسلامي هو الذي ينقاد لشرع الله فيحل ما أحله كما يحرم ما حرمه، غير مصغٍ إلى مطاعن الأفاكين، وأكاذيب المفترين، الذين يريدون إدخال الشرائع المسيحية في قلب المجتمع المسلم.

وإذا أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج بأكثر من واحدة، لاعتبارات ومبررات رآها، وبقيود وشروط أوجب رعايتها؛ فليس للحل الإسلامي أن يستدرك على الله، ويحرم ما أحل الله، سيراً في ركاب الذين لا يؤمنون، واتباعاً لأهواء الذين لا يعلمون، وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ١٨-٢٠].

•• ليس بحل إسلامي ذلك الذي يبيح الخمور ويفتح الحانات بدعوى تنشيط السياحة والحاجة إلى العملة الأجنبية، فإن الله حرم على المؤمنين السماح للمشركين بدخول المسجد الحرام مع ما كان في دخولهم إليه حاجّين من مكاسب اقتصادية، ولكنه ضرب بهذه المكاسب عرض الحائط حفاظاً على عقيدته ومُثله قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

•• وليس بحل إسلامي ذلك الذي يبيح الربا ويقر البنوك الربوية بدعوى أنها دعامة الاقتصاد الحديث، ولا يُستطاع الاستغناء عنها، فإن الله لم يحرم على الناس شيئاً يتعذر الاستغناء عنه أبداً، وقيام الحياة الاقتصادية بغير ربا ممكن نظراً، وواقع عملاً، وإذا صدق العزم وضح السبيل.

•• وليس بحل إسلامي ذلك الذي يقطع الروابط بين المسلمين، أو يسوي بين أبناء الإسلام وأعداء الإسلام بدعوى أن الرابطة الدينية الآن لا تصلح للعصر، أو أنها تثير الطوائف الأخرى من غير المسلمين، فكل هذه تعلات لا يقبلها مسلم اتخذ الإسلام حكماً ومنهاجاً، وفي العالم دول كل ضخمة قامت على عقائد وإيدلوجيات لا دينية، فلماذا تُرفض الإيدلوجية الدينية وحدها؟

•• ليس بحل إسلامي ذلك الذي يعطل حدود الله وعقوباته المقدرة في كتابه وعلى لسان رسوله، من قطع يد السارق أو جلد الزناة المجاهرين والسكيرين أو القصاص من القاتل المتعمد، أو غير ذلك مما شرعه الله تأديباً للمنحرف وزجراً للشرير وتطهيراً للمجتمع كله من أسباب الفساد والإجرام.



•• ليس بحل إسلامي ذلك الذي يعرض وينأى بجانبه عن أفكار الإسلام الثابتة وقيم الإسلام الخالدة ، ونصوص الإسلام صحيحة الثبوت وصريحة الدلالة، ثم ينحني خاشعاً أمام أفكار ومناهج وقيم وأنظمة تأتي بها حضارة أجنبية أو فلسفة أرضية أو شريعة مبدلة منسوخة انحناءَ العابد لمعبوده، فإذا وُوجه بالنصوص الإسلامية والقواعد الشرعية أخذ يلف ويدور جرياً وراء بعض المتشابهات التي لا تشفي غليلاً ولا تهدي سبيلاً.



هناك في بعض الدول العربية -على سبيل المثال- طائفة من النساء المحترفات بالقضية النسوية، وإن شئت فقل هناك طائفة من الرجال الذين يحركون بعض النساء العصريات، هؤلاء وأولئك يريدون أن يفرضوا على المجتمع الإسلامي في الزواج والطلاق قوانين غير إسلامية، إنهم يحاولون أن يدخلوا على هذا المجتمع المسلم الزواج والطلاق على الطريقة الأوربية، التي تأخذ شكل النصرانية، وهي في الواقع إباحية لا دينية، يريدون أن يحرّموا تعدد الزوجات، ليبيحوا من ورائه تعدد الخليلات، يريدون أن يقيدوا الطلاق ليباشر الرجل في الحلال مَن يكره، ويبحث في الحرام عمن يحب، وهؤلاء لا يبالون بالحرام ولا ينكرونه، ولا يسخطون عليه، كل ما يهمهم أن ينقلوا التقاليد الأوربية الانحلالية إلى البيئة الإسلامية إرضاء لسادتهم، أو لشعور خفي في أنفسهم.

والمجتمع المسلم يقاوم هذه التقاليد الدخيلة ويأباها ويرفضها، لأنه لم يزل حريصاً على دينه وخاصة في هذه البقية التي بقيت له من شريعة ربه، والتي يترتب عليها عشرة دائمة، ونسب وميراث إلى غير ذلك، ولهذا يستفتي الناس علماء الدين في كل صغيرة وكبيرة في هذا الشأن. هذا هو موقف المجتمع المسلم من هذه القوانين التي يراد أن تفرض عليه، فماذا يصنع تلامذة التبشير الاستعماري، والاستعمار التبشيري، أمام هذا الإباء أو الثبات كما نسميه، أو التزمت والجمود كما يسمونه؟!



إنهم يبحثون حينئذ عن بعض الفارغين -الذين فرغت رؤوسهم من العلم، وقلوبهم من اليقين ممن ينتسبون إلى الدين شكلاً- يبحثون عنهم لينتزعوا منهم بعض الفتاوى المنحرفة، والأقوال المرفوضة ليطيروها في الآفاق، وينفخوا فيها، وفي أصحابها، ويوهموا الشعب المسلم أن الذي يجر إليه من الشرائع والتقاليد لم يخرج عن الإسلام.

هل يعد هذا الحل المستورد من الغرب "حلا إسلامياً" حقاً لما نعانيه من سوء استعمال بعض الرجال المسلمين لحقوقهم في الطلاق أو في الزواج بأكثر من واحدة؟

لا ثم لا. ليس هذا الحل من الإسلام في شيء، وإن أفتى المفتون والمخادعون.

أطوار تدوين السنة ودقة المحدثين

د. يوسف القرضاوي



رحمه الله*

صحيح أن النبي ﷺ لم يجعل للسنة كُتّاباً يكتبونها كالقرآن، بل نهى عن كتابة غير القرآن في أول الأمر، لتتوفر الهمم على كتابة القرآن، لقلة الكاتبين، وقلة مواد الكتابة وتنوعها، وعسرها، وخشية اختلاط القرآن بغيره. ولكنه كتب أشياء مهمة لتُبلَّغ عنه وتُنفَّذ، مثل كتبه في الصدقات والديات وغيرها، وأذن لبعض الصحابة أن يكتبوا، مثل عبدالله بن عمرو وغيره، وحث على تبليغ الأحاديث لمن لم يسمعها بدقة وأمانة، وجاء في ذلك حديثه المستفيض بل المتواتر عند بعضٍ العلماء: "نضّر الله امرءًا سمع مقالتي، فوعاها، فأداها كما سمعها، فرب مُبلَّغ أوعى من سامع"[1]. وفي رواية: "فرُب حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه"[2].

---

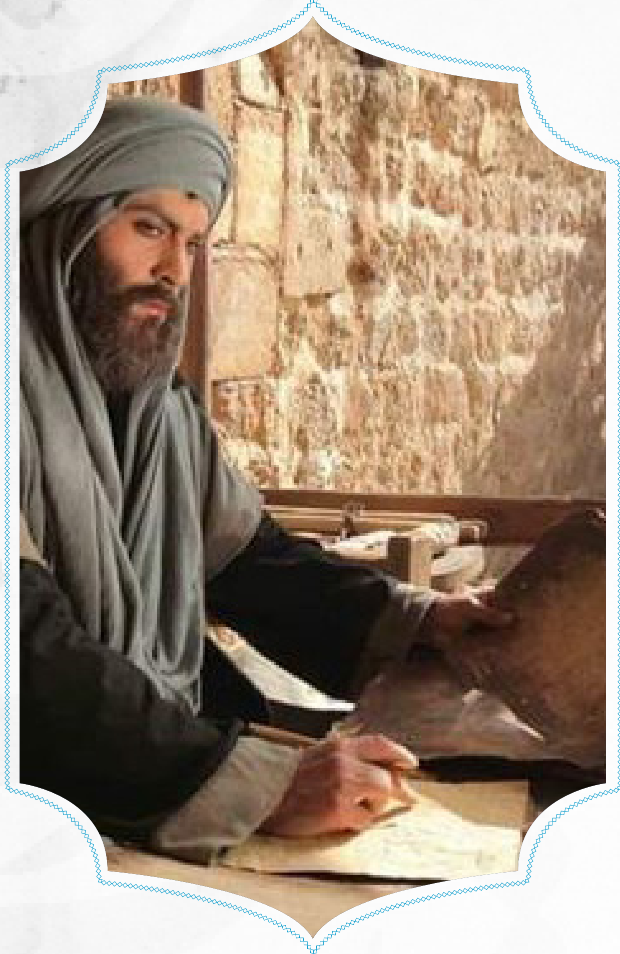
* د. يوسف القرضاوي، المرجعية العليا للقرآن والسنة، ط٤ (القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠١٣م).

١. رواه أحمد (٢١٥٩٠) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود (٣٦٦٠) والترمذي (٢٦٥٦) وقال: حسن، كلاهما في العلم، وابن ماجه في المقدمة (٢٣٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٠٤)، عن زيد بن ثابت.

٢. رواه أحمد (٤١٥٧) وقال مخرجوه: حديث صحيح، والترمذي في العلم (٢٦٥٧) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة (٢٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٦٤)، عن ابن مسعود.

ومن الثابت بيقين لدى الباحثين المتخصصين اليوم أن تدوين السنة لم يبدأ في رأس المائة الأولى للهجرة، كما قيل يوماً، بل إن للتدوين أطواراً بدأت منذ عصر النبوة، ونمَت بعد ذلك، كما دلت على ذلك الدراسات العلمية الموضوعية.

جهود علماء الأمة في خدمة السنة وتنقيتها



من المؤكد أن هناك من كذبوا على رسول الله ﷺ، متعمدين لدوافع شتى؛ فاستحقوا أن يتبوءوا مقعدهم بين عيني جهنم، ولا غرو، فهناك من افتروا الكذب على الله ذاته: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ولكن من المؤكد أن علماء الأمة وصيارفة السُنة تصدوا لهؤلاء الدجالين وكشفوا أستارهم، وفضحوا زيفهم، وقد قيل للإمام عبد الله بن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعة؟ قال: تعيش لها الجهابذة[٣].

ولقد عاش لها الجهابذة النقاد بالفعل، وطاردوها كما يطارد الخبراء النقود الزائفة في الأسواق، فقد تروج لدى بعض العوام، وتمر من يدٍ إلى يد ثانية في غفلة عن الأعين الساهرة، ثم لا تلبث أن تُضبط وينكشف زيفها وغشها. وضع علماء الحديث القواعد الضابطة، ورفعوا المنارات الهادية، وأسسوا علوم الحديث ومصطلحه، واشترطوا لقبول الحديث شروطاً أشرنا إليها من قبل، وهو ما لم تفعله أمة سبقت لحفظ تراث نبيها من الضياع أو التزوير.

٣. رواه الخطيب البغدادي في «الكفاية في علم الرواية» ص(٣٦)، ط. المكتبة العلمية المدينة المنورة بتحقيق أبي عبدالله السورقي وإبراهيم حمدي المدني.



وما قيل من إن الصحيح قد التبس بالضعيف، والحابل اختلط بالنابل، فهو ادعاء مَن لم يغُص في بحار هذا العلم الشريف، ولم يسبر أغواره، ولم يطلع على الجهود الضخمة التي بذلتها عقول كبيرة، ومَلَكات عالية، ومواهب خارقة، نذرت نفسها لخدمته وتجليته والدفاع عنه، فأسسوا علوم الرجال، والطبقات والتواريخ، للثقات والمقبولين، وللضعفاء والمجروحين، وصنفوا في نحو تسعين علمًا ابتكروها عُرفت باسم "علوم الحديث" وكانت هي للحديث بمثابة "الأصول" للفقه. وأفردوا الصحيح من غيره، وعنوا بأحاديث الأحكام، وألفّوا في الأحاديث الواهية والموضوعة، وكذلك في علل الأحاديث ونقدها.

إن التاريخ لم يسجل لأمة في حفظ تراث نبيها ما سجّل لهذه الأمة الخاتمة. ووجود أحاديث زائفة لا يجعلنا نلقي الأحاديث كلها في سلة المهملات، هل يقول عاقل بإلغاء النقود السليمة وتحريم التعامل بها، أو اعتبارها عديمة القيمة، لأن هناك من المزوّرين مَن زيّفوا بعض العملات، وروجوها لدى بعض الغافلين؟!

اهتمام جهابذة السُنّة بالسند والمتن معًا

ومن عجيب ما قرأناه وسمعناه في عصرنا، ما قيل من إن علماء السنة في القرون الماضية، التفتوا إلى الأسانيد لا المتون، واقتصروا على نقد الشكل دون المضمون، وهو اتهام صدر أول ما صدر من المستشرقين، ثم نقله عنهم بعض المزهوين بهم، ثم تناقله آخرون.



وهذا في الواقع جور على الحقيقة، واتهام لعلماء الأمة بغير حق، وانتقاص لأقدار رجال أفذاذ مخلصين أفنوا أعمارهم في خدمة العلم، والذود عن حقائقه، ورد الأباطيل عن ساحته.



والواقع أن علماء السنَّة اهتموا بالجانبين كليهما: السند والمتن، ونقدوا كلاً منهما، أي أنهم عنوا بالنقد الداخلي للنص، بجوار النقد الخارجي لرواته. والدارسون يعلمون أن النقد للحديث بدأ منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم.

وأنه بدأ بنقد المتن قبل نقد الإسناد. كما يتضح ذلك مما روي عن ابن عباس[٤] وعائشة[٥] رضي الله عنهم.

ثم بدأ التدقيق في الرواة بعد عصر الفتنة في زمن عثمان وعلي رضي الله عنهما، وظهور فرق وأناس في الساحة الإسلامية لا يتورعون عن تأييد نِحلَهم ودعاويهم بالكذب، حتى على رسول الله ﷺ.

ومن ثم طفِقوا يقولون لمن حدثهم بحديث عن الرسول الكريم يقولون له: عَن مَن؟ وورث بعضهم عن بعض هذه الكلمة التي رواها الإمام ابن سيرين عمن قبله: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم"[٦].

وقال ابن المبارك: "الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء"[٧].

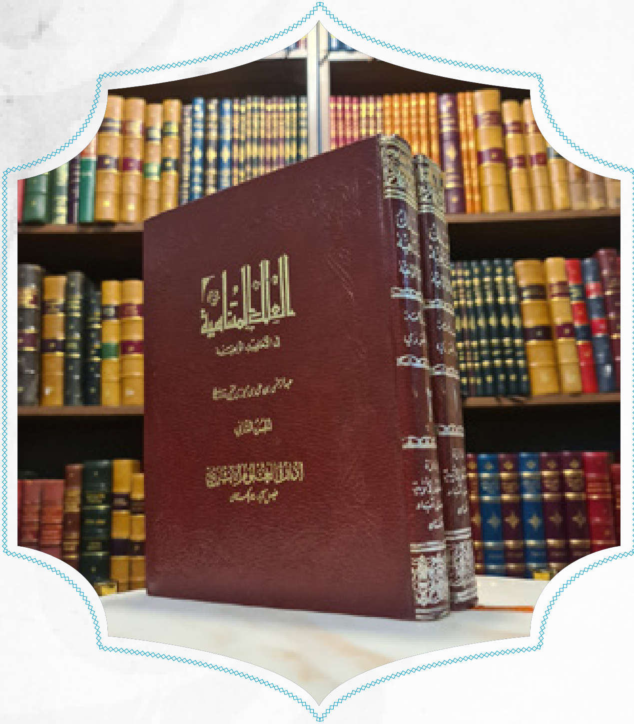
وقد بينّا من قبل المراد بالإسناد هنا، فليس هو مجرد سرد سلسلة من الأسماء لا تُعرف أعيانها، ولا سيرها العلمية والدينية والسلوكية، بل لابد من شروط. ومع هذا لم يكونوا يأخذون أي كلام يُروى، أو أي حديث يُحكى، بل جعلوا من دلائل "الوضع" الكذب في الحديث، دلائل في المروي (أي المتن)، كما أن هناك دلائل أخرى في الراوي (أي السند).

ومن الدلائل في المتن المروي: ركاكته لفظاً أو معنى، ومخالفته للعربية، ومناقضته لمحكم القرآن، أو لقواطع العقل، أو متواتر النقل، أو مقررات التاريخ الثابت، أو الواقع المـُحَس أو غير ذلك. ولذلك أمثلة كثيرة ذكروها في كتبهم.

---

٤. إشارة إلى الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: الوضوء مما مست النار ولو من ثور أقط قال فقال له ابن عباس: يا أبا هريرة أنتوضأ من الدهن؟ رواه الترمذي (٧٩)، وابن ماجه (٤٨٥)، كلاهما في الطهارة، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٩٣).
٥. إشارة إلى الحديث المتفق عليه «إن الميت ليُعذب ببكاء أهله عليه... فقالت عائشة ولكن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه». رواه البخاري (١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨)، ومسلم (٩٣٢)، كلاهما في الجنائز.
٦. رواه مسلم في المقدمة (١/ ١٢).
٧. رواه مسلم في المقدمة (١/ ١٥).

ومن مباحث المتن في نقد الحديث: ما يتعلق بالشذوذ، والعلة، والاضطراب، والقلب، والتصحيف، والتحريف.. واختلاف الحديث أو مشكل الحديث (أي تعارضه في نفسه أو مع غيره) والناسخ والمنسوخ منه. وكذلك ما يتعلق بالمرفوع، والموقوف، والمقطوع.



ومن علوم المتن أيضًا: علم غريب الحديث، وفيه مؤلفات جمة لعدد من الأئمة، وفقه الحديث، وهو ما يتصل باستنباط الأحكام منه.

ومن نظر إلى كتب " العلل"، و"الموضوعات" وجد أن للمعاني والمتون أثراً كبيراً في الحكم على الحديث بالوضع. وقد قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي: "إذا رأيت الحديث يخالف العقول، أو يباين النقول، أو يناقض الأصول، فاعلم أنه موضوع"[٨].

وهذا واضح في كتابيه "العلل المتناهية في الأحاديث الواهية" و"الموضوعات". كما يتضح بجلاء في كتاب الإمام ابن القيم "المنار المنيف في الصحيح والضعيف" الذي ذكر فيه جملة وافرة من القواعد الباهرة، الدالة على وضع الحديث، وكلها تتعلق بالمتن أو المضمون، ويلزم الباحث عن الحقيقة الرجوع إليه.

ومما يلزم التنبيه عليه هنا: أن مباحث الإسناد ليست منفصلة عن مباحث المتن تماماً، كما يتصور الكثيرون: فإن من أهم ما يحكم به على الراوي قبولاً أو رداً: جملة مروياته، فإذا كان ممن يروي "الغرائب"، أو "الشواذ"، أو "المنكرات" اسودّت بذلك صحيفته، وكان من أسباب جَرحه ورفضه، وكتب الجرَح والتعديل -وبخاصة كتب الضعفاء والمتروكين- حافلة بأمثلة لا تحصى من هذا النوع، ومن قرأ كتاباً مثل "الكامل في الضعفاء" لابن عدي، "وميزان الاعتدال" للذهبي، أدرك ذلك بيقين.

---

٨. انظر: الموضوعات لابن الجوزي (١/ ١٠٦) ط: المكتبة السلفية بالمدينة المنورة تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، ط. الأولى.

بل قد يُردّ الراوي بسبب حديث واحد غير مقبول المتن؛ كقول ابن حبان في بهز بن حكيم: لولا روايته حديث: "فإنّا آخذوها وشطر ماله..."[٩]، لأدخلته في الثقات[١٠].

نعم.. إن أئمة الحديث عنوا بنقد السند أكثر من المتن، خشية أن يردوا بمحض عقولهم ما لا يجوز أن يرد، لأنه يتعلق بأحوال الآخرة، أو عوالم الغيب، أو حقائق الوجود، أو مكارم الأخلاق، أو القوانين التي لا تصلح الحياة الإنسانية والاجتماعية إلا بها، وإن كانت أكبر من عقل الإنسان في ذلك العصر، وتلك البيئة.

خذ مثلاً: رد ابن حبان لبهز بن حكيم، لروايته الحديث الذي أشرنا إليه، وهو يتضمن العقوبة المالية لمانع زكاة الإبل، بمصادرة شطر ماله. ولو أخذ الحديث على أنه عقوبة تعزيرية مفوضة لرأي الإمام أو القاضي، قابلة للتخفيف أو الإلغاء، ما رفض الحديث، ولا أخرج راويه من دائرة الثقات[١١].

فإرخاء العنان للعقل المحدود بحدود مكانه وزمانه وثقافته في رفض "المتون" التي لا تعجبه، لا يخلو من خطر، وحسبنا أن عائشة استنكرت رواية أبي هريرة لحديث تعذيب امرأة من أجل هرة حبستها، قائلة: إن الله أكرم من أن يعذب مؤمنا الأجل هرة[١٢]. ولم يكن الصواب معها رضي الله عنها. وقد يخطر لبعض العقول -حتى الكبيرة منها- معنى في الحديث غير سائغ، فيسارع برد متنه، مع احتماله لوجوه سائغة أخرى، ظهرت لغيره، وفي عصرنا وجدنا مَن ردوا صحاح الحديث، بأوهام توهموها، حتى رأينا مَن رد حديث "بُني الإسلام على خمس..." لأنه لم يذكر الجهاد فيها، مع أن كثيراً من آيات القرآن في وصف المؤمنين والمحسنين والمتقين وعباد الرحمن لم تشمل الجهاد![١٣].

---

٩. رواه أحمد (٢٠٠٣٨)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود (١٥٧٥)، والنسائي (٢٤٤٤)، كلاهما في الزكاة، وحسن إسناده الألباني في صحيح أبي داود (١٤٠٧).

١٠. انظر: المجروحين لابن حبان (١/ ١٩٤) تحقيق محمود إبراهيم زايد، ط: دار الوعي- حلب ط. أولى ١٣٩٦هـ.

١١. انظر كلامنا عن هنا الحديث من كتابنا «فقه الزكاة» (٢/ ٧٩٠ - ٧٩٢) ط. مكتبة وهبة.

١٢. رواه أحمد (١٠٧٢٧) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٥٥): رجاله رجال الصحيح، والحديث متفق عليه دون رواية عائشة: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٣١٨)، ومسلم في التوبة (٢٦١٩).

١٣. متفق عليه رواه البخاري (٨) ومسلم (١٦)، كلاهما في الإيمان، عن ابن عمر.

تنبيه للداعية

من استعمال الأحاديث الواهية

د. يوسف القرضاوي*



رحمه الله

يجب على الداعية أن يحذر من الأحاديث الواهية والمنكرة بل والموضوعة. وقد حذر رواة السُّنة من رواية الحديث الموضوع، إلا مع التنبيه عليه وبيان أنه موضوع ليحذر منه قارئه أو سامعه، قال النووي: "تحرم روايته مع العلم به في أي معنى كان -سواء الأحكام والقصص والترغيب وغيرها- إلا مبيَّناً، أي مقروناً ببيان وضعه. وذلك لما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن سمرة بن جندب مرفوعاً:

* د. يوسف القرضاوي، ثقافة الداعية، ص٦٢، وما بعدها.



"من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين".

وقد تخصص لهذه الأحاديث مِن علماء الأمة مَن كشف عوارها، ووضح باطلها، وفضح عورات الوضاعين والمزيفين. وقد قيل للإمام عبدالله بن المبارك هذه الأحاديث الموضوعة! قال: "تعيش لها الجهابذة".

وقال الإمام أبو الفرج الجوزي: "لما لم يمكن أحد أن يُدخل في القرآن ما ليس منه، أخذ أقوام يزيدون في حديث رسول الله، ويضعون عليه ما لم يقل، فأنشأ الله علماء يذبون عن النقل، ويوضحون الصحيح، ويفضحون القبيح، وما يخلي الله منهم عصراً من الأعصار، غير أن هذا الضرب قد قلّ في هذا الزمان، فصار أعز من عَنقاء مُغرِب!

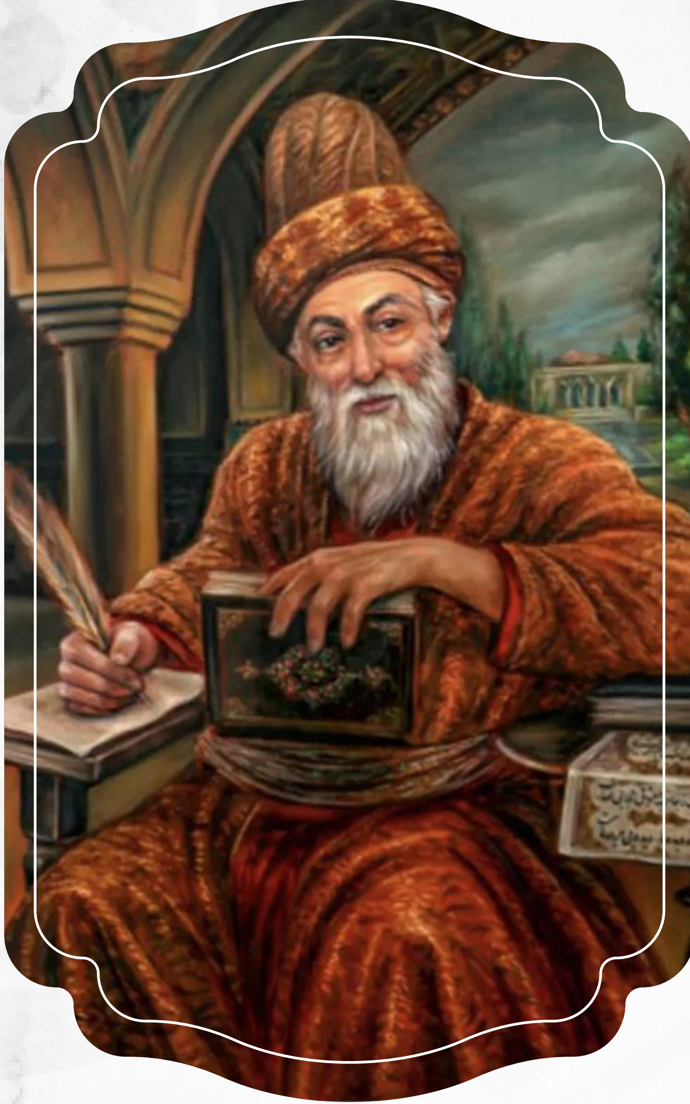
وقد كانوا إذا عُدوا قليلاً •• فقد صاروا أعز من القليل

هذا كلام ابن الجوزي وقد تُوفي في أواخر القرن السادس سنة ٥٩٧هـ فماذا يقول لو أنه عاش حتى شاهد عصرنا؟!

على أية حال لا ريب أن الأحاديث الواهية والموضوعة قد كدرت صفاء الثقافة الإسلامية، ودخلت كثيراً من فروعها، وتسللت إلى كثير من الكتب في مختلف الفنون، من التفسير والتصوف والرقائق، حتى كُتب الفقه والأحكام، وكثير من كُتب الحديث نفسها، ومن ثم دخلت على كثير من الدعاة -وبخاصة ذوو الطابع الشعبي منهم- آفة الاستشهاد بهذا النوع من الأحاديث، لما فيها من الغرائب والمبالغات التي تُرضي أذواق العوام، وتستل إعجابهم، وقلّ ما أسمع خطيباً من خطباء الجُمع، أو مدرساً يدرّس في مسجد، أو متحدّثاً يُحدّث في الإذاعة، إلا يروي حديثاً أو أكثر من هذه الأحاديث المردودة، بل كثيراً ما أقرأ فيما تكتبه بعض المجلات بل فيما تحويه بطون بعض الكتب العصرية، أحاديث تخالف العقول أو تباين المنقول أو تناقض الأصول، وإذا لم تكن الأحاديث موضوعة وجدتها واهية واهنة كبيت العنكبوت.

وكثيراً ما يستند هؤلاء إلى ما اشتُهر من أن الحديث الضعيف تجوز روايته في فضائل الأعمال والقصص والترغيب والترهيب ونحو ذلك.

ويجب أن ننبه هنا إلى عدة أمور:



الأول: أن هذا الرأي غير متفق عليه؛ فهناك من الأئمة المعتبرين من رفض الأخذ بالحديث الضعيف في كل مجال، سواء فضائل الأعمال وغيرها، وهو مذهب يحيى بن معين، وجماعة من الأئمة، والظاهر أنه مذهب البخاري الذي دقق أبلغ التدقيق في شرائط قبول الحديث، ومسلم الذي شنّع في مقدمة صحيحه على رواة الأحاديث الضعيفة والمنكرة وتركهم الأخبار الصحيحة، وهو الذي مال إليه القاضي أبو بكر بن العربي رأس المالكية في عصره، وأبو شامة رأس الشافعية في عصره أيضاً، وهو مذهب ابن حزم وغيره.

الثاني: أنه إذا وُجد في الصحيح والحسَن ما يتضمن المعنى المراد تعليمه أو التذكير به، فلا معنى للجوء للحديث الضعيف والواهي، فقد أغنى الله بالجيد عن الرديء، وقلّ ما يوجد معنى ديني أو خُلقي أو توجيهي لا يوجد في الصِحاح والحِسان ما يوفيه، ولكن قصور الهمم وضيق العطن وأخذ أي شيء يجيء في اليد دون معاناة البحث والمراجعة، جعل الناس يستسهلون رواية الضعيف بإطلاق.

الثالث: أن الحديث الضعيف لا يجوز أن يضاف إلى النبي ﷺ بصيغة الجزم ، قال في التقريب وشرحه: "وإذا أردت رواية الضعيف بغير إسناد فلا تقل قال رسول الله ﷺ كذا، وما أشبهه من صيغ



الجزم، بل قل رُوي عنه كذا، أو بلغنا عنه كذا، أو ورد عنه، أو جاء، أو نُقل عنه، وما أشبهه من صيغ التمريض؛ كروى بعضهم، فما اعتاده كثير من الخطباء والوعاظ بتصدير الأحاديث الضعيفة بقولهم "قال رسول الله" أمر مردود".

الرابع: أن العلماء الذين أجازوا العمل بالضعيف في مثل الترغيب والترهيب، لم يفتحوا الباب على مصراعيه لكل ضعيف، وإنما اشترطوا لذلك شروطاً ثلاثة:

1. ألا يكون الحديث شديد الضعف.
2. أن يندرج تحت أصل شرعي معمول به، ثابت بالقرآن أو السنة الصحيحة.
3. ألا يعتقد عند العمل به ثبوته عن النبي ﷺ، بل يعتقد الاحتياط.

ومن هذا يتبين أن أحداً من علماء الأمة لم يفتح الباب على مصراعيه لرواية الأحاديث الضعيفة بلا قيد ولا شرط، بل اشترطوا الشروط الثلاثة المذكورة، فضلاً عن الشرط الأساسي وهو أن يكون في فضائل الأعمال ونحوها، مما لا يترتب عليه حُكم شرعي.

وينبغي في رأيي أن يضاف إلى هذه الشروط شرطان آخران:

١ ألا يشتمل على مبالغات وتهويلات يمجُّها العقل أو الشرع أو اللغة

وقد نصّ أئمة الحديث أنفسهم أن الحديث الموضوع يُعرف بقرائن في الراوي أو المروي.

فمن القرائن في المروي، بل من جملة دلائل الوضع، أن يكون مخالفاً للعقل، بحيث لا يقبل التأويل، ويُلحق به ما يدفعه الحس والمشاهدة، أو يكون منافيا لدلالة الكتاب القطعية، أو السنة المتواترة، أو الإجماع القطعي -أما المعارضة مع إمكان الجمع فلا- أو يكون خبراً عن أمر جسيم تتوفر الدواعي على نقله بمحضر الجمع ثم لا ينقله منهم إلا واحد! ومنها: الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر الصغير، أو الوعيد العظيم على الأمر الحقير، وهذا كثير في أحاديث القصاص.

ومما يؤسف له أن كثيراً من المحدّثين لا يطبقون هذه القواعد عندما يروون في الترغيب والترهيب ونحوه، وربما كان لهم عذر من طبيعة عصرهم، أما عقلية عصرنا فلا تقبل المبالغات، ولا تهضمها، وربما تتهم الدين ذاته إذا ألقي عليها مثل هذه الأحاديث.

ومما تمجه اللغة: كثير من الأحاديث التي رواها بعض القصاص، مثل دراج أبي السمح في تفسير كلمات من القرآن الكريم لها مدلولاتها الواضحة في اللغة، فروى لها تفسيرات هي غاية في الغرابة، والبعد عن المدلول اللغوي.

فمن حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعا: "ويلٌ: وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره". رواه أحمد والترمذي بنحوه إلا أنه قال "سبعين خريفاً"، مع أن كلمة "ويل" وعيد بالهلاك معروفة قبل الإسلام وبعده.

ومثل ذلك ما جاء عند الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود من تفسير "الغي" في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، قال: وادٍ في جهنم. وفي رواية: " نهر في جهنم".



وكذلك ما رواه البيهقي وغيره عن أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢]، قال: وادٍ من قيح ودم.

وأغرب منه ما رواه ابن أبي الدنيا عن شفي بن مانع، أن في جهنم وادياً يُدعى "أثاماً" فيه حيات وعقارب، إلى آخره. يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

وقد ذكر هذه الأحاديث الحافظ المنذري في كتابه "الترغيب والترهيب".



٢ ألا تعارض دليلاً شرعياً آخر أقوى منها

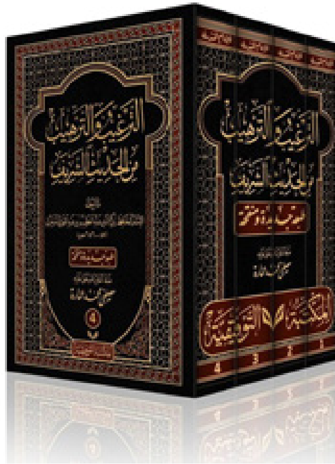
مثال ذلك الأحاديث الضعيفة التي رُويت في شأن عبد الرحمن بن عوف أنه يدخل الجنة حبواً بسبب غناه.

فقد يقال إن مثل هذه الأحاديث يندرج تحت أصل التحذير من فتنة المال وطغيان الغِنى، ولكن يجب أن نذكر أنها تعارض أحاديث صحيحة جعلت عبد الرحمن بن عوف من العشرة المبشرين بالجنة، فضلاً عن وقائع ثابتة وروايات مستفيضة تثبت أنه كان من خيار المسلمين، وكبار المتقين، وأنه يمثل الغنيّ الشاكر حقاً، ولهذا تُوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ، وجعله عمر في الستة أصحاب الشورى، وجعل لصوته ميزةً ترجيحية على غيره عند تساوي الأصوات.

ولهذا قال الحافظ المنذري في "الترغيب والترهيب": وقد ورد من غير ما وجه ومن حديث جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ، "أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يدخل الجنة حبواً لكثرة ماله"، ولا يسلم أجودها من مقال ولا يبلغ منها شيء بانفراده درجة الحسن، ولقد كان ماله بالصّفة التي ذكر رسول الله ﷺ: "نعم المال الصالح للرجل الصالح"، فأنّى تنقص درجاته في الآخرة، أو يقصر به دون غيره من أغنياء هذه الأمة؟ فإنه لم يرد هذا في حق غيره، إنما صح سبق فقراء هذه الأمة أغنياءها على الإطلاق والله أعلم[١].

من أين تتسرب الأحاديث الضعيفة إلى الدعاة؟

وإنما تتسرب الأحاديث الموضوعة الساقطة إلى الدعاة، لاعتمادهم على كتب لا تعنى بانتقاء الأحاديث التي توردها وغربلتها، وربما لا تعزوها مجرد عزو إلى من خرّجها من أصحاب الكتب الحديثية، مع أن هذا العزو لو حصل لا يكفي في معظم الكتب، حيث لا يلتزم مؤلفوها الاقتصار على الصحيح أو الحسن.

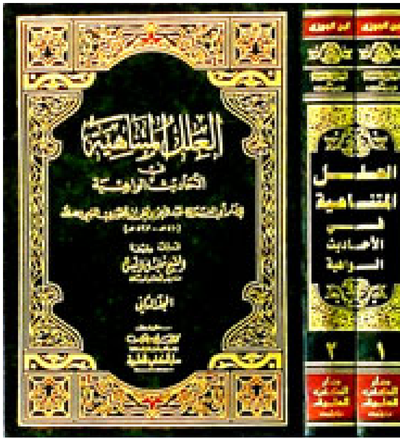


١. الترغيب والترهيب، جـ٥ صـ ٣٠٨، ط: السعادة.



فنرى الأكثرين ينقلون من كتب الوعظ والتصوف والتفسير ونحوها، ظانين أن هذا يعفيهم من البحث في درجاتها، والاطمئنان إليها، بأن تكون على الأقل في أدنى درجات القبول، أما كتب الوعظ والرقائق فأنصح لقارئها ألا يعتمد عليها في نقل الحديث، لأنها تجمع السمين والغث، والجديد والرث، ولا تدقق فيما تروي من أحاديث أو آثار، أو قصص وأخبار، بدعوى أنه لا يتعلق بها حكم شرعي.

حتى حُفّاظ الحديث الناقدون إذا ألفّوا في الوعظ وما يتعلق به، ترخصوا وتساهلوا إلى حد التفريط فيما يروونه في بعض الأحيان.



هكذا وجدنا الإمام ابن الجوزي صاحب "الموضوعات" و"العلل المتناهية"، وغيرها يرخي لنفسه العنان في كتاب "ذم الهوى"، وغلبت فيه عاطفة الواعظ على عقلية الناقد الحافظ، وكذلك الحافظ الذهبي رأيناه يتساهل في كتابه "الكبائر".

ونصيحتي لمن أراد أن يأخذ الحديث من كتب التفسير أن يرجع إلى ابن كثير، فهو حافظ متقن ناقد، يُعنى بتخريج ما يورده والتعقيب عليه غالباً بالتوثيق أو التضعيف.

ومن أخذ عن "إحياء" الغزالي عليه أن يرجع إلى تخريج الحافظ العراقي لأحاديثه، وهو مطبوع مع الإحياء، ومراجعته ضرورية لكل قارئ للكتاب، أو ناقل عنه بعض ما أورد من حديث، وبذلك يعرف قيمة ما يأخذ من أحاديث.

ومن أخذ من "الترغيب والترهيب" للمنذري يجب عليه أن يقرأ مقدمته التي يبين فيها أنواع الأحاديث التي يذكرها، والمصطلحات التي يستخدمها، لبيان درجاتها قوةً وضعفاً، حتى لا ينقل الضعيف شديد الضعف، وهو يحسب أنه حسن أو صحيح لجهله باصطلاح صاحب الكتاب.

ومن أخذ عن "الجامع الصغير" للسيوطي أنصحه أن يراجع شرحه الكبير "فيض القدير" أو المختصر "التيسير" للمناوي، ولا يكتفي بإشارات الجامع: (ص) للصحيح، و(ح) للحسن، و(ض) للضعيف، لكثرة ما أصابها من التحريف على يد النساخ، أو الطابعين، ولأن للشارح تعقيبات واستدراكات على صاحب الجامع ينبغي أن يُنتفع بها.

وقد قام العلامة محمد ناصر الألباني بفصل صحيح "الجامع الصغير" وزيادته "الفتح الكبير" عن ضعيفه، وصدر كل منهما في عدة أجزاء، نخدم بذلك الكتّاب وطالبي الحديث أيما خدمة.

ومن كُتب السُّنة التي ينبغي الاستفادة بها في هذا المقام، ما أُلف لتخريج أحاديث بعض الكتب المشهورة في فنونها ممن لا يلزم أصحابها تخريج ما يروونه، سواء كانت كتب تفسير، مثل تخريج أحاديث "الكشاف" للحافظ ابن حجر، أو كتب تصوف مثل "تخريج أحاديث الإحياء" للحافظ العراقي، أو كتب فقه مثل تخريج أحاديث "الهداية" للحافظ الزيلعي، وأحاديث "الأخبار" للعلامة قاسم، وأحاديث شرح الرافعي الكبير لابن حجر المسمى "تلخيص الحبير".

ومن كُتب السُّنة المهمة ما يتعلق بالأحاديث الشائعة المشتهرة على ألسن الناس، وبيان مَن أخرجها، ودرجتها من الصحة أو الحُسن أو الضَّعف أو الوضع، مثل "المقاصد الحسنة" للسخاوي، "وتمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث" لابن الديبع الشيباني، "وكشف الخفاء ومزيل الإلباس فيما اشتُهر من الحديث على ألسنة الناس" للعجلوني، وهو أجمعها وأوفاها، وهو مرتب على حروف المعجم.

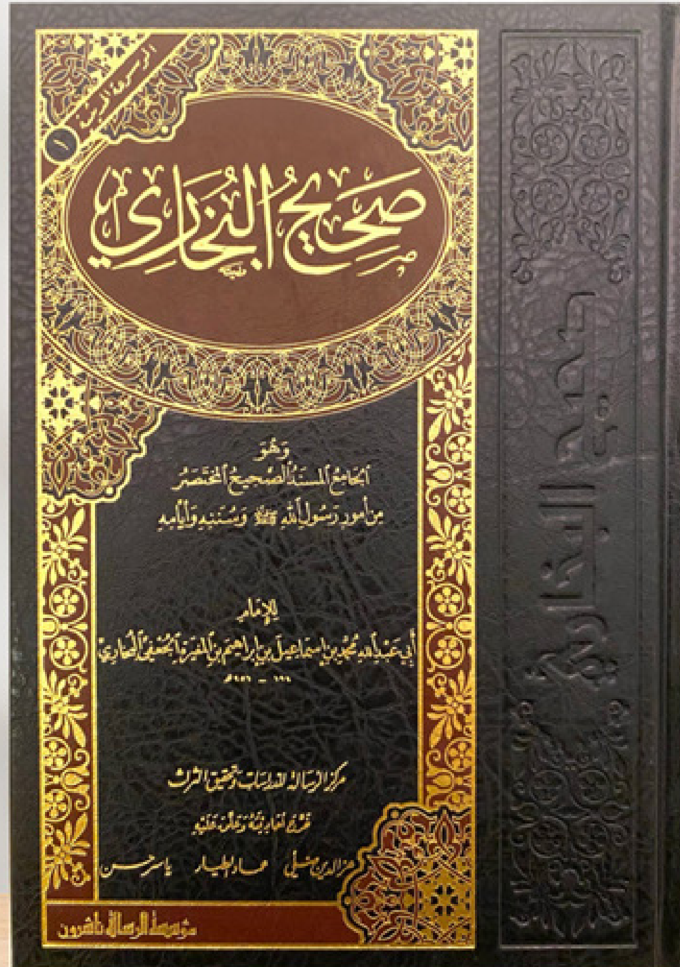
ومن الكتب التي لا يُستغنى عنها كتب "الموضوعات" أي الأحاديث المختلقة المفتراة على رسول الله ﷺ لابن الجوزي، "واللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة" للسيوطي، "وتحذير الخواص من أكاذيب القُصاص" له، "والمنار المنيف في الصحيح والضعيف" لابن القيم، "والموضوعات الكبرى" للشيخ علي القاري، "والموضوعات الصغرى" له أيضاً، وهو المسمى "المصنوع في معرفة الموضوع"، و"تنزيه الشريعة المرفوعة من الأحاديث الشنيعة الموضوعة" لابن عراق، "والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة" للشوكاني، "والأسرار المرفوعة" للكنوي، و"الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها في الأمة" للألباني.

دفاع عن صحيح البخاري



د. يوسف القرضاوي*
رحمه الله

لقد فوجِئت وفوجئ كل مسلم، بل كل منصف، بما نشرته مجلة «العربي» في عددها الأخير (شباط ٦٦) عن الحديث النبوي في باب «أنت تسأل ونحن نجيب» الذي يشرف عليه السيد عبد الوارث كبير، ودهش القراء لهذه الحملة المنكرة بالعناوين البارزة وبالبنط العريض، على أعظم كتاب في الإسلام بعد القرآن «الجامع الصحيح للبخاري» الذي تلقته الأمة -منذ اثني عشر قرناً بالقبول والرضا جيلاً بعد جيل، الخاصة منها والعامة حتى إن الناس إذا أرادوا أن يهونوا من خطأ وقع فيه إنسان قالوا: «إنه لم يخطئ في البخاري!»».



*فتاوى معاصرة، ط٥ (الكويت، دار القلم، ١٩٩٠م)، ٩١/١ وما بعدها (باختصار).

ولكن المجلة -ويا للهول- نشرت عنواناً ضخماً تقول فيه: «صحيح البخاري ليس كله صحيحاً- وليست هذه الأحاديث مفتراة بل منكرة».

لقد وقف شعر رأسي، واقشعر جلدي، حين وقعت عيني على هذه العناوين المثيرة التي تحدت بها المجلة مشاعر المسلمين، وصدمت أفكارهم بما يشبه القذائف المدمرة وما لقيت أحداً قرأ هذا الشيء أو سمع به إلا أنكره واستبشعه، وحوقل واسترجع، وعجب الناس وعجبت معهم كيف يصدر هذا المنكر من مجلة عربية في بلد عربي مسلم، تُطبع بمال المسلمين، ويُحررها مسلمون أيضاً، كما يُفهم ذلك من أسمائهم!

والعجب أن كاتب ذلك العنوان المثير سلك للتدليل عليه منهجاً غير مستقيم، منهجاً لا يرضى عنه العلم، ولا يرضى عنه الخلق، ولا يرضى عنه الدين. فقد مهد للحملة على صحيح البخاري بذكر جملة من الأحاديث الموضوعة أو التي لا أصل لها بالإجماع، مع عدم الحاجة إلى ذكر هذه الأحاديث، فقد وُئدت في مهدها بفضل جهود أئمة الحديث الذين أفنوا أعمارهم في سبيل خدمة السنة النبوية، وتنقيتها من زيف المزيفين، وانتحال المبطلين، وقد قيل للإمام عبد الله بن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعة! فقال: «تعيش لها الجهابذة» وصدق عبدالله فقد عاشوا لها وماتت هي ولله الحمد، وحفظ الله دينه وصدق وعده: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولا ريب أن حفظ الذكر «القرآن» إنما يتم بحفظ ما يبينه ويشرحه، وهي السُّنة التي خاطب الله صاحبها بقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].



أجل. لم يكن من الجد أن يحشر الأستاذ مجموعة من الأباطيل المكشوفة مثل: «عليكم بالعدس فإنه قدس على لسان سبعين نبياً» ونحوه، فإن أصل الموضوع الذي جرت فيه المناقشة هو تنقية كتب التفسير والحديث مما فيها من شوائب وإسرائيليات فما لهذه الكتب ومثل «اتخذوا الحمام المقاصيص..»... إلخ؟

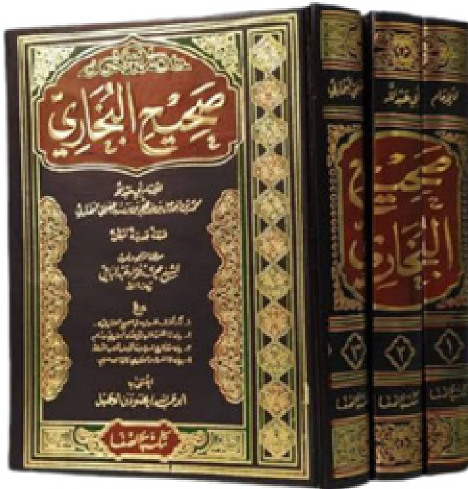
إن إيراد ذلك في مثل هذا المقام يوهم القراء أن كتب الحديث روت هذه الأباطيل أو اعتمدتها، أو سكت علماء الحديث عن بيان درجتها، وهو إيهام غير صحيح قطعاً. وهو يدل على أن الغرض من وراء هذه الحملة إنما هو التشويش والتشكيك في الإسلام ومصادره وأئمته، بالجد والهزل والهدم بكل معول تناله اليد.

وأغرب من ذلك أن الكاتب ذكر هذه الأحاديث الباطلة المفضوحة بلا شك، ثم قال بالحرف الواحد -ويا لهول ما قال-: «ليس هذا فقط، فإن في صحيح البخاري وغيره من كتب الحديث ما هو أدهى من ذلك وأمر، في مخالفة أمر ما أمر الله به عباده وأنزله في محكم كتابه».

يا لله! أصحيح البخاري وكتب الحديث فيها أدهى وأمر من الأحاديث المكذوبة المفتراة التي ذكرها الكاتب! أما والله لو صح ذلك لكان الأستاذ أعظم المكتشفين في العصر الحديث، فقد أزاح الستار عن حقائق غابت عن الأمة الإسلامية كلها اثنى عشر قرناً، حتى أتى هو آخر الزمان بما لم تستطعه الأوائل!

تُرى ما هذه الأحاديث التي رواها البخاري وهي عند الكاتب أدهى وأمر مما ذكر من الأكاذيب والأباطيل؟

لقد تمخض الجمل ولم يلد شيئاً، لم يلد فأراً ولا ضفدعة! وذكر الكاتب حديثين رواهما البخاري (كما يقول) زعمهما مخالفين لكتاب الله. وينسب إلى الجامع الصحيح اشتماله على أحاديث مناقضة لما أنزل الله في محكم كتابه. ويحكم على هذا الحديث المتفق على صحته بأنه منكر ومفترى.





يا عجباً! كأن الكاتب الذي تربع على منصة الإفتاء ظلماً وزوراً يظن أن البخاري وغيره من أئمة السنة كانوا متسولين يأخذون الحديث عن كل من هب ودب، فكل من قال لهم: قال رسول الله ﷺ.. قالوا له: صدقت هات ما عندك. وفرحوا به كما يفرح الصبي بقطعة الحلوى!



لا يا مفتي «العربي» لقد كانوا لا يقبلون قولاً حتى يعلموا أصله ومصدره، ولهذا اشترطوا الإسناد الذي تفردت به هذه الأمة عن غيرها من الأمم.

قال ابن سيرين: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم».

وقال غيره: طالب علم بلا إسناد كحاطب بليلٍ.

ونظر الشافعي في تفسير اشتمل على قصص وعبر، فقال: يا له من علم لو كان له إسناد!

ولم يكونوا يقبلون أي إسناد يُذكر، بل يضعون كل راوٍ من رواة السند على مشرحة التحليل، يسألون عنه.. عن عقله ودينه، وخُلقه وسيرته، وعن شيوخه وتلامذته، فمن اشتبهوا فيه أسقطوه، وردوا حديثه، ومن قامت الدلائل على صدقه وحفظه وعدالته وضبطه رووا عنه وقبلوه، وقد كان من ثمرات هذه البحوث المتشعبة المستفيضة علمان جليلان من علوم السنة هما: علم رجال الحديث، وعلم الجرح والتعديل.

وكانوا يجوبون الآفاق، ويذرعون الأرض، طلباً للحديث ممن سمعه بأذنيه، قال سعيد بن المسيب: «إنا كنا نسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد».

وسأل رجل الشعبي عن مسألة فأفتاه فيها ثم قال: «خذها بغير شيء وإن كنا نسير فيما دونها من الكوفة إلى المدينة».

ولنأخذ لذلك مثلاً، حديث عائشة «كان النبي يأمرني فأتزر، فيباشرني وأنا حائض» وهو الحديث الذي ردّه الصحفي المفتي، وزعم أنه منكَر ومفترَى (ونعوذ بالله من ذلك)، إن سند هذا الحديث -عند من له أدنى ذوق بهذا العلم- نير كضوء الشمس. فقد رواه البخاري عن شيخه قبيصة بن عقبة، قال: حدثنا سفيان، عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة، ورجال هذا السند كلهم كوفيون، تلقى بعضهم عن بعض، خلفاً عن سلف، فهم تلاميذ المدرسة الكوفية التي أسسها الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود، وخرّجت أساطين العلم، وأعلام الهدى في الحديث والفقه، وفي العلم والسلوك، أمثال الأسود وعلقمة وإبراهيم وحماد بن سليمان وسفيان الثوري، وأبي حنيفة النعمان وغيرهم من عظماء الإسلام.

ورواة هذا الحديث الشريف: سفيان الثوري ومنصور بن المعتمر، وإبراهيم النخعي والأسود النخعي، كل واحد منهم جبل من جبال العلم، وبحر من بحور الرواية وإمام من أئمة الدين، لا ترقى ذرة من شك إلى أمانتهم أو علمهم أو وعيهم، حتى يأتي مفتي «العربي» في آخر الزمان فيتهمهم بخيانة الأمة وتضليل أجيالها وتحريف دينها، والكذب على رسولها باختراع الأحاديث المفتراة المنكرة (سبحانك هذا بهتان عظيم).



ومع هذا لم يروِ البخاري هذا الحديث بهذا السند وحده، وعن هذا الطريق فحسب -وإن فيه لغناء وكفاية- بل روى معناه عن عائشة بأكثر من طريق.

ولم يُروَ ذلك عن عائشة وحدها من نساء النبي ﷺ بل روى البخاري ذلك عن ميمونة أيضاً، وليس البخاري وحده هو الذي روى حديثي عائشة وميمونة رضي الله عنهما، بل خرجتهما جميع كتب السنة ودواوينها المتقدمة منها والمتأخرة لإجماع أهل العلم على صحتهما وتلقيهما بالقبول.

ولعمري لئن كان مثل حديث عائشة -بسنده الذي ذكرناه- منكراً ومفترى كما يزعم هذا الزاعم الجريء، لكان هذا الدين باطلاً، وكانت السُّنة كلها وهماً، وكان تاريخ هذه الأمة زوراً، وكان تراث هذه الأمة خرافة كبيرة، وكان أئمة هذا الدين وهذه الأمة أكبر دجاجلة عرفهم تاريخ الأديان والشعوب!

ولقد زعم الكاتب في مستهل كلامه أنه لا يتهم أبا هريرة ولا البخاري بصنع الأحاديث. والحق أنه لم يتهمهما وحدهما، بل اتهم معهما سائر علماء الإسلام وحملة رسالته، في القرون الأولى التي هي خير القرون، واتهم الأمة كلها بالغباوة والغفلة والجهل، حيث تقبلت هذه الأحاديث بضعة عشر قرناً بقبول حسن. وأثنت على رواتها، وخلعت عليهم وصف الإمامة في الدين، حتى جاء الكاتب النحرير، فوصفهم بما يستحي من ذكره.

لقد سُئل القاضي أبو يوسف: أتقبل شهادة رجل يسب السلف الصالح؟ فقال: لو عرفت رجلاً يسب جيرانه ما قبلت شهادته، فكيف بمن يسب أفاضل الأمة؟

أقول: فكيف بمن يسب الأمة كلها، ليأتي على دينها من القواعد، لتقر أعين المبشرين والمستشرقين والشيوعيين؟! اللهم لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا.

ولا يفوتني أن أسجل هنا على الكاتب المتهجم أمراً معيباً حقاً، فقد قال في فاتحة حديثه: «لست أقول عن حديث ما، إنه ضعيف أو موضوع، لمجرد أنه لا يتفق مع العقل والمنطق فحسب بل لأن ذلك رأي كثير من الأئمة والفقهاء القدماء والمحدثين على السواء، أمثال ابن تيمية، والقسطلاني، والذهبي، والبيهقي، والطبراني، والدارقطني، والهيثمي، والعراقي، والسيوطي، والعسقلاني، وغيرهم».

ثم طعن في أحاديث متفق على قبولها، مجمع على صحتها، ولم يطعن في ثبوتها عالم قط من هؤلاء الذين ذكرهم، ولا غيرهم، فليت شعري لمَ أوهم الأستاذ بذكر أسماء هؤلاء الأعلام؟ الذين يبدو -من ترتيبه لهم- أنه لم يعرفهم ولم يقرأ آثارهم، ولم يرجع إليها فيما انتقده على البخاري وزعم أنه مفترى بل منكر.

(جعل الكاتب المنكِر أشد من المفتري، وليس الأمر كذلك لغةً ولا اصطلاحاً فليس هناك أسوأ من المفتري).

أما حديث أبي طلحة الأنصاري وأكله البرَد في الصوم فلم يروه البخاري ولا مسلم ولا أحد من الكتب الستة، ولهذا لا نطيل بالرد عليه، والجزء الموقوف فيه على أبي طلحة صحيح من حيث سنده، ولكن لا حجة فيه، لأنه اجتهاد صحابي انفرد به في فهم النص وخالفه سائر الصحابة، فلا عبرة به، ولهذا مات في مهده، ولم يقل به أحد طوال القرون الماضية. وأما الجزء المرفوع إلى النبي ﷺ فغير صحيح. كما قرره علماء الحديث.



ولو كان هذا الصحفي يقدر أمانة القلم الذي في يمينه، ويحترم العقول التي في رؤوس الناس، ما جشم نفسه ذكر هذا الحديث، فإن ميدان المعركة بينه وبين الأخ العالم العراقي الذي اتخذ لنفسه لقب «جابر عثرات الكرام» (وكان أولى أن يسمى: كاشف سوءات اللئام) هو: صحيحا البخاري ومسلم وغيرهما من الصحاح، فليس لإيراد هذا الحديث معنى في هذا المقام إلا الادعاء والتطاول، والتكثر بالباطل، والتمويه الذي لا تنفق سوقه إلا عند البسطاء وضعاف العقول.

وبعد: فإن الحملة على سنة رسول الله ﷺ ليست بنت اليوم، فإن وراءها جهات ومؤسسات تغذيها وتمدها، ولم يزل المبشرون والمستشرقون والشيوعيون يقودون المعركة ضدها، ويرمون لها بالوقود الدائم لتظل مستعرة الأوار، وليس من الضروري أن يظهروا بأنفسهم على المسرح، فقد يوغر ظهورهم الصدور، ويثير الشكوك، ففي تلامذتهم -المخدوعين منهم والخادعين- الكفاية كل الكفاية. وما أكثر الذين تحركهم مؤسسات التبشير والاستشراق والإلحاد الأحمر، ليحطبوا في حَبْلِهم وهم لا يشعرون، بل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وما أكثر المأجورين الذين يشترون بدينهم ثمناً قليلاً! أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار.

ألا وإن هذه الحملات لا تزيدنا إلا استمساكاً بالحق، وثباتاً عليه، واعتصاماً بسنة الرسول العظيم التي دونها لا يُفهم القرآن ولا تستبين معالم الدين وحدوده، وقد قال ﷺ: «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي».



والذي نأسف له حقاً أن تكون الحملة اليوم من منبر شبه رسمي لدولة عربية مسلمة هي الكويت، فلعل المسئولين فيها ينتبهون إلى هذا الخطر الذي يخلق البلبلة والحيرة، ويجر إلى الاضطراب والصراع، فالخراب والدمار، وبالله نستعيذ ونعتصم وهو تعالى من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المجترئون على الحديث النبوي

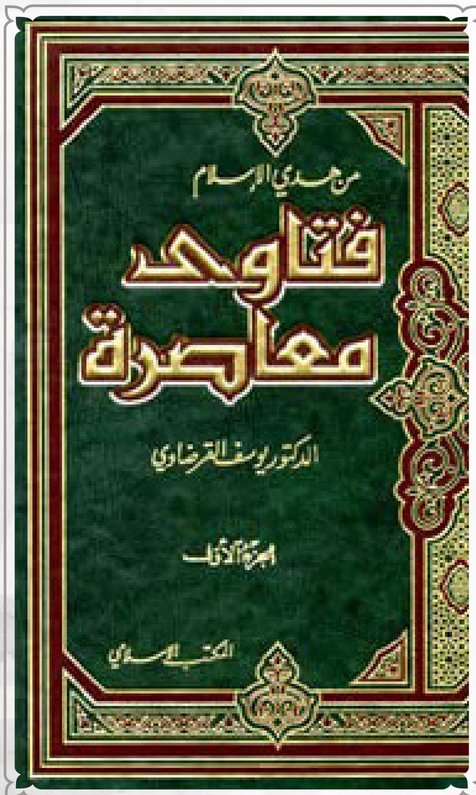

د. يوسف القرضاوي*
رحمه الله

س: تتعرض السُّنة المطهرة، وبعبارة أخرى يتعرض الحديث النبوي الشريف ما بين آونة وأخرى لهجمات شرسة ممن يدعون العلم والتجديد، والفكر الحر، وغير ذلك من الأوصاف التي يزكون بها أنفسهم، ويزفونها لدى القراء، الذين لا يعرفون حقيقتهم، وقد ينطلي على بعضهم تلك الدعاوى الزائفة. ولا زلنا نذكر ردكم على من زعم يوماً في مجلة عربية سيارة أن في صحيح البخاري أحاديث موضوعة ومفتراة[1].

* د. يوسف القرضاوي، فتاوى معاصرة، الجزء الثاني، الكويت، ص٢٩ وما بعدها، دار القلم، ١٩٩٢م.
١. انظر: الرد المشار إليه في الجزء الأول من فتاوي معاصرة، بعنوان: «دفاع عن صحيح البخارى».

واليوم نقرأ في بعض المجلات لأناس من هؤلاء يسودون صفحاتها بالطعن في الحديث ورجاله، وفي الفقه وأئمته، وفي الأمة وتاريخها، وفي السلف الصالح وأمجاده،ولا يجد هؤلاء من يرد عليهم، ويكشف عوارهم، ويبين بطلان مزاعمهم، ولابد أنكم قرأتم ما كتبه أحد هؤلاء أو بعضه، ولابد أنه أغضبكم كما أغضبنا، وهو غضب للحق لا لشيء آخر. فهل نطمع في كلمة منكم تشفي الصدور، وتسكت هؤلاء المتطاولين بالباطل، المستكبرين في الأرض بغير الحق، الذين يفترون على الله وعلى رسوله وعلى علماء الأمة الكذب وهم يعلمون. جعل الله من لسانكم وقلمكم سيفاً ينصر الحق ويمحق الباطل، وأيدكم بنصره في مقاومة المبطلين المغرورين، آمين.

ج: أود أن أطمئن الأخ الكريم أن السنة النبوية والحديث الشريف بخير إن شاء، راسخ أشم، ومهما علا ضجيج الباطل في فترة من الفترات، فإنه عن قريب سيسكت. ولن يبقى إلا صوت الحق، وصدق الله إذ يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] وقد رد الإمام الشافعي على أمثال هؤلاء، ورد ابن قتيبة على آخرين، ولا زلنا نراهم فى عصرنا يختفون كالخفافيش ثم يظهرون، لكن لم أرَ مَن تبجح وتطاول كهذا الذي أشار إليه الأخ السائل وأمثاله من الجهال الذين جمعوا بين الجهل الفاضح والإفك الواضح.



لقد رأينا من هؤلاء المجترئين -الذين يقتحمون حِمى العلم، وهم ليسوا من أهله- من يزعم أن الأئمة والفقهاء كانوا إذا أرادوا أن يجيزوا أمراً منعته الشريعة، أو يلغوا أمراً أوجبته الشريعة، اخترعوا له حديثاً! فيالله من هذا الاجتراء، بل هذا الافتراء! أيمكن أن يُنسب لمثل أبي حنيفة أو مالك، أو الشافعي، أو الثوري أو الليث بن سعد أو الأوزاعي، أو ابن حنبل، أو داود، وأصحابهم أو شيوخهم، وشيوخ شيوخهم من أمثال سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن والزهري، وعلقمة، والأسود، ومسروق، وغيرهم من جبال العلم، وأئمة الورع، وقمم التقوى، أن يفتروا على رسول الله ﷺ ويكذبوا عليه متعمدين، ويخترعوا أحاديث من عند أنفسهم، ليحللوا بها ويحرموا ما شاءت لهم أهواؤهم؟!

وفي مقام آخر يقول هذا المدعي المغرور[٢]: "لقد كان الناس في الماضي إن أرادوا تطوير حكم من أحكام الشريعة على ضوء الأحوال المستجدة للمجتمع الإسلامي يخترعون الأحاديث، ثم ينسبونها إلى النبي ﷺ تقضي بما يريدون تحقيقه". "غير أنه لم يعد بوسع الحكومات اليوم أن توحي إلى أحد فقهائها أن يخترع حديثاً عن إسحاق بن نصر عن يحي بن آدم عن ابن أبي زائدة عن أبيه عن الأسود بن يزيد عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: لا ينكح أحدكم امرأة على امرأته". هذا ما قاله هذا المتعالم المتفاصح المنتفخ بالباطل مفترياً على فقهاء الأمة، متقولاً على تاريخ العلم، وعلى تراث الإسلام.

فلم يكن في الأمة فقيه يستحق كلمة فقيه، يحل لنفسه أو لغيره أن يكذب على رسول الله ﷺ وهو الذي قال: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[٣]. والذين استباحوا وضع الأحاديث تقرباً إلى الله تعالى لم يكونوا من الفقهاء، بل من جهلة المتصوفة وأمثالهم، ولم يكن ما وضعه هؤلاء في الأحكام، وبيان الحلال والحرام، بل في الترغيب والترهيب والقصص والمواعظ ونحو ذلك. ومع ذلك وقف لهم علماء الأمة وكشفوا زيفهم وردوا باطلهم، وبيّنوا أن دين الله قد أكمله الله بالحق، فلا يحتاج إلى التزيد بالباطل.



قيل للإمام عبد الله بن المبارك: "هذه الأحاديث الموضوعة؟" فقال: "تعيش لها الجهابذة".

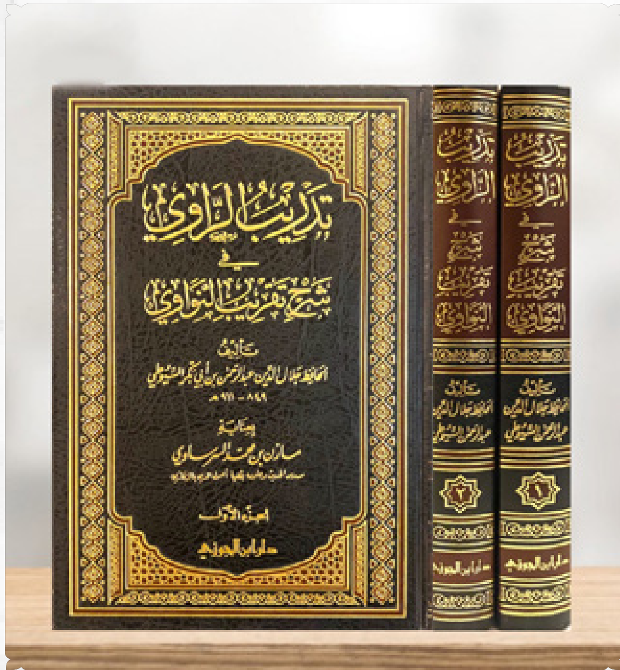
ولنفترض أن وضاعاً وضع حديثاً كالذي ذكره صاحبنا، ونقل له سنداً عن أبي موسى الأشعري أو ابن مسعود أو ابن عمر أو أبي هريرة أو غيرهم، وجاء يحدث به، فهل يظن صاحبنا

٢. المصور: ٩ / ١٢ / ١٩٨٣م والكاتب هو حسين أحمد أمين.

٣. رواه جمع غفير من الصحابة عن رسول الله ﷺ ولذا اتفق علماء الحديث على أنه متواتر.



أن الفقهاء والمحدثين كانوا يقبلون أي حديث من عرض الطريق يحدّث به رجل مجهول لا يُعرف مَن شيوخه الذين تلقى عنهم، ولا من تلاميذه الذين أخذوا عنه؟ إن الذي يقول هذا الكلام السخيف، وسمح له من سمح أن ينشر في مجلات سيارة يجهل كل الجهل الأصول والقواعد والموازين العلمية المتينة التي أرساها علماء الأمة في هذا المجال وتوارثها الخلف عن السلف. لقد قعد القوم قواعد، وأصلوا أصولاً أصبحت علماً شامخ الذرا، بل علوماً جمة هي علوم الحديث.



ولقد عد منها ابن الصلاح في "مقدمته" المشهورة ٦٥ خمسة وستين علماً أو نوعاً، ونقل ذلك عنه مَن بعده كالنووي والعراقي وابن حجر وزاد السيوطي في شرحه للتقريب للنووي أنواعاً أخرى فأوصلها إلى ٩٣ ثلاثة وتسعين نوعاً[٤].

كانت أولى هذه القواعد: ألا يقبلوا حديثاً بلا إسناد، فلا يُقبل من أحد أن يقول قال رسول الله ﷺ، إلا أن يكون صحابياً ممن رآه ﷺ وسمع منه[٥]. وهؤلاء الصحابة عدول، عدّلهم الله تعالى في كتابه، وأثنى عليهم في أكثر من سورة من قرآنه كما في آخر سورة الفتح، وخص بالثناء المهاجرين والأنصار، وأهل بيعة الرضوان[٦]، كما عدّلهم رسول الله ﷺ

٤. انظر: تدريب الراوى في شرح تقريب النواوي للسيوطي، بتحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ٢ / ٣٨٦ وما بعدها، ط: ثانية، سنة ١٣٨٥هـ – ١٩٦٦م، مطبعة السعادة بالقاهرة.

٥. انظر في تعريف الصحابي: الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، ص٤٩ – ٥٢، ط: حيدر آباد، والنوع التاسع والثلاثين من مقدمة ابن الصلاح وفروعها.

٦. انظر: الآية ٢٩ من سورة الفتح، والآية ١٠٠، من سورة التوبة، والآيتين ٨ و٩ من سورة الحشر، والآيتين ٥٨ و ٥٩ من سورة الحج.



في جملة من أحاديثه[٧]، وقد شهدت سيرتهم بعدالتهم، وشهد لهم التاريخ أنهم الذين حفظوا القرآن والسنة ونقلوهما إلى الأمة، ونشروا دين الله في أقطار الأرض، وكانوا أفضل جيل عرفته البشرية إلى اليوم. ولم يحفظ التاريخ لأصحاب نبي من مواقف البذل، وروائع البطولة، ومكارم الأخلاق ومقامات التقوى، ما حفظ لأصحاب محمد ﷺ[٨].

أما مَن دون الصحابة: فلابد أن يسند الحديث إلى صحابي ويبين عمن تلقاه من الرواة حتى يصل إلى الصحابي. ولابد أن تتصل حلقات الرواة بحيث يكون كل منهم قد أخذ مباشرة عمن روى عنه، ولا تقبل هذه السلسلة من الرواة إذا سقطت منها حلقة واحدة في أولها أو وسطها أو آخرها. وهذه السلسلة المتصلة الحلقات من الرواة هي التي سماها علماء المسلمين: الإسناد، أو السند، وشددوا فيه كل التشديد منذ عهد مبكر وبالتحديد: منذ ذر قرن الفتنة في عهد عثمان رضي الله عنه وبرزت الأهواء والتحزبات.

وفي هذا يقول التابعي[٩] الجليل الفقيه المحدث الإمام محمد بن سيرين: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم. فيُنظر إلى أهل السنة فيُؤخذ عنهم ويُنظر إلى أهل البدع فيُجتنب حديثهم"[١٠].

---

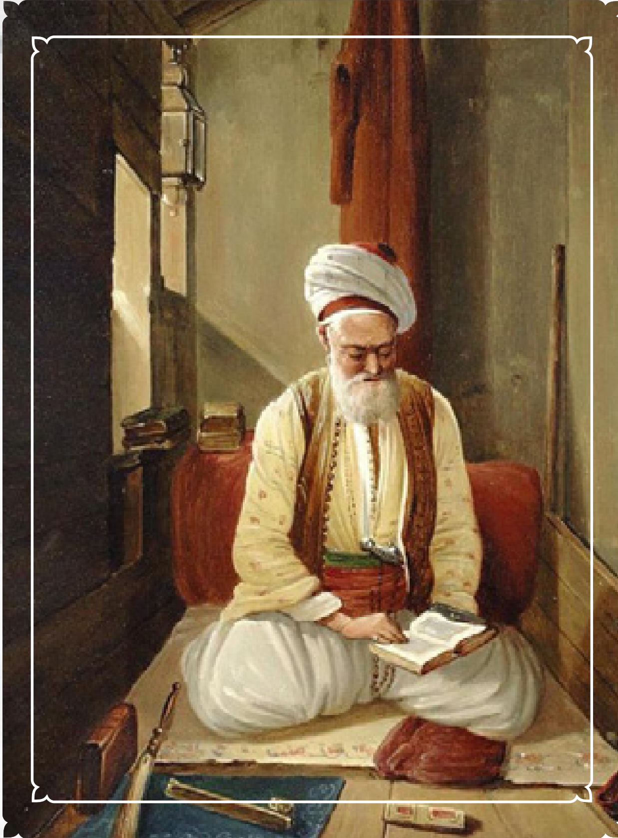
٧. وحسبنا منها الحديث المشهور: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...» الحديث متفق عليه بألفاظ متقاربة عن ابن مسعود وعمران بن حصين، ورواه مسلم عن عائشة، وأبي هريرة والترمذي والحاكم عن عمران بن حصين والطبراني والحاكم عن جعدة بن هبيرة، ولذا قال السيوطي: يشبه أن الحديث متواتر. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ٣ / ٤٧٨، طبعة دار المعرفة- بيروت، ١٣٩١هـ -١٩٧٢م، وكذا صحيح الجامع الصغير وزيادته، تحقيق محمد ناصر الألباني، ج٣، الأحاديث (٣٢٨٣، ٣٢٨٧، ٣٢٨٩، ٣٢٩٠).

٨. يراجع في ذلك الكتب التي ألفت في الصحابة خاصة، مثل الاستيعاب لابن عبد البر (ت: ٤٣٦هـ)، وأسد الغابة، لابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد (ت: ٦٣هـ)، والإصابة، للحافظ ابن حجر (ت:٨٥٢هـ)، وأيضاً طبقات ابن سعد (ت:٢٣٠ هـ)، وانظر تعديل الصحابة في: الكفاية للخطيب، ص٤٦ - ٤٩، وما ألف في مناقبهم، مثل الرياض النضرة فى مناقب العشرة للمحب الطبري، وما ألف حديثاً في ذلك مثل: حياة الصحابة للكاندهلوي وغيره، وهو كثير.

٩. يُقصد بالتابعي من تتلمذ على الصحابة وأخذ عنهم العلم، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠].

١٠. أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه والترمذي في علل الجامع.

•• وقال الإمام عبد الله بن المبارك (ت:١٨١٥): "الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء"[١١]. وقال ابن سيرين وغيره: "إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم"[١٢]. وفي بعض الروايات عن ابن سيرين: كان يُقال: "إن هذه الأحاديث دين"[١٣]...إلخ، ومعنى العبارة أن هذا القول كان شائعاً قبل ابن سيرين، أي في عصر الصحابة.



ومما لا يجهله أهل العلم الدارسون لتاريخ الأمم والأديان أن اشتراط الإسناد الصحيح المتصل في نقل "العلم الديني" و"علم النبوة" مما تفردت به أمة الإسلام عن سائر الأمم، كما ذكر ذلك ابن حزم وابن تيمية وغيرهما. ولا يحسبن القارئ البعيد عن الثقافة الإسلامية أنهم كانوا يقبلون أي إسناد يُذكر لهم، وأن بوسع أي واحد أن يركّب لهم سلسلة من أسماء الثقات إلى أن يصل إلى الصحابي الذي سمع من النبي ﷺ، فهم إنما يقبلون الإسناد إذا توافرت له جملة شروط لابد منها:

أ- **أن يكون كل راوٍ من رواته** "معلوم العين والحال" وبعبارة أخرى: معروف الشخصية معروف السيرة، فلا يُقبل سند فيه حدثنا فلان عن رجل، أو شيخ من قبيلة كذا، أو عن الثقة دون أن يُذكر اسمه. ولا يُقبل سند فيه راوٍ لا يُعرف من هو وما بلده ومن شيوخه ومن تلاميذه وأين عاش ومتى توفي؟ وهو الذي يسمونه "مجهول العين". ولا يُقبل راوٍ عُرف شخصه وعينه ولم تُعرف حاله وصفته، بخير ولا شر ولا إيجاب ولا سلب، وهو الذي يسمونه "مجهول الحال"، أو "المستور".

---

١١. كتاب الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم الرازي، ت٣٢٧ هـ، ج١ قسم١، ص١٦، ط: حيدر آباد ١٣٧١هـ ١٩٥٢م.

١٢. المصدر السابق، ص١٥، وقد ذكره بإسناده عن ابن سيرين وغيره.

١٣. المصدر نفسه.

ب- أن يكون موصوفاً بـ"العدالة"، ومعنى العدالة يتصل بدين الراوي وخُلقه وأمانته فيما يَروي وينَقل، بحيث تنطق أقواله وأعماله أنه امرؤ يخشى الله تعالى، ويخاف حسابه، ولا يستبيح الكذب أو التزيد أو التحريف، وقد احتاطوا أشد الاحتياط، فكانوا يردون الحديث لأقل شبهة في السيرة الشخصية لناقله، أما إذا علموا أنه كذب في شيء من كلامه فقد رفضوا روايته، وسموا حديثه "موضوعاً" أو"مكذوباً" وإذا لم يُعرف عنه الكذب في رواية الحديث، مع علمهم بأنه قد يصدق الكذوب، وقد فسروا "العدالة" بـ: السلامة من الفسق وخوارم المروءة. ومن دلائل هذه العدالة: أن لا يُرى عليه كبيرة، ولا يصر على صغيرة، وأكثر من ذلك أنهم اشترطوا مع التقوى "المروءة" وفسروها: بأنها التنزه عن الدنايا وما يشين عند الناس، كالأكل في الطريق أو المشي عاري الرأس في زمنهم.



فلم يكتفوا من الراوي أن يجتنب ما ينكره الشرع، بل أضافوا إليه ما يستقبحه العرف، وبهذا يكون إنساناً مقبولاً عند الله وعند الناس. ولا يقال: قد يتظاهر بعض الناس بالعدالة، ويتصنع المروءة، وفؤاده هواء، وباطنه خراب، فهو يقول ما لا يفعل، ويسر ما لا يعلن، شأن المنافقين الذين يخادعون الله والذين آمنوا. فالواقع يقول: إن الزيف لابد أن ينكشف، والنفاق لابد أن يفتضح، وقال عليّ كرم الله وجهه: "غش القلوب يظهر على صفحات الوجوه، وفلتات الألسنة". وقد قال الشاعر:

ثوب الريـاء يشـف عمـا تحته •• فإذا اكتسيتَ به فإنك عار

وقبله قال زهير في معلقته:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة •• وإن خالها تخفى على تعلم

أنصار النبي ﷺ العدد ٦ | ربيع الثاني ١٤٤٤هـ | نوفمبر ٢٠٢٢م

ج- ولا يكون الراوي ثقة مقبولاً بمجرد اتصافه بالعدالة والتقوى، بل لابد أن يضم إلى العدالة والأمانة "الضبط".

فقد يكون الراوي من أتقى عباد الله وأعلاهم في الورع والصلاح، ولكنه لا يضبط ما يرويه، بل يغلط فيه فيكثر الغلط أو ينسى فيخلط حديثا بحديث. لهذا كان لابد من "الضبط" سواء أكان ضبط صدر بقوة الحفظ، أم ضبط كتاب، بسلامته والعناية به.



وهم يشترطون هنا للحديث الصحيح أن يكون راويه في أعلى درجات الضبط والإتقان: حتى يُطمأن إلى حفظه وإجادته، ويعرفون ذلك مقارنة رواياته بعضها ببعض، وبروايات غيره من الحفاظ الثقات. وكثيراً ما يكون الراوي ضابطاً حافظاً متقناً، ولكنه يُعمّر فتضعف ذاكرته، ويتشوش عليه حفظه! فيضعفونه بذلك ويقولون: "اختلط بأخرة" أي آخر حياته، وقد يُصنفون الرواة عنه بأمارات وأدلة مختلفة، فيقولون: هذا رُوي عنه قبل اختلاطه فيُقبل وهذا رُوي عنه بعد اختلاطه، أو لا يُعرف متى رُوي عنه فيُرد.

د- أن تكون حلقات السند كلها متصلة، متماسكة من مبدأ السند إلى منتهاه.

فإذا سقطت حلقة في السلسلة في أولها أو أوسطها أو آخرها، كان الحديث ضعيفاً مردوداً، مهما تكن مكانة رجاله من العدالة والضبط، حتى إن بعض أئمة التابعين الذين يُستسقى بهم الغيث، وتُضرب أكباد الإبل لطلب العلم منهم، مثل الحسن البصري، وعطاء، والزهري وغيرهما، إذا قال: قال رسول الله ﷺ، ولم يذكر الصحابي الذي سمع الحديث من رسول الله ﷺ لم يُقبل حديثه، لاحتمال أن يكون سمعه من تابعي آخر، وأن يكون التابعي سمعه من تابعي.. وهكذا، وإذا جُهلت الواسطة لم يُقبل الحديث، وهذا يسمونه "المرسل" وإن كان بعض الفقهاء يقبله بشروط خاصة.

ومعنى هذا: أن يكون كل راوٍ تلقى الحديث عمن فوقه تلقياً مباشراً، بلا واسطة، ولا يجوز للراوي أن يحذف الواسطة، بناءً على أن المحذوف ثقة عنده، فربما كان الموثق عنده مجروحاً عند غيره، بل إن مجرد حذف الواسطة يشكك في المحذوف، وإذا علم من حال بعض الرواة المُعدّلين المقبولين في الجملة، أنه حذف في بعض المرات بعض الوسائط، وذكر لفظاً محتملاً مثل: "عن فلان"، اعتبروه "تدليساً"، فلا يقبلون من حديثه إلا ما قال فيه: حدثني فلان، أو أخبرني فلان أو سمعت.. ونحوها، كما قالوا في مثل محمد بن إسحاق صاحب السيرة المعروف، أما إذا قال: عن فلان: فحديثه ضعيف، لأن "عن" تحتمل التلقي بالواسطة، كما تحتمل الأخذ المباشر، ومجرد الاحتمال من مثله يضعف الحديث.

هـ - ألا يكون الحديث شاذاً.

ومعنى الشذوذ عندهم: أن يرويه الثقة مخالفاً مَن هو أوثق منه، كأن يروي أحد الثقات الحديث بصيغة، أو زيادة معينة، ثم يرويه راوٍ آخر أقوى منه وأوثق بغير هذه الصيغة، وغير هذه الزيادة.



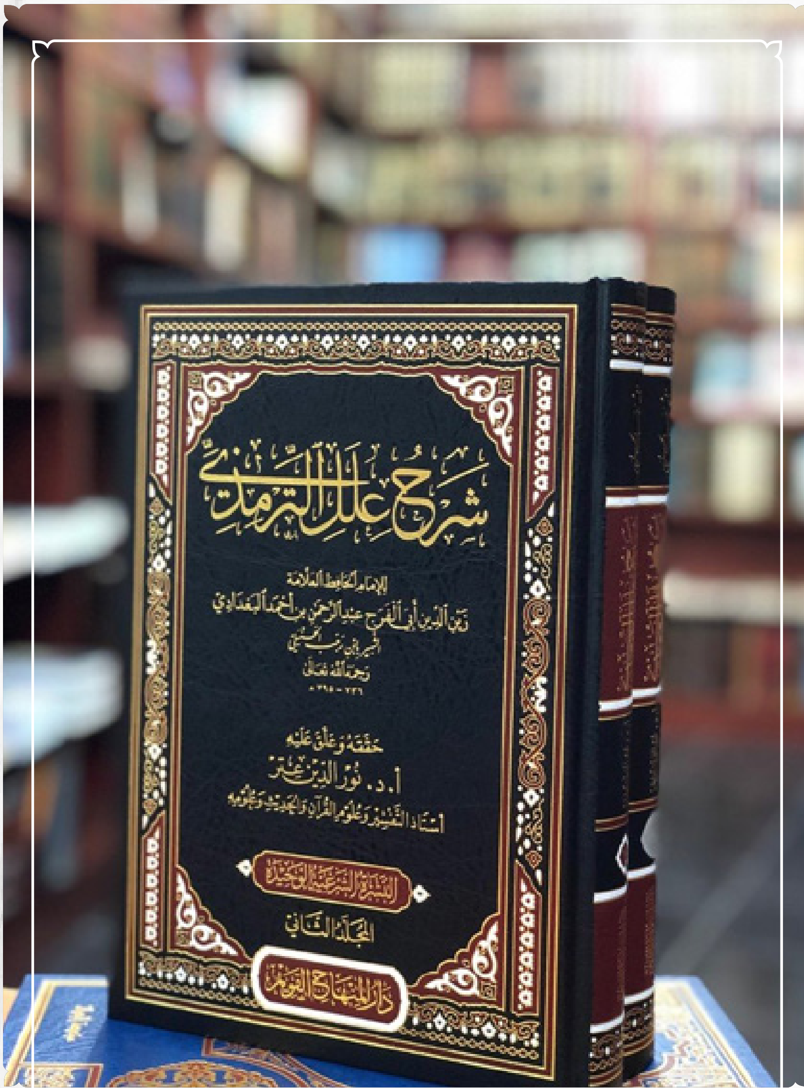
وكذلك إذا رواه واحد بعبارة، ورواه اثنان أو جماعة غيره بعبارة مخالفة، فهنا يُقبل حديث من هو أوثق ويُسمى عندهم "المحفوظ"، ويُرد المخالف ويُسمى "الشاذ"، مع أن راويه عندهم ثقة مقبول.



و- ألا يشتمل الحديث على علة قادحة في سنده أو متنه.

وهذه إنما يعرفها أئمة هذا الشأن، ممن عايشوا الأحاديث، وخبروا الأسانيد والمتون، حتى إن الحديث ليبدو في ظاهر الأمر مقبولاً لا غبار عليه، فإذا نظر إليه هؤلاء الصيارفة الناقدون، سرعان ما يكتشفون فيه خللاً يوجب وهنه، ولهذا نشأ علم رحب يسمى علم "العلل"[١٤].

ومن هنا نتبين أنه لا مجال لما أوهمه بعض الغرباء عن هذا العلم أن بإمكان بعض الناس أن يخترع إسناداً صحيحاً، بل في غاية الصحة، ويركّب عليه حديثاً يحلل ويحرم. أو يوجب ويسقط ما يشاء، ثم يأتي به إلى الفقهاء أو رجال الحديث، فيقبلوه منه على عواهنه، فهذا كلام امرئ مغرق في الخيال، بل في الجهل المركب، لأنه جاهل ويعتقد أنه عالم.



والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

١٤. انظر في هذا كتاب: علل الحديث للدكتور همام عبد الرحيم سعيد، وهو دراسة منهجية في ضوء كتاب: علل الترمذي لابن رجب، نشر دار العدوي- عمان.

حول حديث "أنتم أعلم بأمور دنياكم"



د. يوسف القرضاوي
رحمه الله*

تمهيد

لقد واجهت السنة المطهرة جملة هجمات شرسة من عبيد الفكر الغربي، الذين حاولوا اغتيالها، والإجهاز عليها بكل ما استطاعوا من قوة وما ملكوا من حيلة، تعددت لذلك وسائلهم، واختلفت مسالكهم، وإن اتحدت مآربهم.

فمنهم من تولوا حملات التشكيك في (ثبوت السنة)، إما التشكيك فيها كلها، أو في السنة القولية خاصة، وهي جمهرة السُّنة ومعظمها، أو في أحاديث الآحاد، أو في الكتب المعتمدة كصحيح البخاري، أو في الرواة المشاهير، كأبي هريرة رضي الله عنه.



ومنهم من حملوا لواء الطعن في حجيتها ومصدريتها لتشريع الإسلام وتوجيهه، وزعموا أنهم استغنوا بالقرآن الكريم عنها!

ومن هؤلاء وأولئك من يحاول هدم السُّنة بالسُّنة نفسها، وذلك بأخذ بعض الأحاديث وتحريفها عن موضعها والاستدلال بها على غير ما تدل عليه.

حديث حُرّف عن موضعه

ومن هذه الأحاديث التي وظفها بعضهم توظيفاً سيئاً، الحديث المشهور الذي رواه مسلم في صحيحه في قضية تأبير النخل وفيه قال في بعض الروايات: "أنتم أعلم بأمور دنياكم"[1].

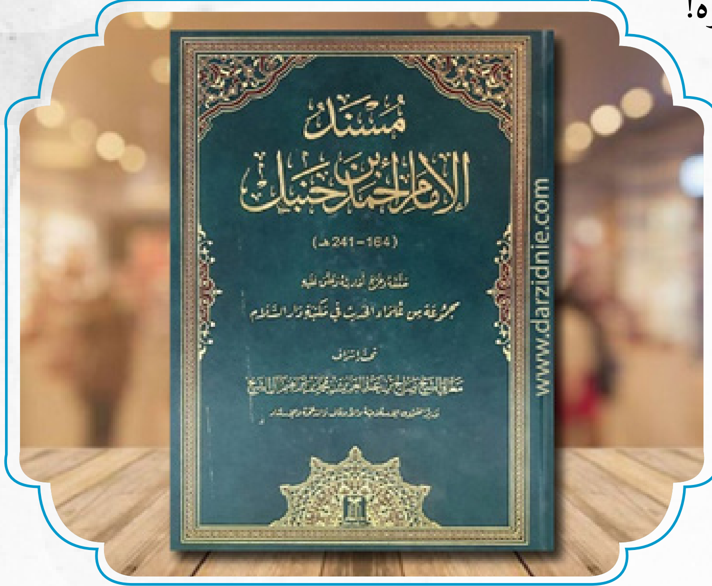
فقد أراد بعضهم أن يحذف النظام السياسي كله من الإسلام بهذا الحديث وحده، لأن أمر السياسة أصولاً وفروعاً من أمر دنيانا فنحن أعلم به، فليس من شأن الوحي أن يكون له فيها تشريع أو توجيه، فالإسلام عند هؤلاء دين بلا دولة، وعقيدة بلا شريعة!

وأراد آخرون أن يحذفوا النظام الاقتصادي كله من الإسلام كذلك بسبب هذا الحديث الواحد!

وقد ناقشني في ذلك صديق قديم منذ نحو ربع قرن منكراً أن يكون للإسلام معرفة بالاقتصاد تشريعاً وتوجيهاً وتنظيماً، وكان من أبرز حججه هذا الحديث، وقد سجلت هذه المناقشة وذكرت حجج

١. الحديث رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل من رواية طلحة ورافع بن خديج وعائشة وأنس رضي الله عنهم (الأحاديث: ٢٣٦١ - ٢٣٦٣) من صحيح مسلم، وسيأتي ذكر روايته مفصلة.

-بل شبهات- هذا الصديق ورددت عليها في مقام آخر، المهم أن بعض الناس أراد أن يهدم بهذا الحديث الفرد كل ما حوت دواوين السنة الزاخرة من أحاديث البيوع والمعاملات والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكأن الرسول قال هذا الحديث لينسخ به جميع أقواله وأعماله وتقريراته الأخرى التي تكون السنة النبوية المطهرة!



وهذا الغلو من بعض الناس هو الذي جعل عالماً كبيراً مثل المحدث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله يعلق على هذا الحديث في مسند الإمام أحمد[٢]، فيقول: "هذا الحديث مما طنطن به ملحدو مصر وصنائع أوروبا فيها من عبيد المستشرقين، وتلامذة المبشّرين، فجعلوه أصلاً يحاجون به أهل السنة وأنصارها، وخدام الشريعة وحُماتها، إذا أرادوا أن ينفوا شيئاً من السُّنة، وأن ينكروا شريعة من شرائع الإسلام، في المعاملات وشؤون الإجماع وغيرها كما يزعمون أن هذا من شؤون الدنيا، يتمسكون برواية أنس: "أنتم أعلم بأمر دنياكم" والله يعلم أنهم لا يؤمنون بأصل الدين، ولا الألوهية ولا بالرسالة، ولا يصدقون القرآن في قرارة نفوسهم، ومن آمن منهم فإنما يؤمن لسانه ظاهراً، ويؤمن قلبه فيما يخيل إليه، لا عن ثقة وطمأنينة، ولكن تقليداً وخشية، فإذا ما جد الجد، وتعارضت الشريعة، الكتّاب والسنّة، مع ما درسوا في مصر أو في أوروبا لم يترددوا في المفاضلة ولم يحجموا عن الاختيار، وفضلوا ما أخذوه عن سادتهم، واختاروا ما أشربت قلوبهم! ثم ينسبون نفوسهم بعد ذلك، أو ينسبهم الناس إلى الإسلام! والحديث واضح صريح لا يعارض نصاً ولا يدل على عدم الاحتجاج بالسنة في كل شأن، وإنما كان في قصة تلقيح النخل أن قال لهم: "ما أظن ذلك يغني شيئاً"، فهو لم يأمر ولم ينهَ، ولم يخبر عن الله، ولم يسن في ذلك سنة، حتى يتوسع في هذا المعنى إلى ما يهدم به أصل التشريع.

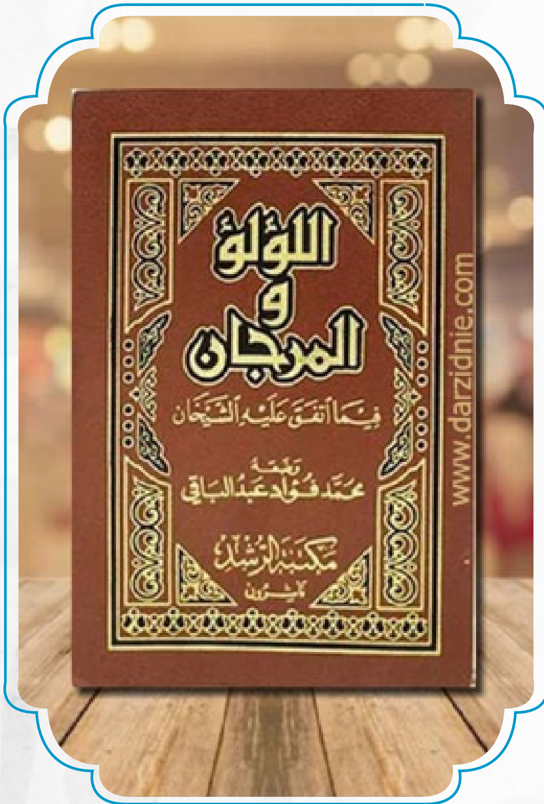
٢. انظر التعليق على الحديث ذي الرقم ١٣٩٥، في مسند الإمام ابن حنبل، بتحقيق أحمد محمد شاكر، ط. دار المعارف.

معنى "أنتم أعلم بأمر دنياكم"

إذَن ما معنى هذا الحديث؟ إن معناه واضح لا لبس فيه، وهو أن الدين لا يتدخل في أمور البشر التي تدفع إليها غرائزهم وحاجاتهم الدنيوية، إلا حيث يكون فيها إفراط أو تفريط أو انحراف، كما أنه يتدخل ليربط حركات الإنسان كلها -حتى الغريزية والعادية منها- بأهداف ربانية عليا وقيم أخلاقية مُثلى، ثم ليرسم آداباً إنسانية راقية في أداء هذه الأعمال تميزه عن الحيوان الأعجم، ونضرب هنا بعض الأمثلة للأمور الدنيوية وموقف الإسلام منها.

القتال

خذ مثلاً القتال، فالإسلام جاء يحدد أهداف القتال، ويأمر بالاستعداد له وأخذ الحذر من العدو وإعداد ما يستطاع من القوة، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢]، وقوله ﷺ: "ألا إن القوة الرمي"[٣]. "من تعلم الرمي ثم نسيه فهي نعمة كفرها"[٤]. "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله"[٥].



---

٣. رواه مسلم من حديث عقبة بن عامر، في كتاب الإمارة برقم (١٩١٧).
٤. رواه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، كما في المستدرك (٢/ ٩٥) من حديث عقبة بن عامر، انظر كتابنا "المنتقى من الترغيب والترهيب"، ج١ ص٣٦١، ٣٦٢.
٥. متفق عليه، انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، أحمد فؤاد عبد الباقي (١٢٣٤- ١٢٤٤)، وهو من حديث أبي موسى.

كما جعل للحرب آداباً تُراعَى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقال ﷺ: "لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً"[٦].

أما نوع الأسلحة التي تُستخدم في القتال وطريقة صنعها وكيفية التدريب عليها وما شابه ذلك فليس من شأن الدين، إنما هو من شأن وزارة الدفاع وقيادة القوات المسلحة. قد يكون السلاح في عصر ما هو السيف والرمح والقوس، وفي عصر ثانٍ هو المنجنيق، وفي عصر ثالث هو البندقية والمدفع، وفي عصر آخر هو القنابل أو الصواريخ. وقد يستخدم المحاربون في وقت ما الخيل، وفي وقت آخر الفيلة، وفي وقت ثالث الدبابات أو الطائرات أو مراكب الفضاء.



وتوجيه الدين في عصر الخيل بالنظر إلى القتال هو نفس توجيهه في عصر الفضاء. الهدف هو الهدف، أن تكون كلمة الله هي العليا، والأدب هو الأدب "ولا تغدروا ولا تمثلوا" ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وإعداد القوة المستطاعة وأخذ الحذر، وتدريب الأمة هو هو، تتغير الآلات والوسائل والكيفيات، أما المبادئ والغايات فهي ثابتة باقية.

الزراعة

وهناك مثلاً آخر: الزراعة. فالإسلام يحث عليها، ويعد الزّارع بأفضل المثوبة عند الله: "ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة"[٧].

٦. رواه مسلم من حديث بريدة في الجهاد، برقم (١٧٣١)، ومعنى لا تغلوا: أي لا تخونوا في الغنيمة. ومعنى لا تمثلوا: أي لا تشوهوا القتلى، ومعنى ولا تقتلوا وليداً: أي صبياً ليس من أهل القتال.

٧. رواه البخاري في كتاب المزارعة، ومسلم في كتاب المساقاة من حديث أنس. انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، لمحمد فؤاد عبد الباقي، ج٢ برقم (١٠٠١).



• ولكن الدين لا يتدخل ليعلم الناس كيف يزرعون وماذا يزرعون ومتى يزرعون وبأي شيء يزرعون، وبماذا يسقون الزرع؟ بالشادوف أم بالطنبور أم بالساقية أم بالآلة الميكانيكية؟ بالري التقليدي أم بالرش أم التنقيط أم غيرها؟ الدين لا دخل له هنا، فليس هذا من اختصاصه، إنما هو من اختصاص وزارة الزراعة أو ما يشبهها من المؤسسات!

وتطور أدوات الزراعة من المحراث -الذي تجرّه الأبقار- إلى المحراث الميكانيكي، وتغيرت طريقة الري وأدواته من الشادوف والسواقي إلى الآلات الميكانيكية الحديثة، ومن طريقة الغمر إلى طريقة الرش أو التنقيط.. لا يغير من موقف الدين وتوجيهاته الراسخة الأولى.

ونضيف مثلاً ثالثاً زيادة في التوضيح وهو: التداوي.

التداوي

لقد فهم بعض الناس من قديم أن المرض شيء قدره الله على الإنسان، وما قدّره الله نافذ لا محالة، فما فائدة التداوي؟ والنبي ﷺ يلحظ ذلك فيبين للناس أن المرض من الله، والدواء من الله: "يا عباد الله: تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم"[٨]. "وما أنزل الله داءً إلا أنزل له الدواء"[٩]، "إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم"[١٠]. وسُئل النبي ﷺ عن الأدوية: هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: "هي من قدر الله"[١١].

وهو بصفة عامة يوصي بصيانة البدن وحفظه ووقايته من كل أذى؛ لأنه عدة المؤمن للجهاد وأداء واجبه نحو ربه ونفسه وأسرته والناس أجمعين.

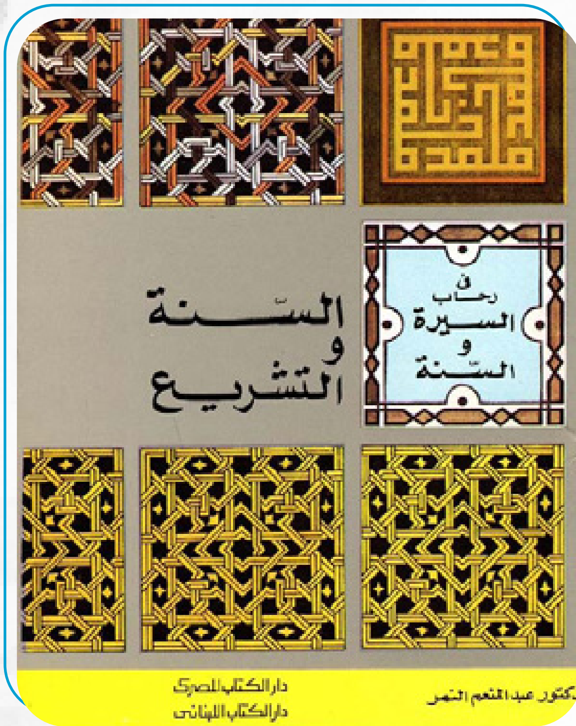
٨. رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شريك، كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٩٧٣٤).
٩. رواه البخاري وابن ماجه عن ابن مسعود، كما في صحيح الجامع الصغير (٥٥٥٨).
١٠. رواه البخاري عن ابن مسعود موقوفاً ومعلقًا، في الطب. ووصله ابن أبي شيبة وسنده صحيح.
١١. رواه الترمذي في أبواب الطب (٢٠٦٦)، ط. حمص، وقال: حسن صحيح، وكذلك في القدر (٢١٤٩)، وابن ماجه في الطب (٣٤٣٧)، وأحمد في المسند (٣/ ١٢٤)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٩، ٤٠٢) وصححه، وحسنه الألباني في تخريج كتابنا (مشكلة الفقر) (برقم ١١).



أما الدواء، فما هو؟ وكيف يصنع؟ ومن أي المواد؟ وما مقداره؟ ...إلخ، فليس هذا من شأن الدين، وإنما هو من شأن وزارة الصحة وما شابهها. لكن يبقى توجيه الدين الأول في الحث على التداوي، وعدم التداوي بالحرام، وفي رعاية حق البدن سارياً غير منسوخ ولا مبدل.

هذا هو المفهوم من هذا الحديث: " أنتم أعلم بأمر دنياكم"، وليس معناه عزل الدين عن الحياة .

المبالغة في نفي التشريع عن السنة



وقد نشر الدكتور الشيخ عبد المنعم النمر بحثاً عن (السنة والتشريع)، اعتمد فيه على ما كتب القرافي والدهلوي وشلتوت في الموضوع، معارضاً الذين غلوا فقالوا إن كل ما ورد في كتب السنة هو للتشريع، وكان له فيه نظرات وتحليلات مفيدة، ولكنه بالغ في دعواه حتى كاد يرد قضايا المعاملات والأحوال المدنية كلها من دائرة السنة التشريعية[١٢]، وانتهى به هذا الاتجاه إلى أن حرم برأيه ما أحلته السُّنة.

ورأينا من المتدينين من ينكر على الخطباء المعاصرين أنهم يرقون المنابر ويخطبون الجُمع، دون أن يكون في أيديهم عصا، ويرى في ذلك ازدراء بالسنة! وقد لامني أحدهم على ذلك، فقلت له: إذا كنت لم أحمل في حياتي عصا أبداً؟ فكيف أحملها للخطبة وحدها؟! إنها تذكرني بالسيف الخشبي الذي كان من مستلزمات خطبة الجمعة في معظم بلاد المسلمين إلى عهد قريب، ثم تحرر الناس منه، فقد كانت سخرية مُرة أن تكون سيوف الناس جميعاً من حديد، وسيف الخطيب المسلم وحده من خشب!

١٢. ركز د. النمر على أن كثيراً من أوامر الرسول ونواهيه في المعاملات، كان أساسها الاجتهاد لا الوحي، وهذا لا يفيد في دعواه، لأن الاجتهاد إذا أقر كان بمنزلة الوحي، لأنه عليه الصلاة والسلام لا يقر على خطأ، كما هو مقرر في الأصول، ولهذا يسميه العلماء: الوحي الباطن.





وفئة أخرى تريد أن تعزل السنة عن شئون الحياة العملية كلها! فالعادات والمعاملات وشؤون الاقتصاد والسياسة والإدارة والحرب ونحوها، يجب أن تُترك للناس، ولا تدخل السنة فيها آمرة ولا ناهية، ولا موجهة ولا هادية!

وحجتهم في ذلك الحديث... فالحديث برواياته يدل على أن النبي ﷺ أبدى لهم رأياً ظنياً في أمر من أمور المعيشة، لم يكن له به خبرة، فقد كان من أهل مكة الذين لم يمارسوا الزرع والغرس، لأنهم يسكنون بوادٍ غير ذي زرع، وظنه أصحابه ديناً يُتبع وشرعًا يُطاع، فكان ما كان من عدم بلوغ الثمر غايته، فبين لهم ﷺ أن ما قاله لهم لم يكن إلا ظناً في شأن غير ديني، وإنما هو أمر "فني!" بحت هم أخبر به وأدرى، ولهذا قال: "أنتم أعلم بأمر دنياكم".

فما كان من هذا القبيل مما يرجع إلى الخبرة العادية من أمر الدنيا من زراعة وصناعة وطب ونحوها من النواحي الفنية.. فليس من السُّنة التشريعية التي يجب اتباعها. ولهذا وضع الإمام النووي هذا الحديث في صحيح مسلم تحت "باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي"!

أما أن يتخذ هذا الحديث تكأة لإخراج السُّنة، بل إخراج الدين كله عن الحياة وعزله عن شئون المجتمع بدعوى أنه رسالة روحية! فهذا ما ترفضه السنة ويرفضه القرآن ويرفضه الإسلام. لقد جاء الإسلام -بقرآنه وسنته- منهج حياة متكاملاً، مازجًا بين الروح والمادة، جامعاً بين الآخرة والدنيا، ضابطاً لسير الحياة كلها بشرع الله. ولهذا كانت تشريعاته ووصاياه شاملة لكل جوانب الحياة: في الأكل والشرب، والملبس والزينة، والبيع والشراء، والأخذ والعطاء، والزواج والطلاق، والوصايا والمواريث، والبر والصلة، والأدب والأخلاق، والجرائم والعقوبات، والسلم والحرب والخلافة والإمارة، إلى غير ذلك مما زخرت به كتب الحديث والتفسير والأحكام والآداب. وحسبنا أن أطول آية في كتاب الله نزلت تنظم شأناً من شؤون الدنيا، وهو كتابة الدَّين.



إن هذه القضية لتعتبر من أهم القضايا التي يقع فيها الخلط وسوء الفهم وعدم التمييز بين ما يراد به التشريع من السنن -وهو الغالب- وما لا يراد به التشريع، وما يراد به العموم وما يراد به الخصوص، ونجد الكثيرين هنا يقفون -على ما هو معتاد دائماً- بين طرفَي الغلو والتفريط.

وقد شهدتُّ معركة جدلية بين فئتين من هؤلاء حول سُنن الأكل وآدابه؛ فئة رفضت الأكل على منضدة واستخدام الملعقة والشوكة، وأبت إلا أن تجلس على الأرض وتأكل باليد وتلعق الأصابع بعد الأكل، ائتساء بفعل النبي ﷺ، وتتهم من لم يفعل ذلك بمخالفة السُّنة.

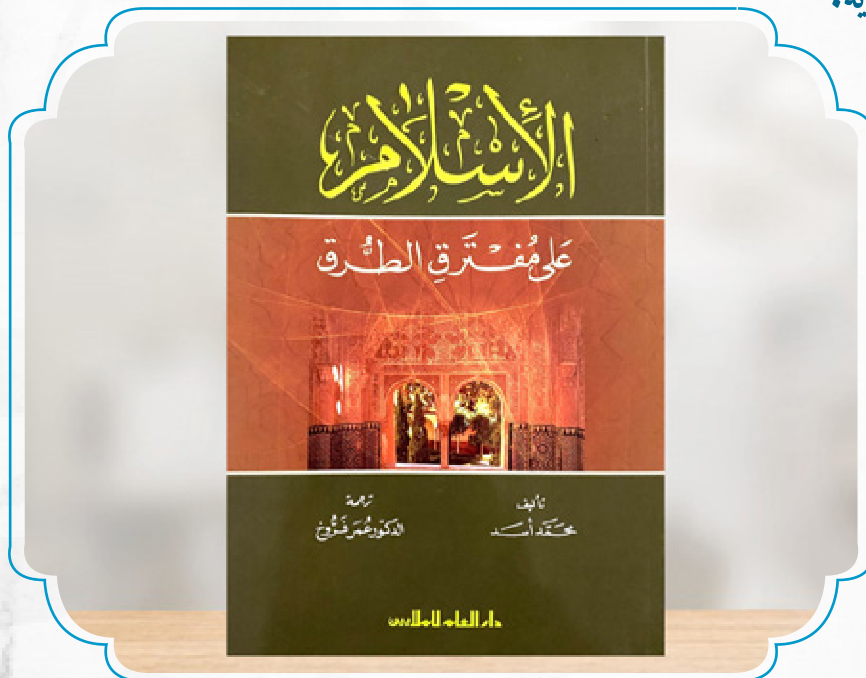
والفئة الأخرى: زعمت أن الأكل والشرب من شئون الحياة التي تتطور وتتغير وتختلف باختلاف البيئات والأزمان، وأن الدين لم يجئ ليعلم الناس كيف يأكلون ويشربون، ولا يهمه أكَل الناس بأيديهم أم أكلوا بأداة كالملعقة، ولا يعنيه أكلوا باليمين أم بالشمال.

وإذا نظرنا إلى صنيع الفئتين، وجدنا الفئة الأولى قد انطلقت من واقع الحرص على الاقتداء بالنبي الكريم ﷺ في كل أحواله وأفعاله، التي تمثل البساطة والتواضع والقناعة، والزهد في زخارف الحياة، والبعد عن مشابهة المترفين والمتجبرين. وهؤلاء لا شك مشكورون ومأجورون على نيتهم، وحرصهم على كمال الاتباع، كما كان يفعل ابن عمر وغيره من الصحابة الكرام رضي الله عنهم. ولكنهم أخطأوا حين بالغوا في اعتبار هذا السلوك كله جزءًا من السنة ومن الدين، وأنكروا على من تركه، ولم يراعوا الظروف والأحوال، وتحدّوا غيرهم فيما لا يستحق التحدي، وجُل ما حسبوه سُنة إنما هو عادة عربية، كانت ملائمة لبيئتها وزمانها، وقد فعلها الرسول الكريم ﷺ مراعاة لعادة قومه.

أما الفئة الأخرى فقد خلطت بين ما يهتم به الدين وما لا يهتم به، فإذا كان الدين لا يهمه أن تأكل على الأرض أو على خوان، وأن تأكل باليد أم بالملعقة والشوكة، فإنه يهمه أن تأكل باليمين لا بالشمال، وأن تشرب باليمين لا بالشمال. وليس ذلك لأن النبي ﷺ كان يحب التيامن في كل شيء فحسب، بل لأن توجيهاته عليه الصلاة والسلام في ذلك صريحة كل الصراحة أمراً ونهياً؛ فهو يقول: "سمّ الله، وكُل بيمينك، وكل مما يليك". متفق عليه عن عمر بن أبي سلمة[١٣]. ويقول: "لا تأكلوا بالشمال فإن الشيطان يأكل بالشمال". رواه مسلم عن

جابر[١٤]. ويقول: "إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله". رواه مسلم عن ابن عمر[١٥]. وفي رواية: "لا يأكلن أحدكم بشماله ولا يشربن بها، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها"[١٦]. وعن سلمة بن الأكوع: " أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: " كل بيمينك!". قال: لا أستطيع، قال: لا استطعت! ما منعه إلا الكِبْر، فما رفعها إلى فيه". رواه مسلم[١٧].

فهذه الأحاديث الآمرة الناهية الزاجرة تدل على أن الأكل باليمين مقصود وهو أدب من الآداب المميزة للإنسان المسلم، وللمجتمع المسلم. والأمم الأصيلة تحرص على أن يكون لها تميزها واستقلالها الخاص، ولو كان ذلك في شئون الحياة العادية.



وللأستاذ محمد أسد في كتابه: (الإسلام على مفترق الطرق) تحليل قيم لما جاءت به السُّنة من آداب وتقاليد، تتعلق بشؤون الحياة وعادات الناس، وأثرها في تميز الشخصية المسلمة، ينبغي أن يُقرأ ويُدرس ويُستفاد منه[١٨].

---

١٣. انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ط. المطبعة العصرية، بالكويت، الحديث (١٣١٣).
١٤. رواه مسلم في كتاب الأشربة، الحديث (٢٠١٩).
١٥. هو في مسلم أيضاً (٢٠٢٠).
١٦. هذه رواية لحديث ابن عمر السابق.
١٧. رواه مسلم (٢٠٢١).
١٨. انظر: الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة د. عمر فريخ ود. مصطفى الخالدي. ط. بيروت، الفصلين الأخيرين.

حول حديث الذباب



د. يوسف القرضاوي*

رحمه الله

س: ما قولكم في حديث الذباب؟ أعني الحديث الشريف النبوي الذي يقول: "إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء".

هل هذا الحديث صحيح متفق على صحته؟ وما حكم من أنكره أو تشكك في صحة نسبته إلى رسول الله ﷺ هل يخرجه هذا من الدين؟ فإن بعض الأطباء في عصرنا أثاروا غباراً حول صحة هذا الحديث إلى حد السخرية بمن صدق بمضمونه، وذلك لما هو معروف في علم الطب الوقائي والعلاجي من أن الذباب أحد الأدوات الناشرة للأمراض، لما يحمل من الجراثيم الضارة، ولم يُعرف أن أحداً استخدمه للعلاج فكيف يقول الحديث: إن في أحد جناحيه شفاءً؟ نرجو الإيضاح فقد كثرت المجادلات حول هذا الحديث حتى اتخذه بعض مَن لا دين لهم تُكَأَة للتنديد بالدين والاستخفاف بالمتدينين.

---

* د. يوسف القرضاوي، فتاوى معاصرة، ١٠٤/١ وما بعدها، ط٥، ١٤١٠-١٩٩٠م، دار القلم- الكويت.



ج: أما الجواب عن سؤال صاحب السؤال، وما تضمنه من استفسارات فألخصه في النقاط التالية:

أولاً: إن الحديث صحيح، رواه الإمام البخاري في جامعه الصحيح، ولكنه لا يُعد من "المتفق عليه" في اصطلاح علماء الحديث، لأن المتفق عليه عندهم هو ما اتفق على روايته الشيخان -البخاري ومسلم- في صحيحهما. وهذا الحديث مما انفرد به البخاري، ولم يخرجه مسلم، رحمهما الله.

ومعلوم أن أحاديث صحيح البخاري متلقاة بالقبول لدى جماهير الأمة في مختلف العصور، وخصوصاً فيما سلِم فيها من النقد والاعتراض من جهابذة علماء الأمة من المحدثين والفقهاء الراسخين. ولا أعلم أحداً من العلماء السابقين أثار إشكالا حول هذا الحديث أو تحدث عن علة قادحة في سنده أو متنه.

ثانياً: إن هذا الحديث لا يتعلق ببيان أصل من أصول الدين، من الإلهيات أو النبوات أو السمعيات، ولا ببيان فريضة من فرائضه الظاهرة أو الباطنة، الشخصية أو الاجتماعية... ولا ببيان أمر من أمور الحلال والحرام في حياة الفرد أو الجماعة، ولا ببيان تشريع من تشريعات الإسلام المنظمة لحياة الأسرة والمجتمع والدولة والعلاقات الدولية، ولا ببيان خُلُق من أخلاق الإسلام التي بُعث الرسول ليتمم مكارمها.

ولو أن مسلماً عاش عمره دون أن يقرأ هذا الحديث أو يسمع به، لم يكن ذلك خدشاً في دينه، ولا أثر ذلك في عقيدته أو عبادته، أو سلوكه العام. فلو سلمنا -جدلاً- بكل ما أثاره المتشككون حول الحديث، وحذفناه من صحيح البخاري أصلاً، ما ضر ذلك دين الله شيئاً. فلا مجال لأولئك الذين يتخذون من الشبهات المثارة حول الحديث سبيلاً للطعن في الدين كله، فالدين -أعني الإسلام- أرسخ قدماً، وأثبت أصولاً، وأعمق جذوراً من أن يُنال منه بسبب هذه الشبهات الواهية.

ثالثاً: إن هذا الحديث -وإن كان صحيحاً لدى علماء الأمة- هو من أحاديث الآحاد، وليس من المتواتر الذي يفيد اليقين.

وأحاديث الآحاد إذا رواها الشيخان أو أحدهما قد اختلف فيها العلماء: هل تفيد العلم أي اليقين، أم تفيد مجرد الظن الراجح؟ أم يفيد بعضها العلم بشروط خاصة؟



وهذا الخلاف يكفي للقول بأن من أنكر حديثاً من أحاديث الآحاد، قامت شبهة في نفسه حول ثبوته ونسبته إلى النبي ﷺ، لا يخرج بذلك من الدين؛ لأن الذي يُخرج منه إنكار ما كان منه بيقين لا ريب فيه ولا خلاف معه، أي القطعي الذي يسميه العلماء "المعلوم من الدين بالضرورة".



إنما يَخرج من الدين حقاً مَن اتخذ من الغبار المثار حول هذا الحديث وسيلة للطعن في الدين والاستهزاء به، فإن هذا كفر صريح.

رابعاً: أما مضمون الحديث وعلاقته بالعلم والطب الحديث، فقد دافع عنه كثير من كبار الأطباء ورجال العلم، مستشهدين ببحوث ودراسات لعلماء غربيين مرموقين. ونَشر ذلك كثير من المجلات الإسلامية في مناسبات شتى.

وحسبي هنا أن أنقل أحدث رد علمي طبي حول هذا الموضوع، نشرته مجلة "التوحيد" المصرية في عددها الخامس لسنة ١٣٩٧-١٩٧٧، وهو للأستاذ الدكتور أمين رضا أستاذ جراحة العظام والتقويم بجامعة الإسكندرية، إثر مقال نشرته بعض الصحف لطبيب آخر تشكك في الحديث المذكور.

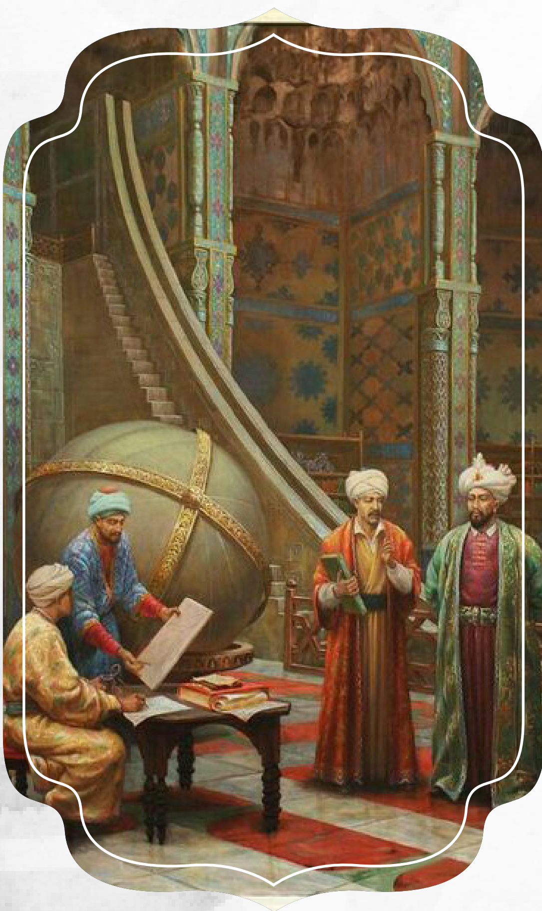
يقول الدكتور أمين رضا: "في جريدة الجمعة يوم ١٩٧٧/٣/١٨ رفض أحد الأطباء الزملاء حديث الذبابة على أساس التحليل العلمي العقلي لمتنه لا على أساس سنده. وامتداداً للمناقشة الهادئة التي بدأتها هذه الجريدة أرى أن أعارض الزميل الفاضل بما يأتي:

١. ليس من حقه أن يرفض هذا الحديث أو أي حديث نبوي آخر لمجرد عدم موافقته للعلم الحالي؛ فالعلم يتطور ويتغير؛ بل ويتقلب كذلك. فمن النظريات العلمية ما تصف شيئاً اليوم بأنه صحيح، ثم تصفه بعد زمن

قريب أو بعيد بأنه خطأ. فإذا كان هذا هو حال العلم فكيف يمكننا أن نصف حديثاً بأنه خطأ قياساً على نظرية علمية حالية، ثم نرجع فنصححه إذا تغيرت هذه النظرية العلمية مستقبلاً؟

٢ ليس من حقه رفض هذا الحديث أو أي حديث آخر لأنه "اصطدم بعقله اصطداماً" على حد تعبيره. فالعيب الذي سبب هذا الاصطدام ليس من الحديث بل من العقل، فكل المهتمين بالعلوم الحديثة يحترمون عقولهم احتراماً عظيماً. ومن احترام العقل أن نقارن العلم بالجهل، العلم يتكون من أكداس المعرفة التي تراكمت لدى الإنسانية جمعاء بتضافر جهودها جيلاً بعد جيل لسبر أغوار المجهول. أما الجهل فهو كل ما نجهله، أي ما لم يدخل بعد في نطاق العلم. وبالنظرة المتعقلة تجد أن العلم لم يكتمل بعد وإلا لتوقف تقدم الإنسانية. وأن الجهل لا حدود له، والدليل على ذلك تقدم العلم وتوالي الاكتشافات يوماً بعد يوم من غير أن يظهر للجهل نهاية.

إن العالم العاقل المنصف يدرك أن العلم ضخم ولكن حجم الجهل أضخم. ولذلك لا يجب أن يغرقنا العلم الذي بين أيدينا في الغرور بأنفسنا، ولا يجب أن يعمينا علمنا عن الجهل الذي نسبح فيه. فإننا إذا قلنا إن علم اليوم هو كل شيء وإنه آخر ما يمكن الوصول إليه، أدى ذلك بنا إلى الغرور بأنفسنا وإلى التوقف عن التقدم، وإلى البلبلة في التفكير. وكل هذا يفسد حكمنا على الأشياء، ويعمينا عن الحق حتى لو كان أمام عيوننا. ويجعلنا نرى الحق خطأ، والخطأ حقاً، فتكون النتيجة أننا نقابل أموراً تصطدم بعقولنا اصطداماً.. وما كان لها أن تصطدم لو استعملنا عقولنا استعمالاً فطرياً سليماً يحدوه التواضع والإحساس بضخامة الجهل أكثر من التأثر ببريق العلم والزهو به.





٣ ليس صحيحاً أنه لم يرد في الطب شيء عن علاج الأمراض بالذباب، فعندي من المراجع القديمة ما يوصف وصفات طبية لأمراض مختلفة باستعمال الذباب. أما في العصر الحديث فجميع الجراحين الذي عاشوا في السنوات التي سبقت اكتشاف مركبات السلفا -أي في السنوات العشر الثالثة من القرن الحالي [القرن العشرين]- رأوا بأعينهم علاج الكسور المضاعفة والقرحات المزمنة بالذباب. وكان الذباب يربى لذلك خصيصاً. وكان هذا العلاج مبنياً على اكتشاف فيروس البكتريوفاج القاتل للجراثيم. على أساس أن الذباب يحمل في آن واحد الجراثيم التي تسبب المرض، وكذلك البكتريوفاج الذي يهاجم هذه الجراثيم. وكلمة بكتريوفاج هذه معناها "آكلة الجراثيم".

وجدير بالذكر أن توقف الأبحاث عن علاج القرحات بالذباب لم يكن سببه فشل هذه الطريقة العلاجية. وإنما كان ذلك بسبب اكتشاف مركبات السلفا التي جذبت أنظار العلماء جذباً شديداً. وكل هذا مفصل تفصيلاً دقيقاً في الجزء التاريخي من رسالة الدكتوراه التي أعدها الزميل الدكتور أبو الفتوح مصطفى عيد تحت إشرافي عن التهابات العظام والمقدمة لجامعة الإسكندرية من نحو سبع سنوات.



٤ في هذا الحديث إعلام بالغيب عن وجود سم في الذباب. وهذا شيء لم يكشفه العلم الحديث بصفة قاطعة إلا في القرنين الأخيرَين. وقبل ذلك كان يمكن للعلماء أن يكذّبوا الحديث النبوي لعدم ثبوت وجود شيء ضار على الذباب. ثم بعد اكتشاف الجراثيم يعودون فيصححون الحديث.

٥ إن كان ما نأخذه على الذباب هو الجراثيم التي يحملها فيجب مراعاة ما نعلمه عن ذلك:

(أ) ليس صحيحاً أن جميع الجراثيم التي يحملها الذباب جراثيم ضارة أو تسبب أمراضاً.

(ب) ليس صحيحاً أن عدد الجراثيم التي تحملها الذبابة أو الذبابتان كاف لإحداث مرض فيمن يتناول هذه الجراثيم.



(جـ) ليس صحيحاً أن عزل جسم الإنسان عزلاً تاماً عن الجراثيم الضارة ممكن. وإن كان ممكنا فهذا أكبر ضرر له؛ لأن جسم الإنسان إذا تناول كميات يسيرة متكررة من الجراثيم الضارة تكونت عنده مناعة ضد هذه الجراثيم تدريجياً.

٦ في هذا الحديث إعلام بالغيب عن وجود شيء على الذباب يضاد السموم التي تحملها. والعلم الحديث يعلمنا أن الأحياء الدقيقة من بكتريا وفيروسات وفطريات تشن الواحدة منها على الأخرى حرباً لا هوادة فيها. فالواحدة منها تقتل الأخرى بإفراز مواد سامة، ومن هذه المواد السامة بعض الأنواع التي يمكن استعمالها في العلاج. وهي ما نسميه "المضادات الحيوية" مثل البنسلين والكلوروميستين وغيرهما.

٧ إن ما لا يعلمه وما لم يكشفه المتخصصون في علم الجراثيم حتى الآن لا يمكن التكهن به، لكن يمكن أن يكون فيه الكثير مما يوضح الأمور توضيحاً أكمل. ولذلك يجب علينا أن نتريث قليلاً قبل أن نقطع بعدم صحة هذا الحديث بغير سند من علم الحديث، ولا سند من العلم الحديث.

٨ هذا الحديث النبوي لم يدعُ أحداً إلى صيد الذباب ووضعه عنوة في الإناء! ولم يشجع على ترك الآنية مكشوفة، ولم يشجع على الإهمال في نظافة البيوت والشوارع وفي حماية المنازل من دخول الذباب إليها.

٩ إن مَن يقع الذباب في إنائه ويشمئز من ذلك ولا يمكنه تناول ما فيه، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

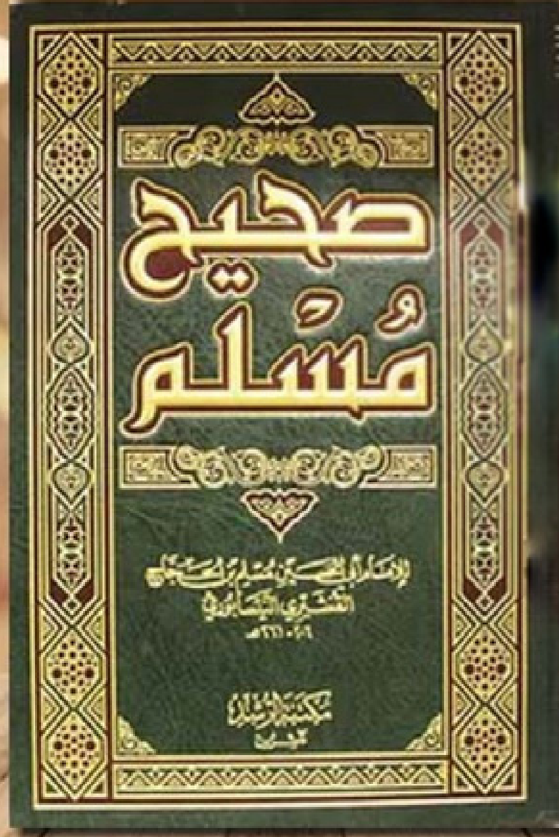
١٠ هذا الحديث النبوي لا يمنع أحداً من الأطباء والقائمين على صحة الشعب من التصدي للذباب في مواطنه ومحاربته وإعدامه وإبادته، ولا يمكن أن يتبادر إلى ذهن أحد علماء الدين أن هذا الحديث يدعو الناس إلى إقامة مزارع أو مفارخ للذباب! أو أنه يدعو إلى التهاون في محاربته. ومَن صنع ذلك أو اعتقد فيه فقد وقع في خطأ كبير".

هذا ما قاله الطبيب العالم الأستاذ الدكتور أمين رضا بلسان العلم والطب المعاصر، وفيه كفاية وغُنية، جزاه الله خيراً.

الصادعون بالحق

﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾

من إنتاج علمائنا الأسرى



في صحبة الإمام مسلم

فضيلة الشيخ: حسن أبو الأشبال

فك الله أسره*

لقد حفظ الله تعالى السنة برجال جمعوا أحاديث النبي ﷺ، وقاموا بتنقيتها وصيانتها من الكذب والوضع، منهم الإمام مسلم رحمه الله صاحب الصحيح الذي تلقته الأمة بالقبول، كما تلقت صحيح البخاري، وقد نهج الإمام مسلم في تصنيف صحيحه نهجاً مميزاً حيث قسم فيه الحديث إلى ثلاثة أقسام، ثم قسم رجاله إلى ثلاث طبقات، وبعد أن أتم جمع صحيحه عرضه على شيخه الحافظ الإمام أبي زرعة الرازي رحمهم الله جميعاً.

* من مقدمة شرح صحيح مسلم للشيخ حسن أبو الأشبال، باختصار.

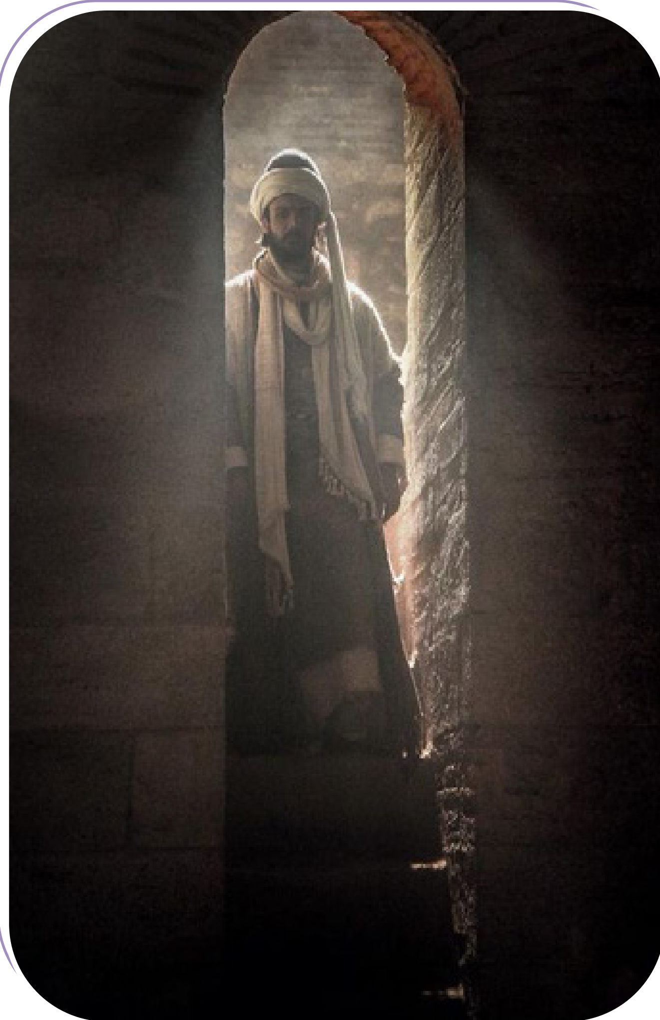
كانت رغبتي تناول الصحيح للإمام البخاري، ولكني استشرت في ذلك شيخي وأستاذي الشيخ محمد بن عبدالمقصود فقال: مسلم أخف، فوافقته على رغبته وإن كانت رغبتي في الكتاب الآخر؛ لأني أدرّس (صحيح مسلم) منذ أربع سنوات في (الهرم)، فكنت أود أن أبدأ بكتاب آخر؛ حتى أحصّل الفائدة لنفسي، كما ورد عن بعض شيوخ العصر أنهم كانوا يقرءون الكتب على التلاميذ لا لأجل التلاميذ ولكن لأجل نفعهم ومصلحتهم، فكنت أود أن أقرأ البخاري، ولكن طلب مني شيخي ولا يسعني مخالفته فوافقته على صحيح مسلم.

وإذا كنا سنبدأ في كتاب الصحيح من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام فينبغي أولاً أن ندرس سيرة الإمام مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح، ثم بعد ذلك ندرس كتابه الصحيح حتى يعظم عندنا وفي قلوبنا المصنِّف والمصنَّف كذلك، فإذا استقر الأمر على الاستمرار في هذا الصحيح علمنا سلفاً قيمته وفضله، فيحسن بنا أن نبدأ هذا الدرس بذكر ترجمة الإمام مسلم.

ترجمة الإمام مسلم

هو: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد النيسابوري، بلداً وموطناً ونشأةً، القشيري. وقشير: هي قبيلة معروفة من قبائل العرب، يُنسب إليها الإمام ولاءً، هو إمام أهل الحديث في عصره، وأحد الحفّاظ المتقنين الأفذاذ.

أما مولده فقد اختُلف فيه بين سنة (٢٠٤هـ أو ٢٠٦هـ)، والصحيح هو القول الثاني؛ لأن الإمام قد مات سنة (٢٦١هـ) عن (٥٥) عاماً، فهذا يرجّح القول الثاني وهو أن مولده كان سنة (٢٠٦هـ).



شيوخ الإمام مسلم

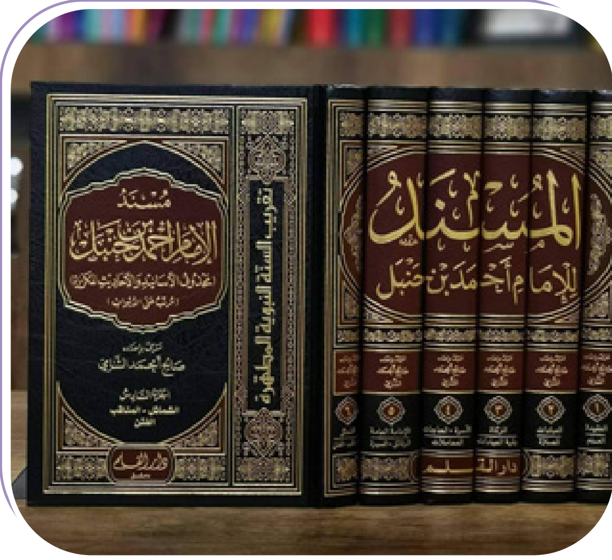
أول سماعه للعلم كان سنة (٢١٨هـ) أي: كان بعد مولده بـ (١٢) عاماً، معنى ذلك: أنه بدأ طلب العلم مبكراً، وهدي سلفنا في بداية طلبهم للعلم أنهم كانوا يقبلون على القرآن الكريم أولاً فيحفظونه ويتقنونه إتقاناً جيداً كما قال عبد الله بن مسعود: الحفظ الإتقان.



فلما فرغ من هذه المهمة التي هي بمثابة الخطوة والعتبة الأولى في طلب العلم دُفع به بعد ذلك إلى مجالس المحدثين، وكان ذلك في مقتبل عمره سنة (٢١٨هـ)، فسمع من يحي بن يحي التميمي وهو أكبر شيخ له، روى عنه نسخته عن مالك بن أنس الأصبحي إمام أهل المدينة.

تنبيه: وكثير من الناس يُخطئ في هذا الأمر فيظن أن يحي بن يحي راوي الموطأ عن الإمام مالك هو الذي يروي عنه الإمام مسلم في الصحيح، ولكن الأمر ليس كذلك، فإن يحي بن يحي الذي يروي عن مالك الموطأ إنما هو يحي بن يحي الليثي، وأما يحي بن يحي الذي يروي عنه مسلم عن مالك في صحيحه فإنما هو يحي بن يحي التميمي وليس الليثي، فليعلم هذا جيداً، لأن كثيراً من المحققين يخطئ في ذلك.

فيحي بن يحي التميمي هو أكبر شيخ للإمام مسلم، وهذا يدلنا أيضاً على أن مسلماً بدأ السماع في سن مبكرة. وحج في سنة (٢٢٠هـ) وهو أمرد أي: لا لحية له، فسمع بمكة من الإمام القعنبي وهو إمام جليل، وهو كذلك من أجلّ شيوخ الإمام مسلم، اسمه عبد الله بن مسلمة بن قعنب القعنبي، فهو أكبر شيخ له كذلك.



وسمع بالكوفة من أحمد بن يونس وجماعة. وسمع ببغداد أحمد بن حنبل وعبد الله بن مسلمة وآخرين. وسمع بالري محمد بن مهران وأبا غسان. وسمع بالحجاز سعيد بن منصور وهو إمام عظيم جليل من أئمة الهدى، له مصنف في العلم اسمه سنن سعيد بن منصور، وسمع كذلك أبا مصعب وآخرين. وسمع بمصر عمرو بن سواد المصري وحرملة بن يحيى صاحب الإمام الشافعي رضي الله تبارك وتعالى عنه.

وهذا يدل على أن الإمام مسلماً كان واسع الرحلة في أول عمره، والرحلة إنما هي سُنة من سنن علمائنا وهديهم، كانوا إذا بدأوا بطلب العلم أخذوا علم أهل بلادهم أولاً، فإذا أتوا عليه وفرغوا منه بدأوا بالتفكير في أن يرحلوا إلى أقرب البلاد ثم أقربها فأقربها، وهذا الذي فعله الإمام مسلم، وكانت له رحلة واسعة إلى بلاد الغرب والشرق حتى حصّل علوماً كثيرة، وجاء بمسموعات وفيرة.

وممن سمع منهم الإمام مسلم غير من ذكرنا أيضاً: أحمد بن سعيد الدارمي، ولا نستطيع أن نذكر كل الشيوخ الذين روى عنهم الإمام مسلم، إنما نذكر الأئمة العظام خاصة الذين أكثر عنهم مسلم في كتابه الصحيح؛ لأننا لو أردنا أن نتقصى شيوخ الإمام مسلم لما استطعنا، وعلى أية حال من الممكن أن نعد له ثلاثة آلاف شيخ، وكذلك البخاري كان له أكثر من هذا العدد.

فالإمام مسلم روى أيضاً عن أحمد بن سعيد الدارمي وابن منيع والحسن بن علي الخلال الإمام، وإسحاق بن منصور الكوسج، وهو تلميذ الإمام أحمد بن حنبل. وكذلك روى عن شيبان بن فروخ وزهير بن حرب وسويد بن سعيد، وزهير بن حرب هذا هو أبو خيثمة النسائي أول شيخ للإمام مسلم في صحيحه، وكذلك روى عن عبد بن حميد صاحب كتاب المنتخب -واسمه عبد الحميد بن حميد - وعبد الله بن أبي شيبة وعثمان بن أبي شيبة، وعبد الله بن أبي شيبة هو المعروف بأبي بكر بن أبي شيبة صاحب المصنف، مصنف ابن أبي شيبة الكبير الضخم، وهو إمام جبل كالجبال الرواسي في العلم. وعمرو الناقد وقتيبة بن

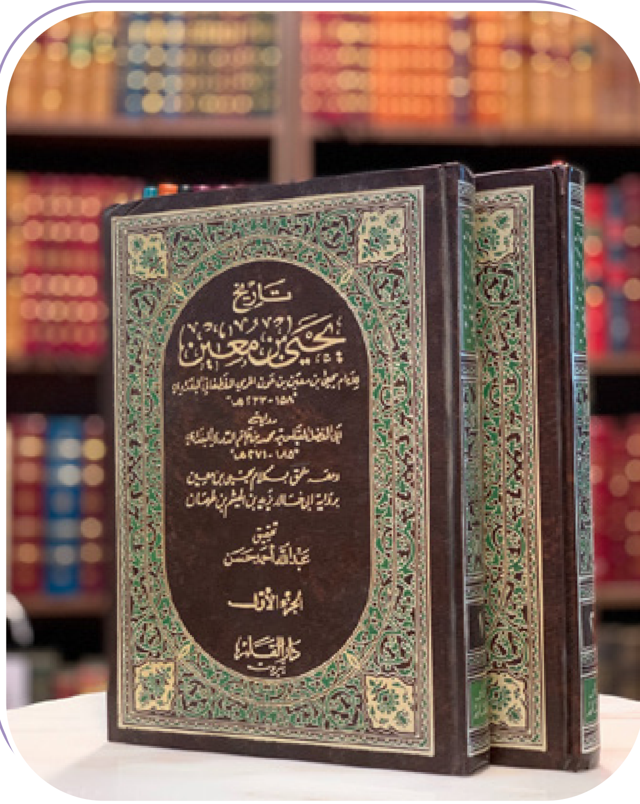
سعيد وابن رمح وابن المثنى وهارون الحمال وهناد بن السري صاحب كتاب الزهد، وابن معين إمام الجرح والتعديل صاحب التاريخ، وغيرهم بلغوا (٢٢٠) رجلاً، أخرج لهم مسلم في صحيحه.

وله شيوخ عدة سوى هؤلاء لم يخرّج عنهم في صحيحه

الرواة عن الإمام مسلم

أما الراوون عنه فهم كثرة، زادوا عن الثلاثين ألفاً، ولكنا لا نعد بعض هذا العدد الكثير إنما نعد منهم بعض الأئمة لنرى كيف أخذ هو عن الأئمة، وكيف أخذ عنه الأئمة.

فمن أخذ عنه صالح جزرة وهو إمام من أئمة الجرح والتعديل، وكذلك الإمام الترمذي روى عن الإمام مسلم كثيراً، كما روى أيضاً عن الإمام البخاري، فكثيراً ما يقول الإمام الترمذي في صحيحه: سألت محمداً عن فلان، وسألت محمداً عن هذا الحديث، فإذا قال ذلك فإنما هو محمد بن إسماعيل البخاري، وأما مسلم فهو شيخه، وتخرّج عليه الإمام الترمذي، ولكنه لم يرو عنه في جامعه في السنن إلا حديثاً واحداً، هو قوله ﷺ: (أحصوا هلال شعبان لرمضان) الحديث السابع والثمانون بعد المائة السادسة.



وكذلك الذي روى عن الإمام مسلم هو إبراهيم بن محمد بن سفيان العابد الفقيه، وهو الذي روى عنه كتابه الصحيح.

إذاً: هذا الكتاب الذي بين يديك وهو الصحيح عن الإمام مسلم من رواية إبراهيم بن محمد بن سفيان العابد الفقيه.

وكذلك من الراوين عنه ابن أبي حاتم ابن الإمام وهو إمام كذلك، وأحمد بن سلمة الحافظ - أحمد بن سلمة حافظ نيسابور- وكان قرينه -أي: كان معه في طبقة واحدة، يعني: مثله تماماً في الحفظ والضبط والإتقان والمعاصرة- وقد لزم أحمد بن سلمة الحافظ النيسابوري الإمام مسلم في رحلته إلى البصرة وغيرها.

وإمام الأئمة ابن خزيمة صاحب صحيح ابن خزيمة روى عن الإمام مسلم، وهو تلميذه وخرّيجه كذلك، وأبو العباس السراج الإمام، وأبو عوانة الإسفراييني. وغيرهم كثير.

مكانة الإمام مسلم

أما الإمام مسلم فقد حاز مكانة عالية ومنصباً رائعاً عند أهل العلم، فأثنوا عليه بكلمات هي أحلى من العسل، فقال شيخه إسحاق بن منصور الكوسج في حقه: لن نعدم الخير ما أبقاك الله للمسلمين.

هذا كلام خرج من الشيخ لتلميذه، فإذا كان الأمر كذلك فما بالكم بالشيخ القائل لهذه المقولة؟ فإن إسحاق بن منصور الكوسج رباه أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، وهاهو يقول هذا الكلام الطيب العذب في الإمام مسلم، وهذا يدلنا على مكانة مسلم عند الأئمة من شيوخه وأساتذته، فإذا كان هذا الإمام بهذه المنزلة عند شيوخه فلا شك أنه لا بد أن يكون أعظم من ذلك عندنا.



وقال أيضاً إسحاق بن راهويه وهو شيخه كذلك: أي رجل يكون هذا؟ يعني: يستبشر له بمستقبل باهر مذهل، أي: لو عاش هذا الرجل فإنه سيكون له أمر عظيم.

وقال ابن أبي حاتم: كان مسلم ثقة من الحفاظ، كان ابن أبي حاتم وأبوه أبو حاتم يأتون بألفاظ الجرح والتعديل بلطف شديد جداً، فإذا قال أبو حاتم: صدوق فإنما هذا يعني عنده: أنه ثقة؛ وذلك لأن أبا حاتم نفسه قال: مسلم بن الحجاج صدوق، فأنت إذا وقفت على هذه الكلمة فستقول: كيف يكون صدوقاً وهو إمام متقن! فهذه الكلمة عند الإمام أبي حاتم تعني ما فهمت أنت: أنه إمام متقن، ولذلك لا بد من معرفة مصطلحات أهل العلم؛ لأن فيها معرفة كيفية الحكم على الرجال وعلى الرواة وعلى الأحاديث كذلك، فمثلاً الإمام البخاري إذا قال في الراوي: فيه نظر، فهو ضعيف، وإذا قال: ضعيف فلا تحل الرواية عنه؛ لأن خبره منكر.



وقال ابن بشار وهو محمد من شيوخ الإمام مسلم أيضاً: حفّاظ الدنيا أربعة -أي في ذلك الزمان-: أبو زرعة بالري، ومسلم بنيسابور، والبخاري بخارى، والدارمي بسمرقند، فعد من بين حُفّاظ الدنيا في ذلك الزمان مسلماً بنيسابور، وقدّمه على شيخه محمد بن يحيى الذهلي، وربما كان ذلك لاتساع رحلة الإمام مسلم.

وأثنى عليه كذلك أبو عبد الله بن الأخرم، وابن الصلاح أثنى عليه خيراً في كتابه على صحيح مسلم الذي سمّاه صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط، قال: كان له في علم الحديث أضراب لا يفضلهم وآخرون يفضلونه، فرفعه الله تبارك وتعالى بكتابه الصحيح هذا إلى مصاف النجوم، وصار إماماً حجة يبدأ به ويعاد في علم الحديث وغيره من العلوم النافعة.

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وفاة الإمام مسلم

وأما وفاة الإمام مسلم فتوفي سنة٢٦١هـ كما قلنا عن عمر يناهز (خمسة وخمسين) عاماً.

وقيل في سبب وفاته ما جاء عن أحمد بن سلمة رفيقه في رحلته وصاحبه كذلك أنه قال: عُقد لـمسلم مجلس للمذاكرة، ومجلس المذاكرة يختلف عن مجلس التحديث، فمجلس التحديث هو أن يتهيأ الشيخ للتحديث إما إلقاءً وإما عرضاً، أن يتكلم الشيخ ويلقي ما عنده من أسانيد وأحاديث على الطلاب، وإما أن يكون المجلس عرضاً على الشيخ، أن يتكلم المستملي ويسمع الشيخ ثم يجيز بعد ذلك.

أما مجلس المذاكرة فهو مجلس أشبه بالمسامرة والأخذ والرد، فمجلس المذاكرة عُقد للإمام مسلم وذُكر فيه حديث لم يعرفه الإمام مسلم، وكان هذا أيضاً أمراً منكراً عند أهل المجلس، كما أنه منكر عند مسلم كيف يفوته هذا الحديث؟ فانصرف إلى منزله بمجرد أن سمع هذا الحديث الذي لم يعرفه، وأوقد السراج وقال لمن في الدار: لا يدخل أحد منكم عليّ، وهذا فهم طالب العلم، فإنه لا يستطيع التركيز ولا البحث الحقيقي إلا إذا كان في خلوة، فلا يمكن أبداً لطالب العلم أن يعيش في وسط زوجة وأولاد وهذا يصيح وهذا يطلب وهناك شيء من الضجّة.

كيف يحصِّل العلم؟ فلا بد أن يكون لك في بيتك غرفة خاصة بك تدخل -بعد أن تقضي مصالح أهلك- وتغلق عليك بابك، ثم تختلي بـالبخاري وتختلي بمسلم وبكتب أهل العلم، هذا إذا أردت علماً وأردت تحصيلاً.

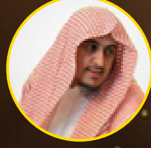
فدخل مسلم وأوقد السراج وقال لمن بالدار: لا يدخل أحد منكم عليّ، فقيل له: أُهديت إلينا سلة تمر، فقال: قدّموها ولا يدخل أحد منكم عليّ، فقدّموها فصار يأكل تمرة ويبحث: يأكل ويبحث يأكل ويبحث حتى أصبح وقد فني التمر ووجد الحديث.

هذه القصة رواها البيهقي والحاكم ثم زاد الحاكم قال: وبلغني أنه منها مات، أي: من سلة التمر.

على أية حال منها أو من غيرها فقد مات سنة (٢٦١) هـ.

قراءة الحديث

تحت ضغط الثقافة الغالبة



الشيخ إبراهيم السكران

فك الله أسره*

ومما أثاره هؤلاء فيما يتعلق بمرويات الصحابة قول بعضهم: "ما مدى موضوعية اعتبار «عدالة الصحابة» بإطلاق، حتى صارت القاعدة الحديثية أن جهالة الصحابي في السند لا تضر في التوثيق، حيث لا يمكن أن نجزم بعصمتهم عن الخطأ والنسيان والتدليس والكتم والخطأ العمد؟ بدليل شواهد السنة الكثيرة على مثل هذه الأفعال".



* إبراهيم السكران، سلطة الثقافة الغالبة، ص١٤٤وما بعدها.

واﻟﺠﻮاب ﻋﻦ ﻫﺬا أن ﻳﻘﺎل ﺑﻜﻞ إﻳﺠﺎز:

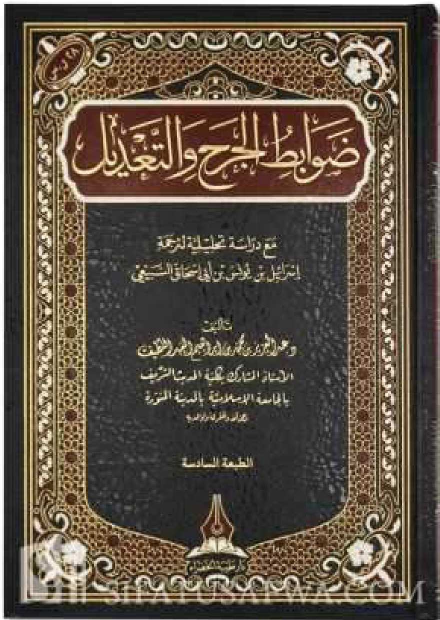
ﺑﻘﻴﺔ اﻟﺮواة اﻋﺘﻤﺪﻧﺎ ﻓﻲ ﺗﻮﺛﻴﻘﻬﻢ ﻋﻠﻰ أﺋﻤﺔ اﻟﺠﺮح واﻟﺘﻌﺪﻳﻞ، أﻣﺎ اﻟﺼﺤﺎﺑﺔ اﻟﺬﻳﻦ اﺣﺘﻔﻮا ﺑﺮﺳﻮل اﻟﻠﻪ ﷺ وﻧﻘﻠﻮا ﻟﻨﺎ ﺳُﻨﺘﻪ ﻓﻘﺪ اﻋﺘﻤﺪﻧﺎ ﻓﻲ ﺗﻮﺛﻴﻘﻬﻢ ﻋﻠﻰ آﻳﺎت ﻗﺮآﻧﻴﺔ، وأﺣﺎدﻳﺚ ﻧﺒﻮﻳﺔ ﻣﺴﺘﻔﻴﻀﺔ، ﻓﻲ ﺗﻌﺪﻳﻠﻬﻢ واﻟﺜﻨﺎء ﻋﻠﻰ ﻋﻠﻤﻬﻢ، واﻟﻘﺮآن واﻟﺤﺪﻳﺚ أدق ﻣﻦ ﻛﻼم ﻋﻠﻤﺎء اﻟﺠﺮح واﻟﺘﻌﺪﻳﻞ ﻗﻄﻌﺎً.

وﺧﻼﺻﺔ اﻟﺠﺮح واﻟﺘﻌﺪﻳﻞ ﻳﻘﻮم ﻋﻠﻰ رﻛﻨﻴﻦ «اﻟﻌﺪاﻟﺔ»، و«اﻟﺤﻔﻆ»:

أﻣﺎ «ﻋﺪاﻟﺔ اﻟﺼﺤﺎﺑﺔ» اﻟﻤﺤﻴﻄﻴﻦ ﺑﺮﺳﻮل اﻟﻠﻪ ﷺ ﻓﻬﻲ ﺛﺎﺑﺘﺔ ﺑﺎﻟﻨﺼﻮص اﻟﻘﻄﻌﻴﺔ ﻣﻦ اﻟﻘﺮآن واﻟﺴﻨﺔ اﻟﻤﺘﻮاﺗﺮة، وأﻣﺎ «ﺣﻔﻆ اﻟﺼﺤﺎﺑﺔ» اﻟﺬﻳﻦ ﻳﺮوون اﻟﺴُّﻨﺔ؛ ﻓﺈن اﻟﺤﻔﻆ ﻳُﻌﺮف ﺑﻤﻘﺎرﻧﺔ رواﻳﺔ اﻟﺮاوي ﺑﻐﻴﺮه، وﻋﻠﻤﺎء اﻟﺠﺮح واﻟﺘﻌﺪﻳﻞ ﻫﺬا ﻫﻮ ﻛﻞ ﻋﻤﻠﻬﻢ، وﻫﻮ ﻣﻘﺎرﻧﺔ اﻟﻤﺮوﻳﺎت.

وﻻ ﻳُﻌﺮف أن أﺣﺪاً ﻣﻦ اﻟﺼﺤﺎﺑﺔ «ﻛﺜﻴﺮ اﻟﺨﻄﺄ» أو «اﻷوﻫﺎم» ﻓﻲ اﻟﺮواﻳﺔ إذا ﻗﻮرﻧﺖ ﻣﺮوﻳﺎﺗﻪ ﺑﻤﺮوﻳﺎت ﻏﻴﺮه ﻣﻦ اﻟﺼﺤﺎﺑﺔ، ﺑﻞ أﺣﺎدﻳﺚ اﻟﺼﺤﺎﺑﺔ دوﻣﺎً ﻣﺘﻮاﻃﺌﺔ ﻋﻠﻰ ﻧﻔﺲ اﻟﻤﻌﻨﻰ، وإذا ﻛﺎن اﻟﻤﻌﺘﺮض ﻗﺪ ﻗﺎرن رواﻳﺔ أﺣﺪ اﻟﺼﺤﺎﺑﺔ ﺑﻤﺮوﻳﺎت ﻏﻴﺮه واﻛﺘﺸﻒ أﻧﻪ ﻛﺜﻴﺮ اﻟﺨﻄﺄ ﻓﻠﻴﻌﺮض ﻫﺬه اﻟﻨﺘﺎﺋﺞ وﺳﻨﺴﻠﻢ ﻗﻄﻌﺎً أن ﺛﻤﺔ ﻧﻘﺼﺎً ﻓﻲ اﻟﺤﻔﻆ، واﻟﺮﻫﺎن ﻋﻠﻰ اﻟﺒﺮﻫﺎن.

ﺛﻢ إن اﻟﺤﺪﻳﺚ ﺣﻮل «ﺣﻔﻆ اﻟﺼﺤﺎﺑﻲ» ﻛﻼم ﻏﻴﺮ ﻋﻤﻠﻲ وﻻ ﻣﺜﻤﺮ، وﺳﺒﺐ ذﻟﻚ أن أﺻﻮل اﻹﺳﻼم وﻗﻮاﻋﺪ اﻟﺸﺮﻳﻌﺔ ﻻ ﺗﺮﺗﺒﻂ ﺑﺄﺣﺎدﻳﺚ ﻣﻨﻔﺮدة ﻻ ﻳﺮوﻳﻬﺎ إﻻ ﺻﺤﺎﺑﻲ ﻏﻴﺮ ﻣﺸﻬﻮر، ﺑﻞ ﻛﻞ اﻷﺣﺎدﻳﺚ اﻟﺘﻲ ﻓﻴﻬﺎ أﺻﻮل اﻹﺳﻼم وﻗﻮاﻋﺪ اﻟﺸﺮﻳﻌﺔ رواﻫﺎ ﻣﺸﺎﻫﻴﺮ اﻟﺼﺤﺎﺑﺔ، ﻓﺤﺘﻰ ﻟﻮ ﻗﺪﺣﻨﺎ ﻓﻲ ﺣﻔﻆ اﻟﺼﺤﺎﺑﺔ ﻏﻴﺮ اﻟﻤﺸﻬﻮرﻳﻦ، ﻓﺈن أﺻﻮل أﺣﻜﺎم اﻟﺸﺮﻳﻌﺔ ﻣﺴﺘﻘﺮة ﺑﺮواﻳﺔ ﻏﻴﺮﻫﻢ ﻣﻦ ﻣﺸﺎﻫﻴﺮ اﻟﺼﺤﺎﺑﺔ.

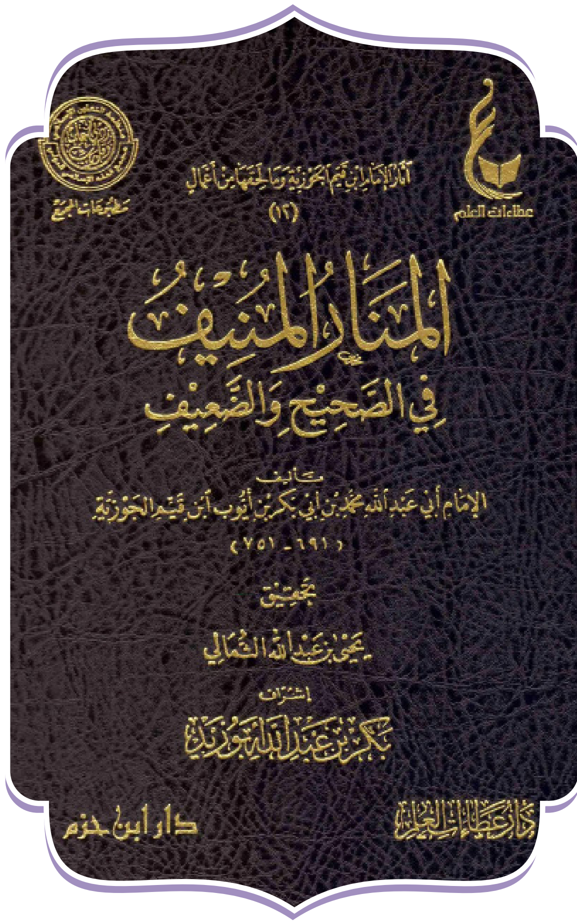


فكرة عرض الأحاديث على القرآن والعقل

ومما كثر رواجه أيضاً أطروحة محاكمة السُّنة إلى بقية مصادر التشريع، كما يعبر بعضهم فيقول: "هل يمكن القبول المطلق بالسنة لمجرد ثبوت الحديث؟ باعتقادي أن الحديث لا بد أن يمر على عدة اعتبارات، أهمها القرآن وعموم التشريع ومقاصد الدين والعقل أيضاً".

والجواب أن يقال لا مانع من التمحيص والتحقيق، بل هو مطلوب، ولكن بشرط عزيز وهو أن نحترم «المنهج العلمي» فنهتم باستيعاب المعطيات، ونفحص ثبوت الوقائع، ونقدم تفسيرات موضوعية وعقلانية.

وفكرة اعتبار الحديث ببقية مصادر التشريع هذه كلها معايير مطبقة أصلاً، لكن بمنهج علمي مركب، ويمكن للقارئ مراجعة «المنار المنيف» لابن القيم، ليطالع نموذجاً لذلك، بل هذا هو عمل المحدثين وهو «مقارنة المرويات»، ولكن بشرط التحليل المنهجي العلمي المنظم، وليس التحليل الاستتباعي الذي يسعى لإخضاع السنة للثقافة الغربية المهيمنة.



وما أكثر ما يقع هذا الخلط، أعني الخلط بين «العقل» و«الذوق الشخصي»، فأما العقل: (مثل: عدم اجتماع النقيضين، ولا يكون الجزء أكبر من الكل، إلخ) فهذا محترم في الشريعة، وهو من أهم المعايير التي استعملها المحدثون في فرز السنة.

أما الذوق الشخصي: (مثل: استهجان تنصيف الميراث للمرأة، والتعدد، إلخ) فهذا هو الذي يجب أن يخضع للقرآن والسنة، وليس أن يخضعا له؛ لأنه مجرد ميول لأمة غالبة تفرض على بقية الأمم معاييرها، والذي يقوم به هؤلاء أنهم يحاكمون المرويات إلى «ذوق الأمم الغالبة» وليس إلى «القواعد العقلية الموضوعية».

هذه بعض المناقشات لأفكار رأيتها تم تداولها في بيئتنا المحلية في المنتديات والصوالين الفكرية والمجموعات البريدية الثقافية، والحقيقة أن الأمر أوسع من ذلك، فإنني حين أقرأ في الكتب الفكرية المعنية بإعادة قراءة النص والتراث تحت ضغط الثقافة الغالبة، ألاحظ أن هناك ما يشبه الخط العام في التعامل مع «الكتاب والسنة»..

فتعاملهم مع «السنة النبوية» قائم على التشكيك بمروياتها، وفتح أوسع أبواب الاحتمالات والفرضيات لعدم صدقيتها، كالطعن في مصداقية أبي هريرة، وافتراض التدخل السياسي في الأسانيد، وافتراض عدم خضوع المتون للفحص، والتشكيك في عملية تدوين السنة، ونحو ذلك، ولا تكاد تجد هذه الكتب الفكرية تحاول أن تدخل بشكل موضوعي في تفسير مضمون الأحاديث النبوية.



أما في التعامل مع «القرآن الكريم» فإن أغلب الكتب الفكرية تتحاشى الطعن في الثبوت التاريخي له، ويكون أكثر عملها في «تأويل النصوص» لتوافق فكر الغربي المنتصر. وكنت أظن أن هذه الحالة (تأويل القرآن، تكذيب السنة) هي حالة فكرية جديدة، ولذلك فلا تَسَل عن صدمتي حين علمت أن هذه الحالة بحذافير نظريتها قد توصل لها المتكلم الشهير بشر المريسي (ت ٢١٨هـ) بشكل مبكر في تاريخ الإسلام أثناء حواراته مع علماء الشريعة، حيث يقول بشر المريسي: "إذا احتجوا عليكم بالقرآن فغالطوهم بالتأويل، وإذا احتجوا بالأحاديث فادفعوها بالتكذيب"[١].

فتأمل هذه «النظرية المريسية» التي قوامها (تأويل القرآن وتكذيب السنة)، ثم تنقّل ببصرك بين الكتّابات الفكرية المنحرفة اليوم، وستتعجب من وقع الحافر على الحافر، وأن ترى بشر المريسي يعاد إنتاجه اليوم.

١. انظر: ابن تيمية، درء التعارض، (٥/٢١٨)، وابن القيم، الصواعق المرسلة، (١٠٣٨/٣-١٠٣٩) تحقيق: علي الدخيل، دار العاصمة، وبنحوها في «النقض للدارمي»، (١/٣٩٤)، تحقيق: رشيد الألمعي، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

وقد راج التشكيك في السُّنة اليوم بصيَغ متفاوتة، فبعض هؤلاء المنتسبين للفكر المعاصر يقول: "لا نأخذ إلا بما في القرآن فقط"، وطائفة أخرى تقول: "نأخذ القرآن والسنة التي لا تخالف القرآن أما أي حديث نرى أنه يخالف القرآن فلا نأخذ به". وأمثال هذه المقولات سبق أن عرض لها ابن حزم بمناقشة ممتعة يقول فيها:



"ونسأل قائل هذا القول الفاسد: في أي قرآن وُجد أن الظهر أربع ركعات، وأن المغرب ثلاث ركعات، وأن الركوع على صفة كذا، والسجود على صفة كذا، وصفة القراءة فيها والسلام، وبيان ما يجتنب في الصوم، وبيان كيفية زكاة الذهب والفضة والغنم والإبل والبقر، ومقدار الأعداد المأخوذ منها الزكاة، ومقدار الزكاة المأخوذة، وبيان أعمال الحج من وقت الوقوف بعرفة وصفة الصلاة بها وبمزدلفة ورمي الجمار وصفة الإحرام وما يجتنب فيه، وقطع يد السارق، وصفة الرضاع المحرم، وما يحرم من المآكل، وصفة الذبائح والضحايا، وأحكام الحدود، وصفة وقوع الطلاق، وأحكام البيوع وبيان الربا. والأقضية والتداعي والأيمان، والأحباس والعمرى والصدقات، وسائر أنواع الفقه؟! وإنما في القرآن جُمَل لو تُركنا وإياها لم ندرِ كيف نعمل فيها، وإنما المرجوع إليه في كل ذلك النقل عن النبي ﷺ... ولو أن امرءاً قال "لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن" لكان كافراً بإجماع الأمة ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل، وأخرى عند الفجر؛ لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه اسم صلاة، ولا حد للأكثر في ذلك..."[٢].

٢. ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: أحمد شاكر، تصوير دار الآفاق، بيروت، (٢/٧٩-٨٠).

تفسير القرآن بالسنة النبوية

د. سلمان العودة

فك الله أسره*

ما أحوجنا إلى كتاب في التفسير يفسر كلام الله تعالى بكلام رسول الله ﷺ؛ لأننا نعلم أن الرسول ﷺ قد أُمِرَ وكُلِّفَ ببيان القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥] فالرسول ﷺ مكلف بالبيان، وفي سورة آل عمران يقول الله تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة:٢]

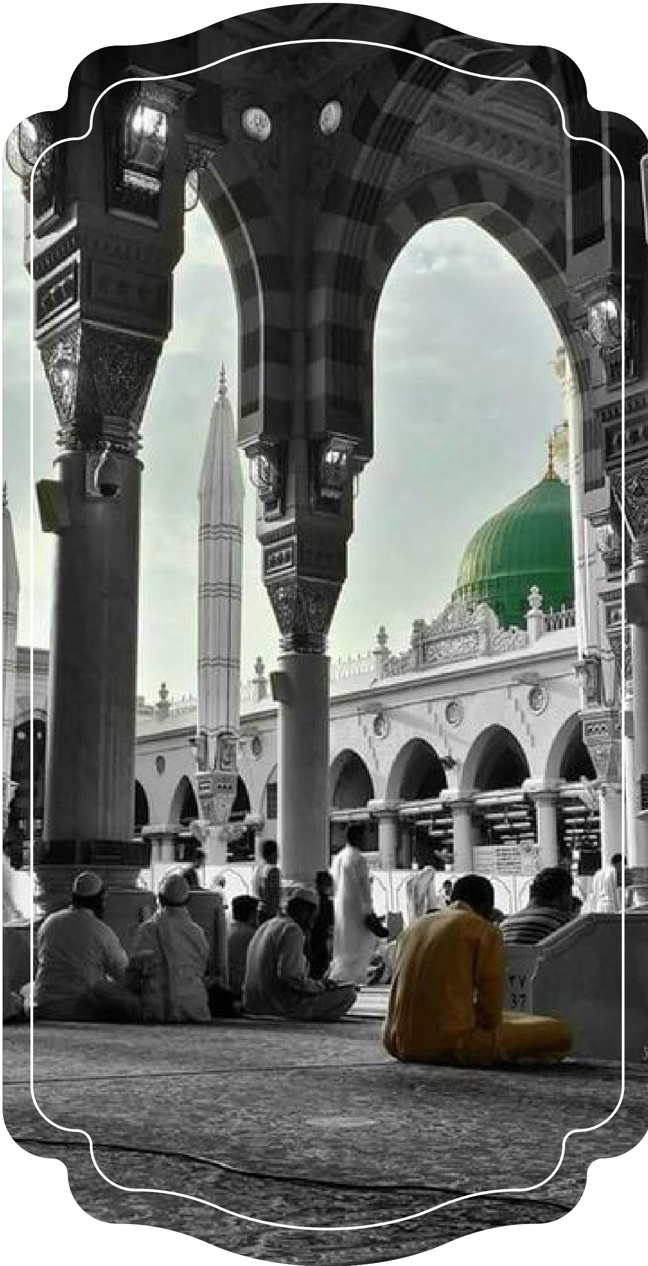


* المقال مقتطف من محاضرة (مفهوم التجديد في الإسلام) للدكتور سلمان العودة، باختصار يسير، موقع (إسلام ويب)، رابط إلكتروني:bit.ly/3T8wgQS.

فلاحظ هذه المهمات الثلاث للرسول ﷺ:

أولاً: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾

وهذا هو البلاغ اللفظي الذي قام به الرسول ﷺ، حيث كان يتلو القرآن على الناس، ولا يترك منه حرفاً واحداً، حتى الآيات التي نزلت في معاتبة الرسول ﷺ في بعض المواقف، كان يتلوها على الناس ﷺ، فيقف أمام الناس ويقول لهم -مثلاً-: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧] فينقل الآيات التي فيها عتاب له ﷺ، كما ينقل الآيات التي فيها مديح وثناء عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] لأن مهمته ﷺ هي البلاغ.



هذا هو معنى قوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾

ثانياً: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾

والتزكية هي: تربيتهم. إذاً لم تكن مهمته فقط مهمة علمية محضة، مثلما يظن بعض الناس، فيقول: أنا مهمتي أن أقول للناس هذا حلال وهذا حرام، وبعد ذلك يفعلوا ما يشاءون، لا، بل كانت مهمة الرسول ﷺ فوق ذلك، ويزكيهم، بمعنى: أنه يربيهم على الالتزام الصحيح والتطبيق العملي للقرآن الكريم، ولذلك صار النبي ﷺ وأصحابه تطبيقاً وترجمة عملية للقرآن الكريم؛ حتى قالت عائشة رضي الله عنها كما في صحيح مسلم لما سألها هشام بن سعد عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: هل تقرأ القرآن؟ قال: نعم، قالت: كان خُلُقَه القرآن.

وكذلك جابر بن عبد الله كما في صحيح مسلم في حديثه الطويل في الحج، يقول: ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو أعلم به منا، فما عمل من شيء عملنا مثله.

فكان الرسول ﷺ يزكي الناس بالقرآن الكريم قولاً وفعلاً: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾.

ثالثاً: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

فما معنى: ويعلمهم الكتاب؟ هل معناه يقرأ عليهم الكتاب؟ لا، فهذه قد مرَّ ذكرها: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾. إذاً تعليم الكتاب غير تلاوة الكتاب، فيعلمهم الكتاب معناه: يشرح لهم القرآن الكريم، ولذلك لا شك في أنه ما من آية تحتاج إلى إيضاح إلا وبيّنها الرسول ﷺ بقوله أو بفعله، وقد عنِي العلماء بجمع هذا التفسير في كتب كثيرة، بعضها مخطوط، وبعضها مفقود، وبعضها مطبوع، ولو راجعتَ كتاب (الدر المنثور) للسيوطي، لوجدته جمع طائفة كبيرة جداً من هذه الأحاديث، ولو راجعت الجزء الثاني من (جامع الأصول) لوجدتَ معظم الجزء مخصصاً لكتاب التفسير، ونقل التفسير النبوي للقرآن الكريم.

القرآنيون



إذاً الرسول ﷺ بيَّن كل ما يحتاج إلى بيان من القرآن الكريم، وهذا الأمر في غاية الخطورة؛ لأمور: إننا -الآن- نجد طوائف كثيرة من المنتسبين إلى الإسلام -وليسوا بمسلمين- أصبحوا يرفضون السنة كلها، ففي شبه القارة الهندية جماعات يُسمُّون بالقرآنيين، أو بأهل القرآن، وهذه الجماعات ترفض السنة النبوية كلها، وتعتمد فقط على القرآن الكريم...

والمهم هو أننا نعلم أن هناك من يؤمن بالقرآن ويرفض السنة، كما أننا نعلم في المقابل أن كثيراً من الذين يؤمنون بالسنة أصبحوا يحاولون أن يرفضوا كثيراً من الأحاديث الواردة مما لا يتفق مع أهوائهم وأمزجتهم.

فنحن بهذا العمل الذي نقوم به -تفسير القرآن بالسنة النبوية- نربط بين المصدرين، نربط القرآن بالسنة، والسنة بالقرآن؛ بحيث لا يمكن أن ينفك أحدهما عن الآخر، على الأقل في أذهان جماهير

المسلمين، فنقول لمن يؤمن بالقرآن: لا بد أن تؤمن بالسنة، لأن القرآن أحال إلى السنة، ونقول لمن يؤمن بالقرآن -أيضاً- ويرفض بعض السنة: هذه السنة التي ترفضها هي بيان لهذا القرآن الذي تقبله، ولذلك فإن من المهم جداً أن يتجه بعض طلبة العلم كنوعٍ من أنواع التجديد، إلى مشروعٍ من مشاريع التجديد إلى تفسير القرآن الكريم بسنة النبي ﷺ.



وكذلك لا بد من استبعاد ما لا يتفق مع الأصول الشرعية المقررة، والدلالات اللغوية الصحيحة من التفاسير التي سادت بين الناس، وكثيراً ما تقرأ -وخاصة في هذا العصر- ألواناً من التفسير ليس لها علاقة بالآية، يعني: يُسَرِّح المفسر أو الكاتب طرفَه وفكرَه وخيالَه، ثم يكتب ما شاء له قلمُه أن يكتب، ويسمي هذه الكتابة تفسيراً، ويعتبر أنها شرحٌ للقرآن الكريم، وهذا لا شك أنه مَزَلَّةُ أقدام.

التجديد في دراسة الأسانيد

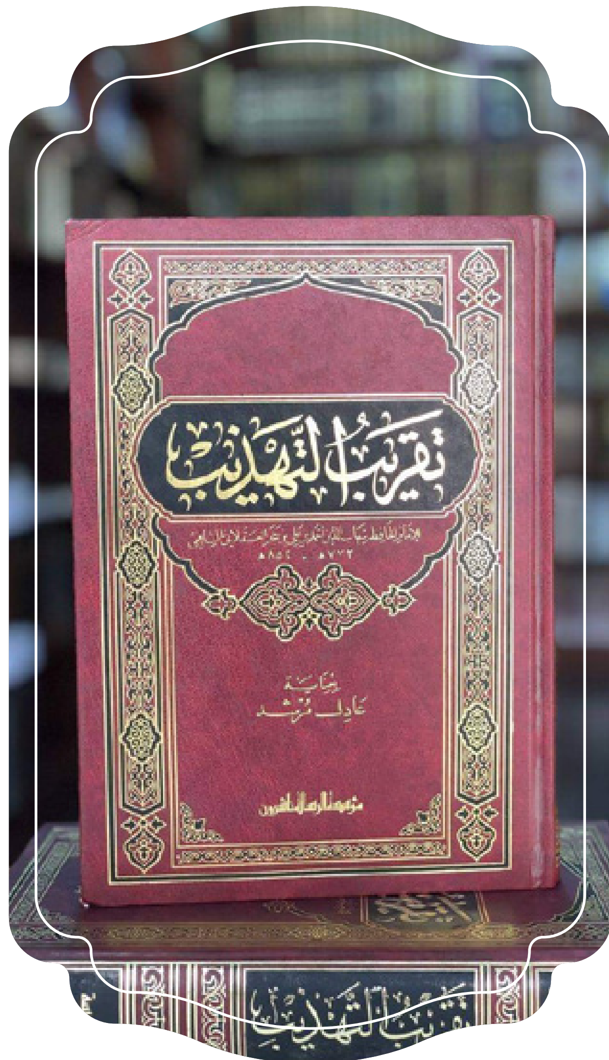
ومَثَلٌ آخرُ في مجال العلوم الإسلامية، في مجال الحديث والفقه: مسألة التجديد في دراسة أسانيد السنة النبوية، أي: تصحيح الأحاديث وتضعيفها، وهذه في أمس الحاجة إلى تجديد، وأعلم أن هناك علماء لهم جهود، ولعل من أبرز من نشاهده في هذا المجال: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، فهو مِن أحسن مَن خدم السنة في هذا العصر، وليس هو الوحيد في هذا الباب، بل يوجد من علماء شبه القارة الهندية، ومن علماء مصر كالشيخ أحمد محمد شاكر، ومن علماء المملكة كسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، ومن بعض الشباب الذين يهتمون بالسنة ولهم جهود طيبة.

لكن مع ذلك -في اعتقادي- أننا بحاجة إلى التجديد في مجال دراسة أسانيد السنة، فبعض الشباب مثلاً ظنوا أن دراسة الأسانيد وتصحيح الأحاديث مسألة آلية، يأتي بكتاب (تقريب التهذيب) للحافظ

ابن حجر الذي حكم فيه على الرواة إجمالاً، ويأتي بالرجال ويفتح التقريب، ويقول: الرجال ثقات، إذاً الإسناد صحيح، أو يعتمد على تصحيح الألباني أو غيره على حديثٍ ما، ويعتبر أنه مُتَعَبَّد بهذا الشيء، وقد ينتقد من يخالفه، وهذه لا شك تحتاج إلى إبعاد هذه المفاهيم عن نفوس الناس.

فنحن إذا كنا لا نقبل من الفرد أن يقلد إماماً قديماً في تصحيح الأحاديث وتضعيفها ويعرض عما عداه، فكيف بإمام معاصر! هو أولى أن لا يقبل حكمه على غيره، وليس من المقبول ما ذكره أحدهم في ترجمة الشيخ الألباني حفظه الله أنه قال: إن الألباني معاصر واطلع على ما كتبه السابقون وبذلك عرف أسانيد وطرق لم يعرفها غيره فجاء حكمه شاملاً. فهذا غير صحيح؛ لأنه لا أحد يمكن أن يدعي أن علم السنة النبوية محفوظ عند شخص واحد أبداً، والألباني في الوقت الذي يتعقب هو غيرَه من العلماء، يتعقبُه غيرُه، فهو بشر كغيره، صحيحٌ أنه أفضل من كثير من معاصريه؛ لكن ليس معنى ذلك أن العلم توقف عند الشيخ الألباني.

إذاً نحن بحاجة إلى عشرات الرجال من أمثال الشيخ الألباني، والشيخ أحمد شاكر وسواهم، يهتمون بدراسة الأسانيد ومعرفتها معرفة صحيحة.



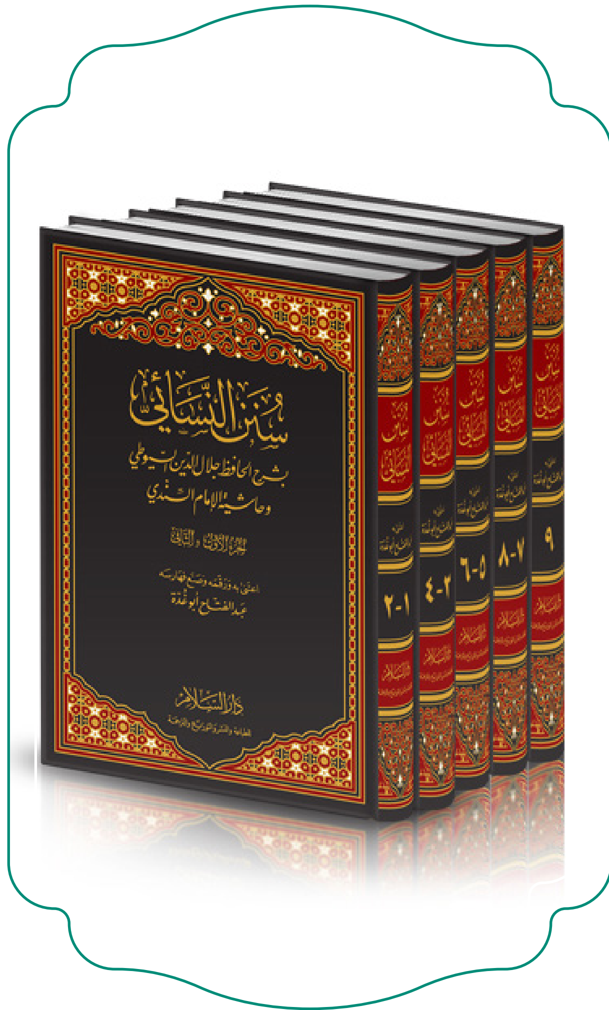
نقد المتون

وهناك أمر آخر وهو مسألة نقد المتون، لأنه أحياناً قد يكون السند ظاهره سليم ليس فيه آفة أو علة توجب ردَّه، لكن المتن فيه علة، وهذه أيضاً مشكلة؛ لأن الكلام هذا هو حقٌّ في ذاته، لكن أحياناً يكون حقاً يراد به باطل، فالبعض يتكئ كثيراً على هذه القضية في رد كثير من الأحاديث، بحجة أن هذا المتن فيه عِلة فيرده، وقد أكثر من هذا الأمر، وكانت العلة في الغالب -عنده- هي مجرد أن الحديث لا يقنعه هو، فيقول أنا أرفض هذا الحديث لأنه يعارض القرآن...

رأيت شاعرة مصرية -لا أقول: عالمة ولا عالم، ولا طالب علم، ولا عُوَيْلِم، لكن شاعرة مصرية!- ولا أرغب أن أذكر اسمها، ذكرت حديث الأعمى الذي جاء للنبي ﷺ يقول: إن لي قائد لا يلائمني. فقال ﷺ: هل تسمع النداء؟ قال: نعم. قال: فأجب. فقالت: أنا لا أقبل هذا الحديث لأن في متنه علة، فهي حفظت الكلمة نفسها... وركبتها، لأن في متنه علة، فما هي العلة؟ قالت: لأنه يعارض القرآن، كيف يعارض القرآن يا أمة الله؟! قالت: يعارض القرآن لأن القرآن جاء بالتيسير والسماحة والرفق، ومن غير المعقول أن الرسول ﷺ يطالب هذا الكفيف أن يمشي إلى المسجد وهو على هذه الحالة، إذاً الحديث يعارض القرآن!

وأقول: إن كلمة: إن الحديث في متنه علة، كلمةُ حق، وقد يُراد بها أحياناً باطل، ونحن لا نريد بها الباطل، بل نريد الحق، لأنه هناك أحاديث -وإن كان ظاهر إسنادها الصحة- فيها علة، وتعرف العلل من مخالفة هذه الأحاديث لأحاديث أخرى قد ترد عن نفس الصحابي وبنفس الإسناد، والأمثلة لذلك كثيرة جداً موجودة في كتب أهل العلم.

ولعل مِن أكثر مَن عني بهذا الباب هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فله في نقد الأحاديث حاسة قلما توجد عند غيره من العلماء، وأذكر لكم مثالاً واحداً: وهو حديث عائشة عند النسائي والدارقطني وغيرهما أنها قالت: كنت مع النبي ﷺ في سفر فقَصَرَ وأتْمَمْتُ، وأفْطَرَ وصُمْتُ -وذلك في عمرة في رمضان- فلما رجعنا قلت: يا رسول الله، قصرتَ وأتممتُ، وأفطرتَ وصمتُ، فقال لي: أحسنتِ يا عائشة.



فابن تيمية رحمه الله قال: هذا الحديث باطل ومكذوب ولا يصح عن رسول الله ﷺ، مع أن ظاهر إسناده الصحة، والدارقطني يقول: إسناده صحيح، فلماذا باطل؟ قال: باطل من عدة وجوه:

أولاً: إنه لم يحصل أن الرسول ﷺ اعتمر في رمضان -هذه واحدة- وأما فتح مكة وإن كان في رمضان، لكن النبي ﷺ لم يعتمر فيه.

ثانياً: إن عائشة لا يمكن أن تصوم والنبي ﷺ حاضر معها إلا بإذنه؛ لأن النبي ﷺ نهى أن تصوم المرأة وزوجها شاهد إلا بإذنه.

ثالثاً: إن القصر هو السنة. فقد قالت عائشة رضي الله عنها: فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فزيدت في صلاة الحضر، وأقرت في صلاة السفر على الفريضة الأولى. فكيف تعمد عائشة -مع ذلك- إلى أن تزيد في صلاة السفر لتصبح أربع ركعات! ثم الأغرب والأدهى والأمر: هو أن يقول لها النبي ﷺ بعد ذلك كله: أحسنتِ يا عائشة! فيصف فعلها بالإحسان، مع أنه أقل ما يقال فيه إنه مخالف للسنة.

إذاً من خلال هذه الأشياء كلها نكتشف أن هذا الحديث منكر، وهذا نموذج لنقد المتون، ونماذجه كثيرة جداً.

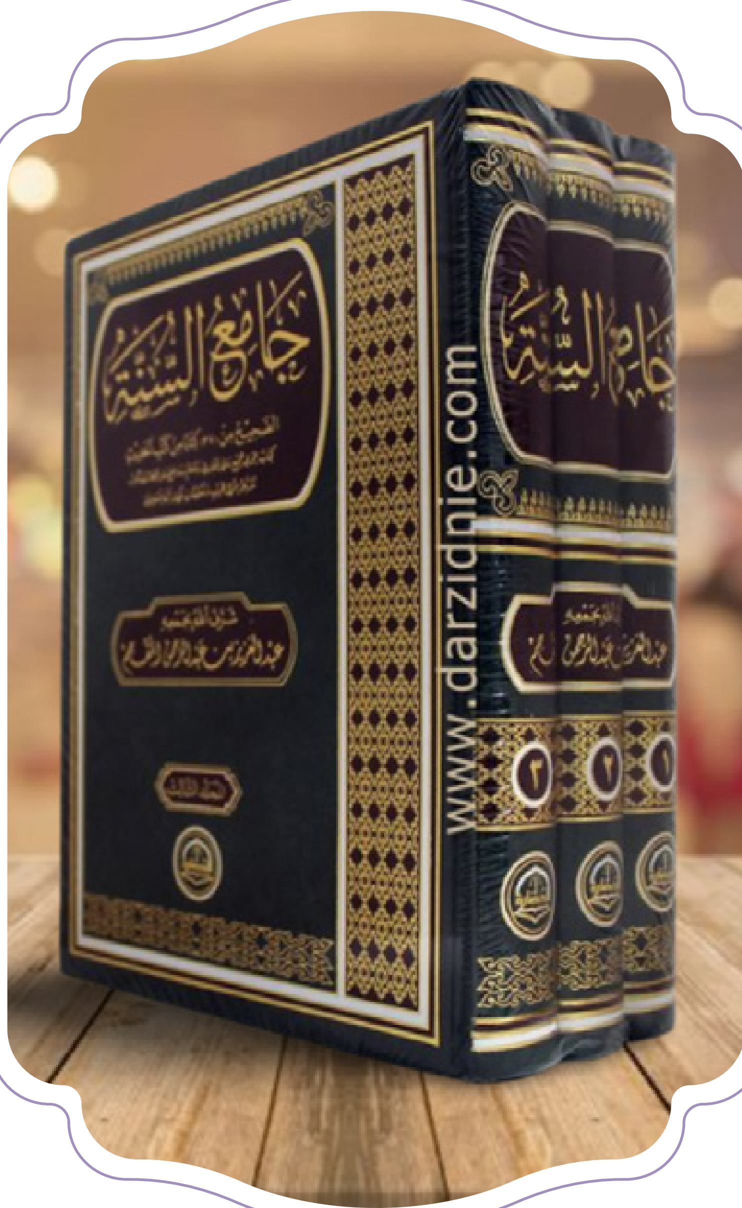
وأنا أريد أن أذكر رءوس أقلام فقط، وأبيِّن أن هذا الكلام قد يُستَغَل بطريقة غير صحيحة، لكن نحن نريد الطريقة الصحيحة.



فقه السنة النبوية والديوان الجامع

الأمر الثالث: مسألة فقه السنة النبوية، فكثير من الناس قد يتعاطون الأحاديث النبوية ويقرءونها، لكن لا يفقهونها فقهاً صحيحاً، ولا يستطيعون أن يفهموا ما دلت عليه هذه الأحاديث، وهؤلاء لا شك أنهم نفعوا الأمة بحفظ الحديث، لكن نحن أحوج إلى من يستطيع أن يستفيد من الأحاديث ويُنزلها على الوقائع ويستخرج منها حكم الله ورسوله ﷺ على المسائل.

الأمر الرابع: أننا بحاجة إلى مشروع في السنة النبوية، وهو: إيجاد ديوان جامع، يعني: كتاب تُجمع فيه الأحاديث النبوية الصحيحة عن رسول الله ﷺ، وقد يقول قائل: الأحاديث النبوية الصحيحة مجموعة، **فأقول:** كلا، صحيحٌ أن البخاري جمع أحاديثاً صحاحاً، ومسلم كذلك، لكن لم يستوعبا كل الصحيح، وهناك علماء آخرون ألفوا في الصحيح، أنا أعتقدُ أن المسلمين اليوم بحاجة إلى كتاب شامل يلتزم فيه مؤلفه أن لا يُورِد إلا ما صح، وكيف يعرف أن الحديث صحَّ أو لم يصح؟ إذاً لا بد من دراسة الإسناد، لكن مع دراسة الإسناد لا بد أن يلتزم -قدر الإمكان- بسرد أقوال الأئمة، وخاصة الأئمة المتقدمين في تصحيح الأحاديث.



فأنا عندما تقول لي: إن هذا الحديث صححه الإمام أحمد، وأبو زرعة، وأبو حاتم، والبخاري يكون عندي اطمئنان بأن الحديث صحيح، لكن عندما يقول لي -مثلاً- محقق حقَّقَ رسالة ماجستير أو دكتواره أو كتاب صغير: إن الحديث إسناده صحيح، فلا أطمئن؛ لأنني لا أعرف مدى سعة وباع هذا الإنسان في العلم، فنحن بحاجة إلى كتاب كهذا بحيث يجمع ما صَحَّ من حديث رسول الله ﷺ.

لماذا ظهرت الأحاديث المكذوبة

وكيف واجهها العلماء؟

الشيخ محمد صالح المنجد



فك الله أسره*

كانت حركة الوضع في الحديث من المؤامرات الباطنية التي يقصد منها تشويه الإسلام، والتي يقصد منها إشاعة الفتنة وإبعاد المسلمين عن الصحيح من أحاديث رسول الله ﷺ. وقد كان من هؤلاء زنادقة، كانوا يضعون الحديث على رسول الله ﷺ كعبد الكريم بن أبي العوجاء وغيره، الذي كان يقول لما قدم ليضرب عنقه: «والله لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال، وأحلل فيها الحرام».

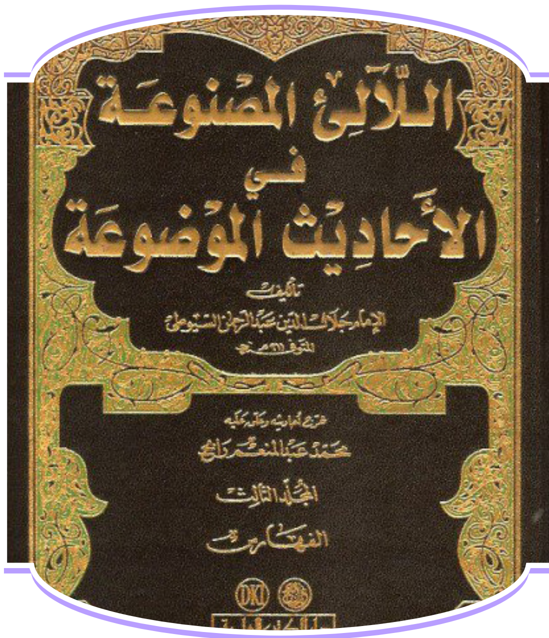
* المقال مقتطف من محاضرة الآثار السيئة للأحاديث الضعيفة والموضوعة، للشيخ محمد صالح المنجد، موقع (المنجد)، رابط إلكتروني: bit.ly/3s45eOz

وكان من هؤلاء أصحاب أهواء، كما قال ذلك الشيخ الخارجي: «كنا إذا اشتهينا أمراً أو هوينا أمراً صيرنا له حديثاً».

ومن اشترك في وضع الحديث أناس يضعوه صناعة وتسوقاً جراءة على رسول الله ﷺ، حتى إن أحدهم ليسهر عامة ليله في وضع الحديث، ومنهم من كان يُنسب إلى الزهد والتدين، ولكنه جاهل على الأقل في هذه النقطة، فكان يضع الأحاديث يظن ذلك احتساباً عند الله، كنوح الجامع، سمي بالجامع لأنه كان يجمع التفسير والفقه والمغازي وعلوماً كثيرة إلا شيئاً واحداً وهو الورع، التورع من الكذب عن الرسول ﷺ لم يكن عنده.

وعندما يجهل المسلم المنطلق الصحيح وتقع له شبهة، ولكنه غير معذور فيها مثل هذا الرجل؛ لأن الأمر قد بُين له ونوقش ولكنه مع ذلك أصر: «رأيت الناس اشتغلوا بمغازي ابن إسحاق، وفقه أبي حنيفة، فأردت أن أرجعهم إلى القرآن». فقعد يضع الحديث في فضائل السور؛ سورة سورة.

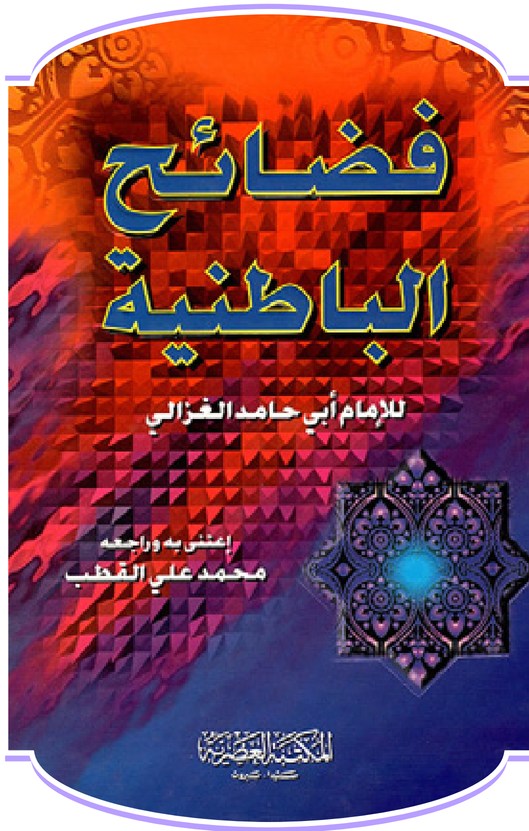
ومنهم أناس كانوا يضعون الأحاديث في تمجيد رؤساء مذاهبهم، كما وضعت الكرّامية هذا الحديث: يجيء في آخر الزمان رجل يقال له محمد بن كرام، يُحيي السنة والجماعة، هجْرته من خراسان إلى بيت المقدس كهجرته من مكة إلى المدينة. حديث مكذوب يريدون فيه رفع شأن هذا المبتدع حتى يتلقف الناس منه العلم، ويزينونه في أعين الناظرين والسامعين، ويخدع به عباد الله المسلمين.



ومنهم أناس كان فيهم حقد على الإسلام وعلى هذا القرآن الذي نزل بلغة العرب، يريدون نسف اللغة العربية، ويريدون إعلاء شأنهم حقداً على هذا الدين، منهم بعض الفُرس الذين وضعوا مثل هذا الحديث: إن كلام الله حول العرش بالفارسية، وإن الله إذا أوحى أمراً فيه لين أوحاه بالفارسية، وإذا أوحى أمراً فيه شدة أوحاه بالعربية.

ما هو المقصود؟ ماذا يوحي هذا الحديث؟ ماذا يلقي في أنفس السامعين؟ كراهية اللغة العربية ومحبة اللغة الفارسية. وهل سكت الجهلة المقابلون لهم من العرب؟ كلا، فإنهم وضعوا أحاديث أيضاً في فضل اللغة العربية وأن كلام أهل الجنة عربي وأن.. وأن.. وفي المقابل وضعوا أحاديث في ذم بلاد خراسان مدينة مدينة! لا يجوز أن تُرد البدعة ببدعة ولا يجوز أن نرد على الخطأ بخطأ آخر. كلا. إن الرد على البدعة والخطأ بتبيان الصواب أولاً، ثم بنقد الخطأ والبدعة ثانياً.

وبعض الوعاظ يظنون أن السبيل إلى تحميس الناس لأمر معين أن يضع حديثاً في فضل هذا الأمر، فيأتي واعظ جاهل يرى الناس قد قصروا في زكاة الفطر مثلاً فيضع لهم هذا الحديث: شهر رمضان معلق بين السماء والأرض لا يرفع إلى الله إلا بزكاة الفطر. لماذا؟ قال الناس لا يخرجون زكاة الفطر، نريد أن نحمس الناس على إخراج زكاة الفطر.



وبعضهم من الفرق الباطنية الذين كان همهم تمجيد بعض الأشخاص كعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، حتى يوصلوه إلى مرتبة الألوهية، انظروا مثلاً إلى هذا الحديث: ستكون فتنة فإن أدركها أحد منكم فعليه بخصلتين: كتاب الله وعلي بن أبي طالب.

علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين، مناقبه مشتهرة متكاثرة لا يماري فيها إنسان مسلم يعرف الله عز وجل، ويعرف حق صحابة الرسول ﷺ، ولكن أن تصل المسألة أن يُجاء برجل -ولو كان صحابياً- فيُعد هو المرجع بعد كتاب الله؟

إذاً المسألة مخطط لها، مذاهب قامت في التاريخ يريد كل أصحاب مذهب منهم أن يؤصلوا لمذهبهم بأحاديث يروجونها بين المسلمين، تأصيل للمذهب وتقعيد للمذهب، بماذا؟ بأحاديث موضوعة ومكذوبة على الرسول ﷺ، وضعوا حديثاً عن علي: غسلت النبي ﷺ فشربت ماء محاجر عينيه فورثت علم الأولين والآخرين.

ولم يكتفوا بذلك فوضعوا حديث: النظر إلى علي عبادة، ونحن نعرف أن النظر إلى المصحف عبادة.

هل وقف الأمر عند هذا الحد؟ كلا، لتعزيز المذهب وتأصيله أيضاً لا بد من الاختلاق في مجال التفسير، فلذلك: «اسمي في القرآن وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، واسم علي وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا، واسم الحسن والحسين وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، واسم بني أمية وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا!».

ولما وصل الحقد بهؤلاء الباطنية على صحابي جليل مثل معاوية رضي الله عنه، فقد وضعوا الحديث السابق وأحاديث أخرى مثل حديث: لكل أمة فرعون وفرعون هذه الأمة معاوية.

عندما يسمع الناس هذه الأحاديث ماذا يحدث في قلوبهم على معاوية رضي الله عنه؟ ما هو الأثر السيئ لهذا الحديث في قلوب الناس على صحابة أجلاء كرام من صحابة الرسول ﷺ؟

ولكن المتعصبة للطرف الآخر هل ستتوب؟

كلا، وضعوا أحاديث: «أخذ القلم من علي ودفعه إلى معاوية». علي ما يصلح، معاوية هو الكاتب الأمين!

صحيح أنهم أقل شراً من أولئك، ولكن المشكلة أن الكذب على الرسول ﷺ صار أمراً سهلاً لا يتورع منه ولا يخاف الإنسان ربه من الكذب على الرسول ﷺ...

ولما حقد هؤلاء الباطنية على أبي بكر وعمر، قام بعض الناس يضعون الأحاديث في فضل أبي بكر وعمر، «لما أسري بي إلى السماء فصرت في السماء الرابعة سقط في حجري تفاحة فأخذتها بيدي فانفلقت فخرج منها حوراء تقهقه فقلت لها: تكلمي لمن أنت؟ قالت: للمقتول شهيداً عثمان».

وأما الأحاديث الموضوعة في فضل أبي بكر وعمر فهي كثيرة ولكنها ليست أكثر من الأحاديث الموضوعة في فضل الرجال الذين يريد الباطنية أن يجحدوهم، ومن هذه الأحاديث مثلاً: «من شتم الصديق فإنه زنديق، ومن شتم عمر فمأواه سقر، ومن شتم عثمان خصمه الرحمن، ومن شتم علياً فخصمه النبي ﷺ».

هذا القسم الأخير طائفة أرادت أن تقرب بين وجهات النظر المختلفة، فقالوا: نضع أحاديث في فضل الأربعة حتى تجتمع الأمة عليهم.

والأحاديث في فضل الأربعة موجودة، فلماذا الكذب على الرسول ﷺ؟



وقد يحمل التعصب المذهبي الذميم بعض الناس على اختلاق الأحاديث على رسول الله ﷺ فمنه مثلاً الحديث المشهور المعروف: «سراج أمتي أبو حنيفة النعمان، يكون في أمتي رجل اسمه أو كنيته أبو حنيفة النعمان هو سراج أمتي، ويكون رجل في أمتي اسمه محمد بن إدريس هو أضر على أمتي من إبليس». من يقصدون؟ الشافعي -رحمه الله تعالى- مجدد من مجددي الأمة في أصول الفقه!

هل سكت الطرف الآخر؟ كلا، «عالم قريش يملأ الأرض علماً»، يقصدون الشافعي. وتظهر الأشياء المتبادلة في الأخذ والرد، ولكن المشكلة في أي مجال؟ في مجال الأحاديث، السنة النبوية عن الرسول ﷺ.

وقد يحمل إرضاء لخليفة أو سلطان من السلاطين رجلاً أن يكذب على رسول الله ﷺ ليرضي ذلك الأمير، مثلما وقع لغياث بن إبراهيم لما كذب على رسول الله ﷺ بكلمة: لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر. فأضاف هذا الرجل: (أو جناح) لكي يرضي المهدي الذي كان يلعب بالحمام، ولكن المهدي -رحمه الله- كان مشهوراً بتعقب الزنادقة، فلما سمع رجلاً يكذب من أجل إرضائه رجع إلى نفسه فذبح الحمام، فلما تولى غياث بن إبراهيم قال: أشهد أن قفاك قفا كذاب.

وقد يكون دافع الانتقام من أشخاص معينين أو هيئات معينة سبباً لوضع الأحاديث، فمثلاً يحنق أحدهم على قاضٍ من القضاة لم يعجبه حكمه فيطلق الحكم على القضاة فيطرده طرداً فيأتي بحديث مكذوب على رسول الله ﷺ ليذم هذه الطائفة طائفة القضاة؛ كحديث: (ع حجر إلى الله فقال إلهي وسيدي، عبدتك كذا وكذا سنة ثم جعلتني في أس كنيف) مرحاض، الحجر يشتكي (فقال: يعني الله تعالى) تعالى الله أن يقول ذلك (أما ترضى أني عدلت بك عن مجالس القضاة)، يعني المرحاض أحسن من مجالس القضاة.

وقد يحنق مثلاً منهم أحد منهم على شرطي أو على الشرطة فيضع الأحاديث في ذلك، فمنها مثلاً: (دخلت الجنة فرأيت فيها ذئباً، فقلت: أذئب في الجنة؟ فقال: إني أكلت ابن شرطي). فلأنه أكل ابن شرطي دخل الجنة.



فإذاً، المدهش أنه قد يكون السبب أحياناً تافه، ولكن المقابل لهذا الأمر كذب على الرسول ﷺ، وقد يكون لمصلحة شخصية في الكذاب، فمنها: أن أعمى من العميان وضع حديثاً: من قاد أعمى أربعين خطوة دخل الجنة، لماذا؟ ليشجع الناس أن يقودوه.

وقد حنق أحدهم مرة من المرات على معلم ولده، لأنه ضرب الولد، فجاء الولد إلى أبيه يبكي، فقال: ما بك؟ قال: ضربني المعلم، قال: أما والله لأخزينه، كيف سيخزيه؟ وضع حديثاً: «معلمو صبيانكم شراركم، أقلهم رحمة لليتيم وأغلظهم على المساكين».

وقد يقع بين بعض الجهلة ممن يدعون العلم خلافات في مسائل من العلم، فماذا يفعلون؟ يختلقون أحاديث لترجيح قول من الأقوال، اختلف بعضهم مرة هل سمع الحسن من أبي هريرة أو لم يسمع؟ لما طال النقاش جاءهم واحد، قال: أنا عندي فصل للمسألة، ما هو؟ قال: عن فلان عن فلان، قال رسول الله ﷺ: «سمع الحسن من أبي هريرة».

لما اختلفوا هل فتحت مكة عنوة أو صلحاً، وينبني على ذلك مسائل في الشريعة، جاء واحد قال: قال رسول الله: «فتحت مكة عنوة، فتحت مكة صلحاً».

فإذاً، الأسباب في وضع الحديث كثيرة، والذي يقرأ ويطلع يجد أن الأمر يتعدد باختلاف نزعات ورغبات الذين وضعوا الحديث، وبعضهم أمكر من بعض، وبعضهم أخبث من بعض.

وإنا له لحافظون

ولكن هذا الكلام قد يجعل بعض الناس يقولون إذا كانت المسألة بهذه الكيفية فمعنى ذلك أننا سنفقد الثقة بأحاديث الرسول ﷺ، ما دامت الأحاديث الموضوعة بهذه الكثرة. إذاً، ما يدرينا أن أي حديث نقرؤه مثلاً هو حديث مكذوب، ولذلك بعض الناس عندهم شك فعلاً في السنة النبوية، يشكون فعلاً في السنة النبوية، واحد من الناس يقول: والله يا أخي هذه السُّنة خمسين وخمسين، خمسين في المائة خمسين في المائة، يا أخي تجيبك أحاديث ما تدري عنها، وقد يكون الحديث في البخاري، وقد يكون الحديث في مسلم، وقد يكون الحديث ثابتاً صحيحاً بين العلماء وصحته عن الرسول ﷺ.

إذاً هل هذا الوضع، وهذا الكذب يؤدي بنا إلى التشكك في سنة الرسول ﷺ؟

كلا، لا يمكن أن يكون ذلك، لأن الله قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] كيف يحفظ القرآن إذا لم تُحفظ السنة؟ إذا كان الله قد أوحى إلى نبيه ﷺ وحياً ليبين لهم الكتاب الذي أنزل إليهم من ربهم، فكيف يكون حفظ للكتاب بغير حفظ للسنة؟

ولذلك استدل بعض العلماء بهذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] على حفظ الله لسنة رسوله ﷺ.



فرسان الدين

ولذلك قيض الله لهذه الأمة علماء أفذاذاً نقحوا هذه الأحاديث، وبيّنوا ما هو الصحيح من الضعيف، ما تركوا حديثاً إلا وتكلموا فيه، وبينوا نسبته إلى رسول الله ﷺ، وليسوا محدودين في عصر أو مصر، بل هم يتكررون على مر العصور والدهور، ولا يُخلي الله منهم عصراً غير أن هذا الضرب من العلماء نادر:

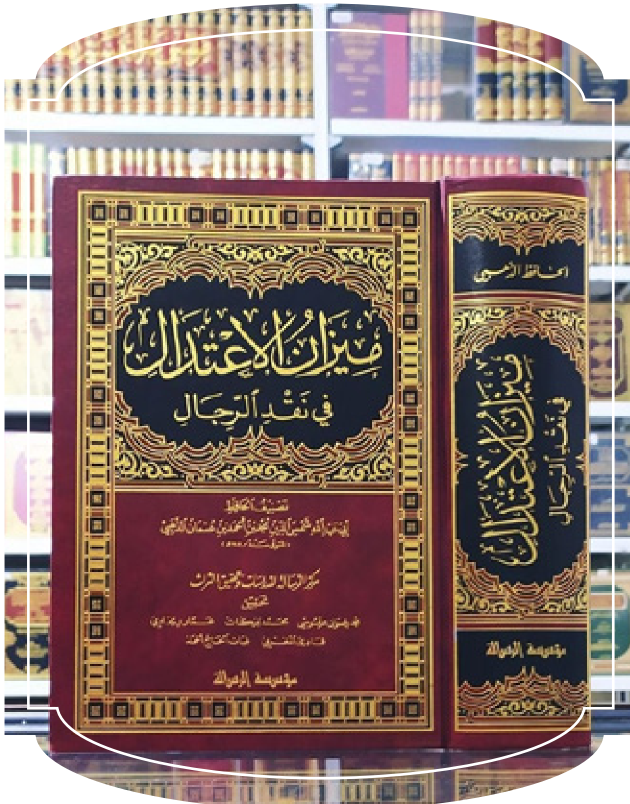
وقد كانوا إذا عُدوا قليلٌ •• فقد صاروا أعز من القليل

كان أحد العلماء وهو عبد الرحمن بن مهدي -رحمه الله- يقول: «لئن أعرف علة حديث هو عندي أحب إليّ من أن أكتب حديثاً ليس عندي». ما الفائدة من الجمع فقط؟ لا بد أن أعرف هل الذي جمعته يُحتج به أم لا؟ هل هو صحيح فيُعمل به، أم هو ضعيف نحذر الناس منه؟

قال سفيان الثوري -رحمه الله-: «الملائكة حراس السماء وأصحاب الحديث حراس الأرض».

وقال يزيد بن زريع: «لكل دين فرسان، وفرسان هذا الدين أصحاب الأسانيد».

ولذلك مرة من المرات كما ذكر الحافظ الذهبي -رحمه الله- في الميزان: «أتى الرشيد، هارون الرشيد -رحمه الله- بزنديق ليقتله، فقال الزنديق: أين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله ﷺ؟ يعني ماذا تستفيد من قتلي؟ أنا وضعت ألف حديث، كيف الآن راحت بين الناس؟ فقال له هارون -رحمه الله-: «وأين أنت من أبي إسحاق الفزاري، وعبد الله بن المبارك يتخلانها، حرفاً حرفاً؟»».



الزنديق يقول: أين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله ﷺ؟ وهارون الرشيد يرد عليه ويقول: «وأين أنت من أبي إسحاق وعبد الله بن المبارك يخلانها حرفاً حرفاً» يبينانها للناس.

فإذاً، وُجد هؤلاء العلماء، ووجد هؤلاء المهتمون بحديث رسول الله ﷺ، مر أحمد بن حنبل -رحمه الله- على نفر من أصحاب الحديث وهم يعرضون كتاباً لهم، فقال: «ما أحسب هؤلاء إلا ممن قال رسول الله ﷺ فيهم: لا تزال طائفة من أمتي على الحق حتى تقوم الساعة».

قال ابن حبان -رحمه الله-: «ومن أحق بهذا التأويل من قوم فارقوا الأهل والأوطان، وقنعوا بالكسر والأطمار في طلب السنن والآثار، يجولون البراري والقفار، ولا يبالون بالبؤس والإقتار، متبعين لآثار السلف الماضين، وسالكين طريق الصالحين». بأي شيء؟ «برد الكذب عن رسول الله ﷺ، وذب الزور عنه».



ولذلك كان للعلماء جهود جبارة في كشف الكذب، وتعيين الأحاديث المكذوبة، وتبيين الضعيف للناس والمكذوب حتى يحذروا منه. ولذلك ألفوا مصنفات خاصة في تبيان الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وفي تبيان الأحاديث المشتهرة على الألسنة، وقعدوا القواعد في روايات أهل البدع، وشددوا في قبول الحديث، ودعوا الناس إلى تلقي الصحيح، والحث على التثبت في الرواية، وألفوا الكتب في أسماء الضعفاء والوضاعين، وبينوا الأحاديث المسروقة والمركبة وأحاديث القصاص.

كانت لهم مواقف من الكذابين بفضحهم، ترك السلام عليهم، وعظهم، التشهير بهم، تمزيق كتبهم بين أعينهم، والاستعداء عليهم من أهل الخير، ووصفهم بألقاب تناسبهم، فكان أحد العلماء يقول: فلان كذاب أكذب من حماري! وقال: فلان أكذب من فرعون! إلى آخر ذلك.

تحذير الصحابة والأئمة من الأحاديث الضعيفة



الشيخ المحدّث سليمان العلوان

فك الله أسره*

تواتر عن النبي ﷺ أنه قال: «من كذب عليَّ متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار». رواه الشيخان وغيرهما من رواية عدة من الصحابة رضي الله عنهم. ومن الكذب على النبي ﷺ الجزم بالأحاديث الضعيفة أنه قالها، كأن يقول: قال النبي ﷺ... وما أشبه ذلك، فإن هذا لا يجوز لأن الحديث لم يثبت عن النبي ﷺ، فكان الواجب عليك أن تقول: يُروى أو يحكى[1]... وما أشبه هذه الصيغ من صيغ التمريض، ولكن لما قلّت عظمة الله وعظمة رسوله من قلوب كثير من الناس، تساهلوا في رواية الأحاديث الموضوعة والضعيفة جداً، ونسبوها إلى النبي ﷺ جازمين بها.

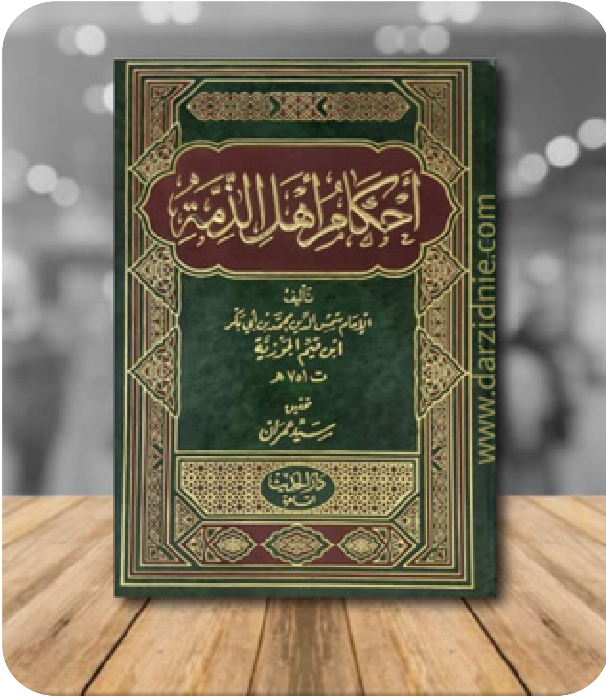
---

* سليمان العلوان، الإعلام بوجوب التثبت في رواية الحديث وحكم العمل بالحديث الضعيف، ص6 وما بعدها. (باختصار).

١. إذا كان المتكلم بين عوام ، فلا يكفي أن يقول: يُروى بصيغة التمريض، لأنهم لا يفهمون ذلك، بل يصرح بضعفه.

ولله در ابن تيمية، حيث يقول في «الفتاوى» (٤٢٥/٣) «وكذلك مما حرمه الله تعالى أن يقول الرجل على الله ما لا يعلم، مثل: أن يروي عن الله ورسوله أحاديث يجزم بها وهو لا يعلم صحتها».

فإذا كان من يروي الأحاديث وهو لا يعلم صحتها من القائلين على الله بلا علم، فكيف بالذين يعلمون أنها ليست عن النبي ﷺ؟! فهؤلاء ماذا يكون حالهم؟! أضف إلى ذلك أنها قد تكون معارضة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ.



وقال العلامة ابن القيم رحمه الله (٢٠/١) «أحكام أهل الذمة»: «وهكذا لا يسوغ أن يقول: قال رسول الله، لما لا يعلم صحته ولا ثقة رواته، بل إذا رأى أي حديث كان في أي كتاب، يقول: «لقوله ﷺ...»، أو: «لنا قوله ﷺ»، وهذا خطر عظيم، وشهادة على الرسول بما لا يعلم الشاهد».

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتثبتون في الرواية عن رسول الله، حتى إن بعضهم يدع الجزم بالحديث عن النبي تورعاً واحتياطاً.

وقد خرَّج البخاري ومسلم[٢] من طريق عبيد بن عمير: «أن أبا موسى الأشعري استأذن على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلم يؤذن له، وكأنه كان مشغولاً، فرجع أبو موسى، ففرغ عمر، فقال: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس؟ ائذنوا له.قيل: قد رجع فدعاه، فقال: كنا نؤمر بذلك.فقال: تأتيني على ذلك بالبينة. فانطلق إلى مجلس الأنصار، فسألهم، فقالوا: لا يشهد لك على هذا إلا أصغرنا أبو سعيد الخدري فذهب بأبي سعيد الخدري، فقال عمر: أخفي عليَّ هذا من أمر رسول الله أم ألهاني الصفق بالأسواق (يعني: الخروج إلى التجارة)؟!

٢. انظر: «فتح الباري» (٢٩٨/٤)، وصحيح مسلم بشرح النووي (١٣٠/١٤ و ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٥) واللفظ للبخاري.

فعمر رضي الله عنه لم يقبل قول أبي موسى من أجل التثبت؛ كما في بعض الروايات عند مسلم: «إنما سمعت شيئاً فأحببت أن أتثبت»[٣].



فيجب على الخطباء والوعاظ وغيرهم الاتعاظ بهذا الأثر في التثبت في رواية الأخبار، حتى يخرجوا من عهدة الكذب على النبي ﷺ.

وإن من أعظم الأسباب الجالبة لانتشار الأحاديث الموضوعة: عدم التثبت في الرواية. وقد روى البخاري وغيره حديثاً عظيماً زاجراً لناشري الأحاديث المكذوبة والروايات التي لا يعلم صحتها بين الناس. فعن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم الفِرَى: أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يري عينه ما لم ترَ، أو يقول على رسول الله ما لم يقل»[٤].

قال السيوطي رحمه الله[٥]: «لا أعلم شيئاً من الكبائر، قال أحد من أهل السنة بتكفير مرتكبه إلا الكذب على رسول الله، فإن الشيخ أبا محمد الجويني من أصحابنا، وهو والد إمام الحرمين، قال: إن من تعمد الكذب عليه ﷺ يكفر كفراً يخرجه من الملَّة، وتبعه على ذلك طائفة، منهم الإمام ناصر الدين بن المنير من أئمة المالكية، وهذا يدل على أنه أكبر الكبائر؛ لأنه لا شيء من الكبائر يقتضي الكفر عند أحد من أهل السنة، والله أعلم».

قلت: أمَّا كونه أكبر الكبائر، فهذا ظاهر الأخبار، أما كفره، ففيه نظر، ما لم يستحله، فإنه حينئذٍ يكفر بالاتفاق.

---

٣. مسلم (١٤/١٣٥-نووي).
٤. فتح الباري (٦/٥٤٠).
٥. «تحذير الخواص من أكاذيب القصاص» (ص١٢٥).

وقال السيوطي رحمه الله: «قد أطبق علماءُ الحديث بأنه لا تحل رواية الموضوع في أيّ معنى كان، إلا مقروناً ببيان وضعه». وقال: «قال الدارقطني رحمه الله: توعد ﷺ بالنار من كذب عليه بعد أمره بالتبليغ عنه[٦]، ففي ذلك دليل على أنه إنما أمر أن يبلغ عنه الصحيح دون السقيم، والحق دون الباطل، لا أن يبلغ عنه جميع ما رُوي عنه، لأنه قال ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع»، أخرجه مسلم[٧] من حديث أبي هريرة.

فمن حدّث بجميع ما سمع من الأخبار المروية عن النبي ﷺ، ولم يميز بين صحيحها وسقيمها، وحقها من باطلها، باء بالإثم وخيف عليه أن يدخل في جملة الكاذبين على رسول الله ﷺ، بحكم رسول الله أنه منهم في قوله: «من روى عني حديثاً يرى أنه كذب، فهو أحد الكاذبين»[٨].

فظاهر هذا الخبر دال على أنَّ كل من روى عن النبي ﷺ حديثاً وهو شاك فيه: أصحيح هو أو غير صحيح؟ يكون كأحد الكاذبين؛ لأنه ﷺ قال: «من حدث عني حديثاً وهو يرى أنه كذب....»[٩]، ولم يقل: وهو يستيقن أنه كذب.



وللتحرز من مثل ذلك كان الخلفاء الراشدون والصحابة المنتخبون رضوان الله عليهم يتقون كثرة الحديث عن رسول الله، ويتشددون في ذلك، منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، والمقدام بن الأسود، وأبو أيوب الأنصاري، وثوبان مولى رسول الله، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك،

---

٦. يشير إلى حديث أبي سعيد يرفعه: «حدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليَّ؛ فليتبوأ مقعده من النار» خرجه مسلم (١٨/١٢٩-نووي).

٧. أخرجه في «المقدمة» (١/٧٢-نووي).

٨. رواه مسلم في مقدمة «صحيحه» (١/٦٢-نووي).

٩. رواه مسلم في مقدمة «صحيحه» (١/٦٢-نووي).

ومعاوية بن أبي سفيان، وعمران بن حصين، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وأبو الدرداء، وأبو قتادة، وصهيب، وقرضة بن كعب، وغيرهم.

وقال السيوطي رحمه الله: «ومن سنته ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين من بعده: الذبُّ عن سنته، ونفي الأخبار الكاذبة عنها، والكشف عن ناقلها، وبيان تزوير الكاذبين، ليسلم من أن يكون خصمُه رسول الله ﷺ، لأنه من روى عن النبي ﷺ حديثاً كذباً وأقرَّ عليه، كان النبي ﷺ خصمه يوم القيامة»[١٠].

ويا ليت وعاظ زماننا يعتبرون بهذا الكلام ولا ينشرون الأخبار المكذوبة، لأنها بلية عظمى، ويسألون أهل الذكر وأهل المعرفة بالأخبار النبوية عن الأحاديث التي يريدون أن يتكلَّموا بها، كي يعينوهم على معرفة الصحيح من السقيم، والحق من الباطل، وكي يسلموا أيضاً من العقوبات الوخيمة المترتبة على بث الأخبار المكذوبة.



وقد كان الصحابة والتابعون لهم يتوقَّون كثرة الحديث عن رسول الله ﷺ خشية النسيان، والدخول في أحاديث الوعيد عن النبي ﷺ. فروى البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن الزبير، قال: قلت للزبير: إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله كما يحدث فلان وفلان؟ قال: أما إني لم أفارقه، ولكن سمعته يقول: «من كذب عليَّ فليتبوأ مقعده من النار»[١١].

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن أنس رضي الله عنه، قال: إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثاً كثيراً أن النبي ﷺ قال: «من تعمد عليَّ كذباً، فليتبوأ معده من النار»[١٢].

---

١٠. انظر: «تحذير الخواص» (ص١٣٩-١٤٧).
١١. «فتح الباري» (١/٢٠٠).
١٢. «فتح الباري» (١/٢٠١)، و«صحيح مسلم» (١/٦٦-نووي).

وقد كان كثير من الصحابة إذا حدث بحديث قال عقبهُ: أو قريباً من ذلك، أو نحو ذلك، أو شبيهاً بذلك... ونحو هذه العبارات الدالة على شدة توقيهم.

فلله درهم من أقوام، ما أشد ورعهم! وما أحسن أثرهم على الناس وأسوأ أثر الناس عليهم!.

وقد روى ابن ماجه[١٣] بسند صحيح عن عمرو بن ميمون، قال: «ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس، إلا أتيته فيه قال: قال رسول الله قال: فَنَكَسَ.قال: فنظرت إليه، فهو قائم محلَّلَة أزرارُ قميصه، قد اغرورقت عيناهُ وانتفختْ أوداجهُ، قال: أوْ دون ذلك أو فوق ذلك، أو قريباً من ذلك، أو شبيهاً بذلك... وخرجه أيضاً الدارمي والحاكم.

وروى ابن ماجه[١٤] أيضاً بسند صحيح عن محمد بن سيرين، قال: «كان أنس بن مالك إذا حدث عن رسول الله حديثاً، ففرغ منه، قال: أو كما قال رسول الله».

والآثار في هذا الباب كثيرة جدّاً، تركناها خشية الإطالة، ومن لم يكفه هذان الأثران، فلا تغني عنه كثرة الآثار إلا حيرة. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وقد جزم غير واحد من أهل العلم على أن من نقل حديثاً عن النبي ﷺ وهو لا يعلم حاله: أنه آثم، فيدخل في ذلك الوعاظ والقصاص والخطباء وغيرهم ممن ينقل الأحاديث ويبثها بين الناس وهو لا يعلم حالها، لأنه أقدم على رواية الحديث من غير علم.

قال الحافظ زين الدين العراقي: «وإن اتفق أنه نقل حديثاً صحيحاً كان آثماً في ذلك، لأنه ينقل ما لا علم له به، وإن صادف الواقع، كان آثماً بإقدامه على ما لا يعلم»[١٥].

وهذا عين الصواب، لأنه قفا ما لا علم له به، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

---

١٣. (١/١٠ – باب التوقي في الحديث عن رسول الله ﷺ).
١٤. (١/١١).
١٥. انظر: «تحذير الخواص» للسيوطي (ص١٦٣).

فيجب على كل عالم وخطيب وواعظ وغيرهم أن لا يحدثوا الناس إلا بما عرف مخرجه وصحته، وإلا؛ فلهم حظ وافر من أحاديث الوعيد الثابتة عن النبي ﷺ في تحريم الكذب عليه.

وقد كان جماعة من السلف يحكمون على من حدث بالأحاديث الباطلة بالضرب والحبس.



منهم الإمام البخاري، دفع إليه كتاب من ابن كرام يسأله عن أحاديث منها: الزهري عن سالم عن أبيه مرفوعاً: «الإيمان لا يزيد ولا ينقص»؟ فكتب الإمام محمد بن إسماعيل رحمه الله على ظهر كتابه: «من حدث بهذا، استوجب الضرب الشديد والحبس الطويل».

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «سألت يحيى بن معين عن زكريا بن يحيى الكسائي الكوفي؟ فقال: رجل سوء يحدث بأحاديث سوء.قلت:قال لي: إنك كتبت عنه. فحول وجهه، وحلف بالله: إنه لا أتاه ولا كتب عنه، وقال: يستأهل أن يحفر له بئر فيلقى فيها»[١٦].

«ولما ذكر ليحيى بن معين حديث سويد بن سعيد «من عشق فكتم فمات، مات شهيداً»[١٧] قال: لو كان لي فرس ورمح غزوت سويداً».

قلت: لأن هذا الحديث لا يصح عن النبي ﷺ، بل حكم عليه غير واحد من أهل العلم بالوضع.

---

١٦. «ميزان الاعتدال» (٧٥/٢).
١٧. أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخه» وانظر كلام العلامة ابن القيم على هذا الحديث في «زاد المعاد» (٢٧٥/٤).

هم مَن قَتل ونحن مَن استُشهد

د. حسام أبو البخاري*



فك الله أسره

إن أخطر وأعظم ما حدث للعقل المسلم فى القرنين الماضيين هو أنه أصبح ينظر لنفسه وللمسلمين من حوله من خلال نظرة أعدائه له ولدينه!

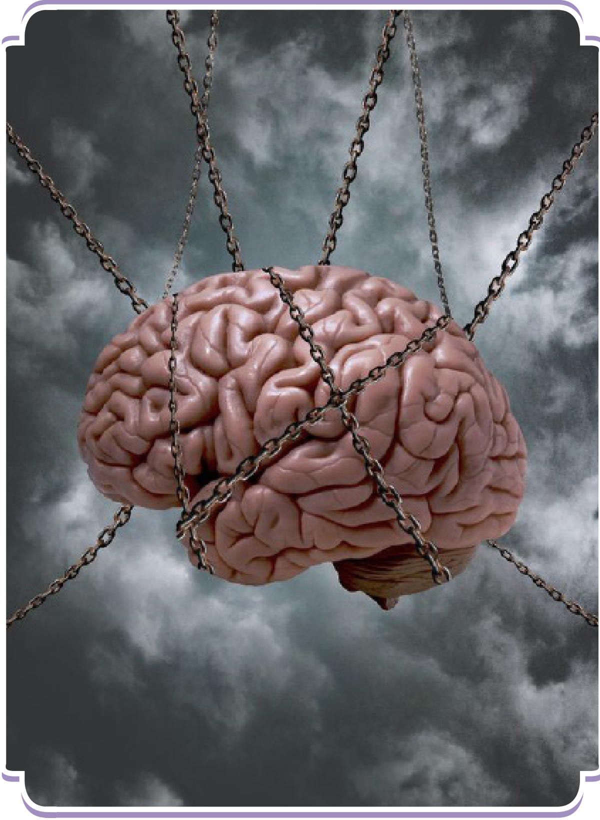
أصبح يرى نقاب المرأة المسلمة غريباً.. مع أن القرون الخوالي كانت فيها نساء مصر والعرب جميعاً منتقبات، حتى جدة (نجيب ساويرس) كانت منتقبة!

أصبح يرى الحدود شيئاً دموياً.. مع أن هذه الحدود ليست من إنتاج صاحب (تمام المنة) ولا البنا فى رسائله.. إنما موجودة فى كتاب رب العالمين!

* حسام أبو البخاري، مقال: هم من قتل ونحن من استشهد، منشور في يناير ٢٠١٣، منتدى (حراس العقيدة)، رابط إلكتروني: bit.ly/3TFOVDS.

أصبح يرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقييداً للحريات، وتعدياً على الحقوق الشخصية، مع أن خيرية الأمة التي ينتمي لها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!

أصبح يرى سادة أمته من المجاهدين فى العراق وأفغانستان والبوسنة وفلسطين على أنهم شرذمة متطرفة، إرهابية الهوى، تكفيرية النفس، مع أنه فى نفس الوقت ينظر إلى جيفارا وكاسترو بنظرة اعتبار واحترام! إنه التوحد مع الخصم.. إنه التعاطف مع العدو.



يحدثنا النفسانيون عن متلازمة استوكهولم، ذلك المرض النفسي الذي يتوحد فيه المريض مع الذي يعذبه ويضطهده! كان د. نصر حامد أبو زيد -على الرغم من كارثية أطروحاته- يتساءل: هل الغرب مكترث بنظرتنا له كما نحن مهتمون ومولعون بنظرته لنا؟! والإجابة بالطبع: لا. الغرب لا يعبأ بتصوراتنا عنه ولا بالصورة النمطية التي في أذهاننا عنه.. ماذا حدث إذَن؟! كيف أصبحنا نفكر بمنهج ليس بمنهجنا؟! نحلل بآليات ليست آلياتنا، مركزية تفكيرنا ليست ديننا وواقعنا ومشاكلنا إنما مركزية أخرى وهمية ومستوردة.

كيف استبدلنا الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!

"إنه الاحتلال المباشر على الأرض.. إنها النخب العسكرية الوظيفية -الاحتلال غير المباشر- إنه احتلال العقول.. إنه الإعلام الإمبريالي.. إنه (ماسبيرو) وأتباعه.. إنها إذاعات أحمد سعيد وغيره.. إنها وزارات الثقافة.. إنهم النخب المثقفة -قالوا- إنه التعليم.. إنها كرة القدم.. إنها أفلام السينما.. إنها المسرحيات.. إنها المسلسلات.. إنها الجرائد الصفراء، وكلها فاقعة ألوانها."

احذر! كل هؤلاء وغيرهم لا يتركونك.. لا يتركونك تفكر لحظة واحدة منذ أن تُولد، من الرحم إلى المقبرة.. أينما تكون يكونوا! تصور كل هذا من أجلك أنت.. بالفعل إنه من أجلك.. من أجل أن

تأكل الماكدونالدز وتشرب البيبسي وتشاهد ميل جيبسون ثم ترجع بظهرك للخلف على أريكتك الكلاسيكية تقول: لقد قتلنا أسامة!



استيقظ يا فتى هم من قتل ونحن من استشهد!

استيقظ الفتى على صوت بداخله ينفض عقله ووجدانه نفضا قائلاً له: (هم من قتل ونحن من استشهد).

سأل نفسه كيف حدث له هذا؟ كيف أصبح يرى بمنظار الانجلوسكسونية؟ كيف أصبح يحكم على الأمور من خلال رؤية علمانية غربية؟ كيف أصبح المجتمع المسلم يقوم هو بنفسه بدور المستشرق والمتغرب على بنيته الإسلامية المعرفية؟

فوجد د.جلال أمين يقول له: "النظم الاجتماعية تتغير وتتحول ببطء وبالتدريج. قد تطرأ عليها من التطورات ما قد يجعلها في النهاية شيئاً مختلفًا جدًا عمّا كانت عليه في البداية. وقد يحدث هذا دون أي ثورة أو انفجار، بل وربما حدث هذا والناس مستمرون في إطلاق نفس الاسم عليها، وكأن شيئًا لم يحدث"[١].

وبالفعل هذا ما حدث للمجتمعات المسلمة، تغيرت تدريجياً في تصوراتها الكونية، وفي مصادر تلقيها، وفي تراكيب عقليتها، عبر مراحل من الاحتلال الفكري والغزو العاطفي والانسحاق الحضاري، وكان المنتج النهائي مبهراً للغرب، كان المنتج النهائي مسخاً مشوهاً اسمه عمر وفى داخله هنري! يصلي الخمس ولكنه ينتقد من يترك لحيته، يتزوج على مذهب أبي حنيفة النعمان ولكنه كاثوليكي المذهب في تعدد الزوجات، يعتمر كل سنة ولكنه ينظر إلى عملية تفجير القاعدة الإيطالية بالناصرية فى العراق على أنه عمل همجي انتحاري.. يتصدق على الخدامين والبوابين ولكنه ينزعج ممن يذكره بالزكاة.. منسحق أمام الغرب، هذا المسخ يراهم قوة لا تُقهر وإمبراطورية لا تُغلب، ويجهل هذا المسكين أن الطلبة الطالبان الحفاة العراة يؤرخون للعالم كيف هزم شعب أبيّ قوات أمم غازية سُميت سابقاً بالناتو!

١.مستقبليات مصر والعرب والعالم في منتصف القرن، ٢١.

كيف حدث هذا التحول؟! كيف تغيرت الكيمياء العقلية والروحية والنفسية للمسلم؟!

إن الغرب أيقن أن الجدل الديني النظري حول الإسلام ومحمد ﷺ لا يجدي، وأن الاستمرار في هذا النوع من إنهاء الحالة الإسلامية لا يفضي إلا إلى انتصار للإسلام وهزيمة للمسيحية.. إذن فماذا نفعل؟ هكذا سأل الغربيون أنفسهم.. فتوصلوا إلى حل عبقري معجون بمكر الليل والنهار.. إذن نجعل المسلمين هم مَن ينهون تلك الحالة الإسلامية! إن الصوت من داخل القلعة أكثر تأثيراً من الصوت من خارجها يا عزيزي!

صاح أحدهم رائع ولكن كيف هذا يا زويمر؟ وكانت الخطة.. تغيير التركيبة العقلية والفكرية والعاطفية للمسلم وجعلها هي بنفسها ترفض الإسلام.. جعْل كل مسلم يحارب دينه بنفسه حتى وإن اقتنع أنه لا يحارب دينه بل يحارب من أجل دينه.. جعْل كل مسلم مستشرق في ذاته ومتغرب في روحه، يعرض الشرائع الإسلامية والأوامر والنواهي الإلهية على فلتر المسخ الداخلي، فيمرر ما هو مقبول طبقاً لاتفاقية جنيف لحقوق الإنسان، ويخرج ما هو مسطور في صحيح البخاري.

وكانت النتيجة بدل من محافل المبشرين وجيوش المستعمرين وقوافل المستشرقين، أصبح لدينا ملايين المسلمين الذين ينتمون إلى الغرب وروحه وثقافته، وتحققت الغاية.. المسلمون هم بأنفسهم يحاربون أنفسهم، سواء على المستوى الشخصي أو على مستوى المجتمع.



صاح أحدهم: لا تنسَ يا كرومر أن علينا أن نوجد العلمانية وثقافتنا بل أحيانا وعقائدنا من داخل النص الإسلامي.

لماذا يا هذا وكيف نتمكن من هذا؟

فأجابه وقال: أما لماذا فلأنه أحياناً لا تقدر أن تخاطب بعض المسلمين بكتابات جان بول سارتر، أو مقالات ماكس فيبر، وأطروحات أرسطو، فعليك أن تخاطبهم بالسيرة الحلبية وأسد الغاب والموضوعات لابن الجوزي.

أما كيف فاتركوها لي فعندنا من الباحثين وبعض العمم ونفر من أصحاب اللحى، مستعدون أن يفعلوا ذلك وأن يتعاونوا معنا سواء عن قناعة منهم فهم من جلدتهم ويتكلمون بألسنتهم أو ممن يعتبروننا من القوم المتغلبين!

وتدخل بعد صمت طويل ميلتون فريدمان قائلاً: وأنا سأوفر لكم بعض السياسات الاقتصادية، وأدير مع فريقنا في البنك الدولي بعض خطط الإقراض وبعض سياسات رأس المال، أكيد ستكون مفيدة لكم.

فرد عليه كثيرون في صوت واحد ضاحكين: أكيد سنحتاج لكم أنت وكل مدرسة شيكاغو!

وهنا صرخ سبيلبرج "ستاند باي ١٢٣٤٥"..

وقبل أن يبدأ تنفيذ السيناريو المكتوب صاح كيسنجر: لا تنسوا أن تدخلوا بعض الموسيقى التصويرية المؤثرة وبعض القصص الإنسانية فإنهم قوم عقولهم ليست عاقلة.. ويجب أن يمروا بتلك الحالة وهم لا يشعرون أنهم يتركون دينهم، بل يجب علينا أن نشعرهم أن ما هم عليه هو الإسلام بشحمه ولحمه!



وفجأة ارتبك الجميع من صرخة مارينا أوتاواي:

أثناء التنفيذ نسيتم شيئاً نسيتم ذلك الفتى!

من هذا؟!

ذاك الفتى ألا ترونه؟!

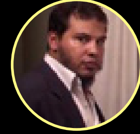
لا يُرى منه إلا عيناه ألا ترونها؟! أنا أراها عيناً ليست كالعيون! إنها تقترب! صدقوني إنها عين براقة.. يبدو أنه جاء إليكم ويبدو أنه ليس كالبقية.. اللهم بلغت اللهم فاشهد!

ونزلت دمعة حقيقية!



الإسلاميون في ظلمة الاغتراب.. مرة أخرى

أ. خالد حربي



فك الله أسره*

حال الإسلاميين اليوم يذكرني بأسطورة «اليهودي التائه» التي اخترعها القساوسة الكاثوليك في القرون الوسطى، والتي ملخصها أن المسيح - كما يزعمون - وهو في طريقه للصلب لكزه أحد اليهود في ظهره، وقال له: امضِ.. فالتفت إليه يسوع قائلاً: نعم أنا سأمضي، أما أنت فستبقى طويلاً.. وبعدها كتب على هذا اليهودي التيه، وظل حيًّا تائهًا لقرون طويلة، وكان يُرى هائمًا على وجهه في أطراف العالم، لا يُعرف له غاية، ولا تستقر له قدم.

---

* خالد حربي، مقال: (الإسلاميون في ظلمة الاغتراب...)، ٢٠١١م، موقع (طريق الإسلام): iswy.co/e4cdn.

وفي هذا المعنى يُروى أيضًا أن اليهودي حُيي بن أخطب حين قدم ليُقتل ضمن أسرى بني النضير التفت إلى اليهود وقال: «ملحمة كتبت على بني إسرائيل إلى يوم القيامة». صورتان لنفس واحدة، استمرأت التيه، واستعذبت تكرار الخطأ.

وفي حركتنا الإسلامية ما زلنا نكرر نفس الخطأ منذ سقوط الخلافة.. الافتقاد للجسارة في مواجهة الواقع، والشعور دائمًا أننا أقل من الحدث، وأضعف من الإمساك بدفته، أو التحكم في حركته، ورضينا دائمًا باللعب على أطراف المشهد. الواقع يشهد أن الحركة الإسلامية أدمنت هذا الخطأ، سواء كان إدمانًا عن رغبة أو عن اعتياد في التعاطي، إلا أنه صار إدمانًا بلا ريب.



منذ صعود محمد علي فوق جثث عمر مكرم ومشايخ الأزهر، مرورًا بثورة ١٩١٩ التي انطلقت من الأزهر في بدايتها ثم ركبها سعد زغلول، وثورة يوليو التي كان الإخوان عمادها ووقودها، ثم الحرب الصليبية الأخيرة في العالم الإسلامي، وأخيرًا ثورة ٢٥ يناير التي نعيشها الآن.

في كل هذه الأحداث وغيرها كنا في قلب الحدث، وكنا أخطر وأقوى عناصره، لكننا في عجيبة غريبة انسحبنا وتركنا كل شيء لأيدي المتلقفين واللصوص الذين صعدوا على أجداثنا إلى مأربهم. لا أفهم الآن لماذا صمت الإسلاميون وحدهم وتركوا الجميع يتحدث بلسان الثورة إلا هم؟! لماذا الإسلاميون وحدهم هم الذين يثقون في الحكومة والمجلس العسكري بلا ضمانات واضحة ولا خطة معلنة؟! لماذا ترك الإسلاميون الدفاع عن الثورة وعن حقوق شهدائها للعلمانيين والليبراليين وأصحاب النوايا الخبيثة؟! لماذا فرط الإسلاميون في أصوات الشعب المسكين الذي استأمنهم على رغبته في الاستفتاء الأخير وتركوا العلمانيين يلاعبون المجلس العسكري حتى استصدروا منهم قرارًا بإصدار مواد فوق دستورية تعيق تحويل

مصر لدولة إسلامية وتمنع الشعب من تحقيق أمنياته، ثم زادت الضغوط فأصدر المجلس قرارًا بتعيين أسامة الغزالي حرب - رئيس حزب الجبهة الذي اعترف ساويرس أنه الممول الأكبر له - ليقوم بوضع المبادئ الأساسية للدستور القادم، وهو ما يعني سيطرة علمانية نصرانية على الدستور القادم؟! لما عجز الإسلاميون عن إقالة يحي الجمل عراب الثورة المضادة بينما استطاع عشرات العلمانيين إقالته في ثلاثة أيام؟! لماذا ترك الإسلاميون خيرة أبنائهم يقادون بعد الثورة إلى المحاكم الظالمة لتصفية حسابات قديمة معهم، وحسبك أبو يحي البطل مثالاً صارخًا على هذا، بينما ينجح متطرفو الأقباط في حمل الحكومة على الإفراج عن مجرمين حقيقيين صدرت ضدهم أحكام قضائية نهائية؟!


يحي الجمل

الحقيقة أننا لم نعجز، لكننا لم نحاول أصلاً؛ لأننا لا زلنا نعاني من آثار المذابح التي تعرضنا لها في العهد البائد، لقد مارس النظام البائد ضدنا أبشع ألوان القمع والتعذيب والإبادة على مدار سنوات طويلة حتى استطاع هدم الجسارة والإيجابية والمبادأة والمراغمة في نفوسنا.

وكنت كثيرًا ما أتأمل في استعاذة النبي صلى الله عليه وسلم من «جهد البلاء»، خاصة في تلك الفترات المتعددة التي اعتقلت فيها، حيث كنت أرى البلاء وهو يغير أخلاق الناس وطبائعهم، وأحيانا معتقداتهم.

حين يضغط البلاء على النفس فيصبغها بالجفاء والغربة، وينزع منها مميزاتها وثقتها في ذاتها. وحين تنهار النفوس تحت وطأة البلاء تصبح مغتربة في وطنها، مستسلمة لما يصنع بها، وهذا تحديدًا ما تعاني منه الحركة الإسلامية الآن.

كان الدكتور عبد العزيز كامل حفظه الله ورعاه يكرر على أذني أننا لسنا حركة ولا تيار ولا صحوة، بل نحن الأمة. نحن الأمة بكل ما تحمله الكلمة من ثقل، وبكل ما تحمله من عظمة، وبكل ما تحمله من قوة وبكل ما تحمله من حق، وبكل ما تقتضيه من مسئولية، ومن جهاد ومن عبء.

نحن الأمة بكل قضاياها وبكل حملها وبكل أطرافها وبكل عظمتها، ولابد أن ننهي حالة الاغتراب النفسي التي تشعرنا دائماً أننا على أطراف المشهد ولسنا في قلبه. لابد أن ننهي حالة الاغتراب النفسي التي ورثناها من عهود الظلم البائد، والتي زرعت في نفوسنا أننا دائماً أصحاب صيغة المفعول به وليس الفاعل، وأننا على هامش الحدث ولسنا أصحابه.

لابد أن يقف الإسلاميون الآن في وسط الميدان وفي قلب الحدث باعتبارهم الأمة المسلمة التي يقتات الجميع الآن على خيرها وفضلها، بينما يبقي وكلاؤها غائبين ساهين عن وزنهم الحقيقي وعن دورهم المنشود.

إن الأمة المسلمة سُنة من سنن الله في خلقه، لا يصلح الكون إلا بها وستظل الأمة باقية بلا شك، لكن بأيدي من؟ وبجهد من؟ وبتضحيات من؟ إننا جميعاً نعلم أنه ليس بيننا وبين الله تعالى نسب ولا رابطة ولا صلة سوى هذا الدين. وسيبقى الالتزام به والتضحية في سبيله والرباط على ثغوره هو المعيار الوحيد للبقاء والخيرية.

يا وكلاء الأمة المسلمة! إن أمتكم اليوم في أشد ما تحتاج إلى الجَسور الذي تخلص من جهد البلاء، ومن الاغتراب النفسي عن وطنه وقضاياه، والذي يدرك أنه لا يملك خياراً بالتراجع أو الخنوع أو الاستكانة. وستبقى أمتنا؛ لأنها ملح الأرض، وسيبقي المرابطون؛ لأنهم أبناؤها الشرعيون.

وسيبقى أيضاً المغتربون عنها وعن واقعها، المتقوقعون في مصالحهم الضيقة، ويحسبونها مصالح شرعية. سيبقي هؤلاء طويلاً كما بقي اليهودي التائه في أسطورة العصور الوسطى لا يعرف له غاية ولا تستقر له قدم.

إشـكاليات منهجية

تهدد المشـروع الإسـلامي

د. سعد فياض



فك الله أسره*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه..

في هذه اللحظة الفارقة من التاريخ الحديث يمر التيار الإسلامي بمنعطف خطير إذ انفتحت أمامه كثير من الساحات بعد تضييق وعنت شديد، ولكنه كأي تيار يمر بإشكاليات كما يحوز مقومات، وإن مما يكفل استمراره وتفوقه هو حسن إدارة المقومات والتجاوز الصحيح للعقبات كمطلب لا بديل عنه لتحقيق المراد من هذا التيار على الوجه المقصود شرعاً، وسنحاول هنا التركيز على معالجة بعض تلكم الإشكاليات الخطيرة والتنبيه عليها والدعوة لتجاوزها، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

* سعد فياض، مقال: إشكاليات منهجية تهدد المشروع الإسلامي، موقع (الجبهة السلفية) الإلكتروني، منشور بتاريخ: ٥-٢-٢٠١٤م، رابط: bit.ly/3N66UB8 .

«الممكن» والغياب عن صناعة الحدث

من المقرر في القواعد الشرعية أنه (لا تكليف إلا بمقدور) أو (لا تكليف بمُحال)، كما أن من تعريفات علم السياسة أنها (فن الممكن)، وبين هذين المنطلقين تتأرجح مواقف واختيارات عدد من قيادات العمل الإسلامي؛ رغم أن النتائج والتجارب المتكررة تثبت وجود قصور في ضبط المقصود الشرعي وخللاً في الجانب التطبيقي ، وتوضيح ذلك في نقاط:



١ حد المقدور في الشرع يعتبر أموراً قد لا يعتبرها عامة الناس ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٥ - ٦٦]

فجعلت الآية الحد مؤمناً صابراً لعشرة من الكفار، ثم خفف الله على المؤمنين إلى مؤمنٍ صابرٍ لرجلين، بينما قد يرى الناس أن الرجل للرجلين فوق المقدور؛ بل إن الجهاد في سبيل الله بعينه قد يكون في نظر بعض الناس من غير المقدور إذ في غالب الأحوال يكون المؤمنين أقل عدداً وأضعف عدة.

٢ في قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ [سورة النساء] وفي حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»**. رواه الترمذي، جعل سبحانه استفراغ الوسع في التحريض والقتال سبباً لتنزل العون من الله، وأمر النبي ﷺ باستفراغ الوسع في النهي عن المنكر وإن لم يظهر للمرء مصلحة عاجلة، وهذا أصل إيماني يجب استحضاره حتى لا تغلب علينا الحسابات المادية البحتة والضيقة، أضف إلى ذلك أن السعي في إزالة موانع القدرة مطلوبٌ شرعاً.

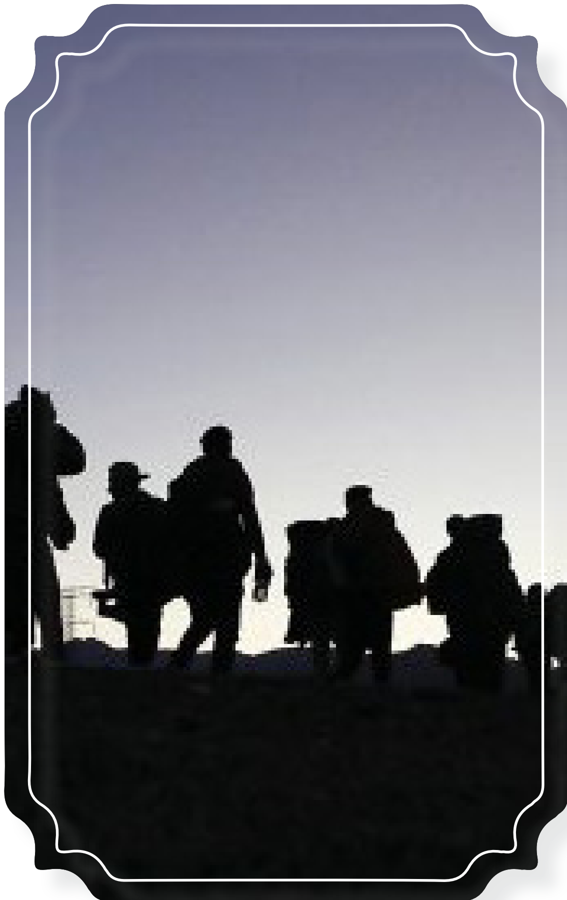


٣ كما أن فهم السلف رضوان الله عليهم وتطبيقهم كانت مختلفة عما يسود بيننا من تطبيقات، وذلك في جهادهم وقيامهم بالحق، فقد أنفذ خليفة رسول الله بعث أسامة، كما سير أحد عشر جيشاً لقتال المرتدين وهو يمد جبهتي فارس والروم في نفس الوقت، كما ثبت الإمام أحمد في الفتنة وحده رغم أن الأذى الذي أصابه رحمه الله كان فوق المقدور في حس غالب الناس، إلا أنه كان يستحضر معاني شرعية زادت من حيز الاستطاعة وتحكمت في حساب المقدور وهو معنى قيام حجة الله في الأرض، فكان يقول: «إذا سكت الجاهل لجهله، وأمسك العالم تقية، فمتى تقوم لله حجة؟». وعلى هذا فذم من يقوم بالحق وتجريم من يقف أمام الظلم هو كذم الخليفة أو الإمام أحمد أو العز بن عبد السلام أو ابن تيمية.

٤ كما أن سيرة النبي ﷺ وسير من اتبعه من المجددين تثبت أن دور قادة الدعوات هو طرق أبواب «غير الممكن» وليس اللعب في حيز الممكن، ففكرة العرض على القبائل هي طرق لأبواب غير الممكن «في حس الناس» فمن يعرف حال العرب وعصبياتهم يعلم أنه من غير الممكن تصور أن تستجيب قبيلة كاملة -أو غالبيتها- للدعوة ثم ترضى أن يهاجر لها المسلمون ليتقاسموا معها الدار والمال ثم يستعدوا العرب ويحاربوهم، دون وشيجة من دمٍ أو نسب، كما أنه ﷺ عقد بعث أسامة لغزو الروم في ديارهم وهذا بالحسابات السائدة ضرب من المستحيل، بل إن الموعودٌ الرباني في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾. مقرونٌ بوصفٍ عجيب وهو التقابل بين المنظور البشري لإمكانية تحقق النصر واقترانه بتحققه، وهذا يستحضر المفهوم الشرعي المتعلق بـ «استفراغ الوسع» وتمام استفراغ الوسع يصل بحملة الرسالة إلى طرق أبواب المستحيل.

فلو نظرنا لسير المجددين في هذا العصر مثل عز الدين القسام أو أحمد ياسين لوجدنا أن ما بذلوه وحققوه بمنطق كثيرين من قادة العمل الإسلامي الآن يصنف في غير الممكن، فالشيخ أحمد ياسين مثلاً قرر توحيد الفرقاء وهو ما قد يعتبره البعض مستحيلاً، ثم جمع المجتمع حول حركته دون أن يكون ذا سلطة أو مال بل ومتهم بجلب الدمار والقتل وهذا بحد ذاته درب من الخيال، ثم جهاد اليهود دون مقومات تُذكر كالحجارة والسكين والمولوتوف، أمام آلة عسكرية عاتية وهو ما يعني عند البعض تقحماً للهلكة و«استخفافاً بالدماء»، ولكن الشيخ أحمد ياسين نجح -بفضل الله- في طرق أبواب غير الممكن وتحويله إلى ممكن، وهذا أمر قديم يعرفه أهل العمل والتغيير؛ ولهذا قال الإمام حسن البنا رحمه الله: «لا تيأسوا فليس اليأس من أخلاق المسلمين، وحقائق اليوم أحلام الأمس وأحلام اليوم حقائق الغد».

٥ من مقاصد أية قوة مستكبرة أن تغرس شعوراً في حس خصومها بأن زوالها «غير ممكن»، وأنها تتحكم في حيز الممكن وغير الممكن، ومن هذا قول الملك المتجبر لإبراهيم: **أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**، وهي بذلك تبني صروحاً وهمية في نفوس أتباعها وتسعى لإضعاف عزيمة أعدائها في معركة الإرادة، ولذلك فضبط «الممكن» على موازين المستكبرين هو سقوط في هذا الفخ.



٦ كما أن اعتبار المقدور لا يدخل فيه الحسابات الضيقة؛ فالتنازل عن الرياسة مقدور، والصبر على بعض الأذى مقدور، والتعاون مع من اختلف معهم أو نرى أنفسنا فوقهم علماً أو مكانة مقدور، فمثل هذه الحسابات لا تدخل في الاعتبار الشرعي، ولا يصح الكلام عن الممكن والمقدور قبل إصلاحها، ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾. [سورة النساء] فلم يُعتبر التعلل بالاستضعاف مع وجود حلول قد لا يضعها الناس في حساباتهم ركوناً وضعفاً.

٧ وأخيراً أذكر نفسي وإخواني بقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة التوبة : ٨٦ - ٨٧] فذم الله تعالى أصحاب القدرة (أولو الطول) إذا تعللوا بعدمها للتخلف عن مواضع يجب عليهم فيها التقدم، وجعل ذلك من صفات المنافقين، وفي هذا زجر وتخويف لمن يتعلل بعدم القدرة وهو يمتلكها.

فالمقصود أن تبرير انخفاض سقف الأهداف والرضا بالأمر الواقع والتأخر عن مواطن المواجهة باعتبارها غير ممكنة، هو خلل منهجي يحصر الصحوة الإسلامية في الحيز المسموح لها من قبل أعداءها ضاق أو اتسع، وقد يكون ذلك بحسن نية أو استجابة للضغوط ولكنه في المحصلة يمنع الصحوة من «صناعة الحدث» ويجعلنا على أفضل الأحوال متعاملين بصورة جيدة مع الحدث، وهو ما لا تحمله هذه المرحلة من تاريخ الأمة.



تراجع الدور الرباني تبعاً للممارسة السياسية

بينما تكفل الله لهذه الأمة بحفظ كتابه فإن وصف الربانية قد بقي فيها باعتباره امتداداً لميراث النبوة ومتمثلاً في تحقيق قضية الشهادة به وعليه بكل ما تعنيه الشهادة من معان؛ كالقضاء به والعدل بموجبه وتعليمه والتربية عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ [المائدة: من آية ٤٤] بل إن هذا الدور يتعدى واقع الأمة إلى البشرية جميعها، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وبهذا القيام بالحق انتشر الإسلام ودخل الناس فيه أفواجاً. وهنا نقاط:



١ هذا الدور من القيام بالشهادة والصدع بالحق يشهد ضعفاً على الجملة مما أدى إلى التجرؤ على مقام العلماء وأفقد الناس الثقة فيهم، وصار من الأسباب الرئيسية في تشرذم الصف الإسلامي إذ تغيب فيه الزعامة الشرعية التي يحتمي الناس بها وتتسع لهم وتنتصر لقضاياهم وقضايا الأمة، بل -وللأسف الشديد- فإن بعض المتصدرين من الشيوخ يقوم بعكس ذلك فلا يتذكر الكلام في أية قضية من قضايا الأمة إلا عندما يتحرك الشباب؛ ليخبروهم بأن تحركهم كان خاطئاً لأنه لم يخرج من عباءة الشيوخ، وكان الأولى أن يتقدموا هم بالفعل الصحيح ليقوموا بواجبهم في الشهادة بالحق.

٢ أضف إلى ذلك أن هذا الدور يحكمه قيمة «إقامة حجة الله في الأرض» وهو ما يختلف عن الممارسات السياسية التي لا تلتفت إلا لموازين القوة، «فالحق فوق القوة» والأصل أن أهل العلم هم القادة وهو ما ليس متحققاً اليوم في واقع الناس اليوم، وخلل منهجي ألا تكون مقاييس السياسة منبثقة من معيار الحق نفسه قبل أن تحكم قول الحق أو السكوت عنه، ولهذا فإن ما يترخص به للعامي لا يترخص به للعالم بخلاف المفهوم المقلوب الشائع أن الدعاة والعلماء يترخص لهم أكثر من غيرهم خوفاً عليهم أو على الدعوة، والحق أن الرخصة في حقهم أضيق والعزيمة أوجب، وهذا ما كان عليه الأولون كالإمام أحمد رحمه الله وغيره.

٣ والأسوأ من ذلك عندما يختار شيخاً أو عدداً من الشيوخ خياراً سياسياً مع عدم امتلاك أدواته وافتقاره لمعطيات الواقع، ثم يتم تصويره على أنه اجتهادٌ علمي مبني على الدليل، بل وإنزاله محل الإجماع واتهام المخالف بالانفراد ويتعدى الأمر إلى شر من ذلك إذا كانت المحصلة النهائية هي الركون إلى الذين ظلموا ومنحهم فرصة للتسلط بقصدٍ أو بغير قصد.

السقوط في معركة المبادئ

تقوم الليبرالية على مبدأ «الحرية» يقول معتز عبد الفتاح : «وأرجو ابتداء أن أوضح أن الليبرالية المقصودة هنا ليس معناها «عشق الرذيلة» أو «احتراف الشذوذ» وإنما مساحة من التسامح السياسى مع الحرية الشخصية التى تضمن أن يظل الإنسان آمناً من تغول السلطة أو تدخلها فى الحياة الخاصة للمواطنين طالما أن هذه الحياة الخاصة لا تنعكس سلباً على استقرار الأوضاع السياسية وبما يهدد سلطة الدولة أو يهدد النظام العام».

هذا الكلام يوضح الفهم الدقيق الذي تستند عليه الليبرالية في مصر، وهو مفهوم يتغنى بالتحرر من تغول السلطة التي عانت الشعوب منها الكثير، وعلى التوازي يرفع اليسار شعار «الثورة الدائمة» أو «الثورة مستمرة» ليظهر بمظهر المطالب بالحقوق الرافض للظلم بأي صورة كان. وهذه التيارات تعتمد في حربها ضد التيار الإسلامي على إسقاطه في ميدان المبادئ، وبعض الأمثلة تساعدهم في ذلك:



- دعوتنا الناس للتصويت بنعم، ثم سكوتنا على تجاوز المجلس العسكري النتيجة وإضافة مواد تعطيه صلاحيات لم يتم التصويت عليها.
- تظاهر عشرات الآلاف بسبب رفع قضية أمام القضاء ضد شيخ فاضل، بينما نسكت عن كشف العذرية للبنات من قبل الشرطة العسكرية.
- خروج الحركات الإسلامية في مظاهرات حاشدة عند سقوط مرشحها في انتخابات غير نزيهة بإحدى الجامعات، ثم تراجعها قبل توافق الناس لحسابات خاصة.
- السكوت عن سحل بعض المواطنين وإلقائهم في القمامة وترديد بعض أكاذيب الداخلية، خوفاً من تأجيل الانتخابات.

ويجدر هنا التنبيه على نقاط:

١ أهمية تقرير المبادئ واسترداد المفاهيم على أرض الواقع وليس في البرامج الحوارية، فمفهوم الحرية والكرامة والشهامة والنصرة مفاهيم عظيمة في الإسلام وعناية الإسلام بها أعظم من عناية أي مذهب أرضي لها، والانشغال بالمعارك السياسية والإعلامية فقط لإقرار تلك المفاهيم خطر يهدد جميع الساحات، وكما ذكر الشيخ حازم صلاح حفظه الله كيف نتغنى بالمعتصم ونصرته لامرأة صرخت «وامعتصماه»، ثم لما يستنصرنا الناس نتركهم؟



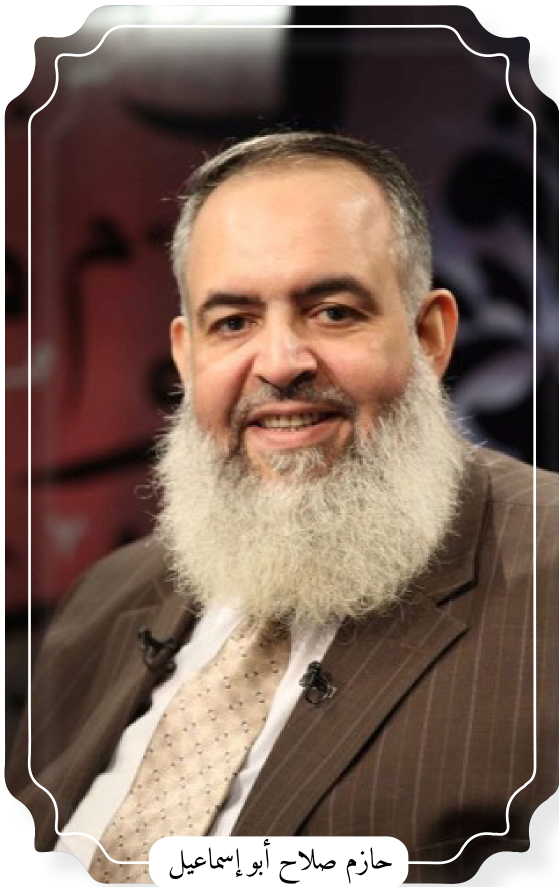
٢ لنتعلم من هذا الموقف العظيم عندما أدى النبي ﷺ الأمانات إلى قريش، بل وترك علياً رضي الله عنه وفي ذلك تعريضه للخطر، ثم خرج بعد أقل من سنة لاعتراض قافلتهم ليسترجع أموال المهاجرين؟! فلا يكفي الاستدلال بالشق الأول للتدليل على سماحة الإسلام، بل ينبغي جمع الأدلة لنفهم كيف تكون قيمة المبادئ دون التنازل عن الحقوق، مع أن الاختيار الثاني سيصاحبه ولابد إراقة في الدماء، فهو صلوات ربي وتسليماته عليه منزه أن يأخذ من الأمانة ليرد الحقوق، كما أنه يأبى أن يتنازل عن حقوق المهاجرين المسلوبة، فيرد الأمانات ويجهز الجيش لاسترداد الحقوق.

٣ خطورة الاستهانة بنبض الجماهير فضلاً عن التعالي عليهم بدلاً من الالتحام بهم، بدعوى عدم الانجرار خلف العوام، فقوة الصحوة الحقيقية في انحياز الشعوب المسلمة لها، وأذكر أن حواراً دار بين بعض الفضلاء وقيادات في حماس حول الكلام عن هدنة كاملة مع اليهود فقال له ما معناه إن حماس لو فعلت ذلك لانتهى انحياز الناس لها، وأن الناس اجتمعت حولها لإيمانهم بحملها لقضيتهم، والمتطلع في كلام المناهضين للإسلاميين سيشهد أنهم يقامرون على هذه النقطة تحديداً.

٤ ولنتذكر أن النبي ﷺ الذي عقد صلح الحديبية رغم اعتراض بعض الصحابة هو من خرج بنفسه بعد عام لفتح مكة بسبب اعتداء قريش وحلفائها من بني بكر على خزاعة وكانوا قد دخلوا في جواره، فلما ظُلموا سارع لقتال قريش.

٥ والمشكلة الخطيرة هي في الهجوم على الشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل رغم ما حققه من احترام لأصحاب الخيار الإسلامي، حتى أن أنصار الأفكار الليبرالية كانوا في الميدان يعلنون حبهم واحترامهم الكبير له وكما قال أحدهم: «**هذا الرجل أثبت أن مبادئه وقيمه مقدمة عنده على الحسابات السياسية**»، إن هذه الشهادة انتصارٌ كبير للصحوة الإسلامية وليس لشخصه، وهي تعني تقريب هذه الجموع المتزايدة من الشباب نحو المنهج الإسلامي، وهو مقصد شرعي.

هذه بعض الاشكاليات المنهجية الخطيرة التي تهدد الفاعلية والمرجعية والمصداقية، فالسجن الاختياري داخل حيز «الممكن» يهدد الفاعلية ويحكم علينا بالدوران في حيز المسموح ويمنعنا من الدور الريادي للبشرية في لحظة فارقة تشهد تهاوي امبراطورية عاتية، وانحسار دور الربانية بالشهادة بالحق يهدد المرجعية في التيار الإسلامي والتي ينبغي أن تمتد لتكون مرجعية أوسع من الوسط الإسلامي مما ينعكس على تماسك الصف ومحورية دوره في الأمة، وإخلاء ساحات بعض المبادئ ليتاجر البعض بها في ظل تراجعنا عن القيام بها يهدد المصداقية وقد يؤذن بانصراف الناس عنا إن تجاوزت هذه التيارات إشكاليتها التي تعوقها.

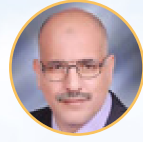

حازم صلاح أبو إسماعيل

وفي النهاية أرجو أن تكون هذه التذكرة خطوة في مراجعة ترشيدية تهدف النهوض بالتيار الإسلامي، فأهله على الجملة هم خيار هذا الزمان، والرجاء في المولى عز وجل أن يجمع الكلمة ويصحح النية ويسدد الرمي، والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

عالمية الإسلام

العرب والعجم في خدمة السنة الشريفة

أ. يحي البوليني



كاتب وباحث

رسالة الإسلام هي الرسالة السماوية الخاتمة التي أنزلت على سيدنا محمد للناس كافة، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]. ونبينا محمد نبي عربي وكذلك أُنزل القرآن بلسان عربي مبين، ورغم هذا لم يتحيز الإسلام للعِرق العربي بل جعل الناس كلهم متساوين أمام أحكامه وواجباته ونواهيه؛ فلم يفضل عرقاً ولا لوناً ولا جنساً، فلا فضل لأي منهم على الآخر إلا بالتقوى.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ خُطْبَةَ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»[1].



ولذا جعل الله في القرآن الكريم التقوى هي المعيار الأول للتفاضل بين الناس فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وأكد النبي ﷺ هذا المعيار للنجاة مُنحيا النسب والعشيرة والمال وكل شئ جانبا، فلم يجعل لهم قيمة للمرء إذا ساء عمله فقال: «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[2].

بل جمع نبينا محمد ﷺ أهله وأقرب الناس إليه وطالبهم بحسن العمل للنجاة من العقاب، وأعلمهم أنه ليس بين الله وبين عباده نسب، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ شَيْئًا سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ»[3].

ولذا ضمت الكوكبة الأولى من صحابة النبي ﷺ الذين أسلموا وتربوا على يد الرسول ﷺ العرب والعجم معاً، وبهذا ذابت الفوارق بين الناس وانتشر الإسلام بعدهم في كل أرجاء الأرض، فكان من العجم بلال بن رباح ووحشي بن حرب وأم أيمن حاضنة الرسول ﷺ كانوا من الحبشة، وكانت أم المؤمنين مارية بنت شمعون وأختها سيرين بنت شمعون أقباطاً من مصر، وكان سلمان فارسياً وكرّمه النبي الكريم ﷺ ونسبه إلى آل بيته، وكان صهيب رومياً وكذلك كان فيروز الديلمي، وكان عداس من أهل نينوى، فلم يفرق الإسلام بينهم جميعاً وبين العرب، فكلهم لهم فضل السبق والصحبة ولم تكن بينهم تلك العنصرية البغيضة.

---

١. شعب الإيمان للبيهقي، (١٣٢/٧).
٢. رواه الإمام مسلم في صحيحه وغيره.
٣. رواه مسلم.



وهكذا رأى غير العرب من بعدهم حينما دخلوا الإسلام المساواة الكاملة بين كل المسلمين في الحقوق والواجبات وعدم التفرقة بينهم وبين غيرهم من الناس، فالكل سواسية أمام الله عز وجل، لذلك بذلوا جهدهم في قضايا الأمة مثلهم مثل العرب سواء بسواء.

ومن أهم العلوم التي اهتموا بها بعد علوم القرآن الكريم علم الحديث الشريف، وهو الذي يجمع الروايات عن رسول الله ﷺ ومن ثم يميز الصحيح منها من السقيم، حرصاً على السنة النبوية الشريفة التي هي المصدر الثاني للتشريع، امتثالاً لأمر الله سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧].

فبذلوا جهداً عظيماً فيه لجمع الأحاديث نظراً لتفرق الصحابة رضوان الله عليهم في الأمصار بعد وفاة النبي الكريم ﷺ، ولم يتركوا حديثاً منسوباً للرسول ﷺ إلا وجمعوه، فاحتاج الأمر منهم إلى سنين كثيرة وسفر دائم وتفرغ كامل وجهد شاق لجمع الأحاديث لينقّوها أو ينقيها مَن بعدهم، مما قد يدس عليها أو يخطئ فيها بعض الرواة عمداً أو سهواً ونسياناً.

ومن اللافت للنظر أن أشهر الكتب التي جمعت أحاديث النبي ﷺ -وهي الكتب الستة المشهورة- لم يكن مؤلفوها من العرب بل كانوا من الأعاجم، وتلقتها الأمة بالقبول ولم يجد أي مسلم غضاضة في ذلك لاستقرار فكرة عالمية الإسلام عند كل المسلمين منذ أول يوم، فلم يأبه المسلم بجنسية ولا لون ولا عرق صاحب الكتاب لأنه يعلم أن جنسية المسلم تمثل في عقيدته فحسب.

رحلة أصحاب الكتب الستة

وفيما يلي نبذة عن أصحاب الكتب الستة ورحلتهم في طلب وجمع الأحاديث:

الإمام محمد بن إسماعيل البخاري

وهو من مدينة بخارى وتلك من دولة أوزباكستان الحالية. نشأ يتيماً فبدأ طريقه في طلب الحديث الشريف في سن قبل العاشرة، ثم رحل إلى مكة وإلى غيرها من مدن العالم الإسلامي لمدة ستة عشر سنة كاملة، تمكن فيها من جمع ما يقارب ستمائة ألف حديث منما يقرب من ألف محدث، ثم تخير أصح الصحيح منها في كتابه (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، وبذل جهده لخدمة الحديث الشريف على مدى عمره كله، وتُوفي عن اثنين وستين عاماً.

الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري

من مدينة نيسابور وهي في دولة إيران الحالية، فبدأ بطلب العلم في بلدته أولاً ثم انتقل إلى العراق والحجاز، وجمع الأحاديث الصحيحة في كتابه الذي انتهى منه بعد خمس عشرة سنة من الرحلة في جمع أحاديثه والانتقاء منها، وتوفي عن سبعة وخمسين سنة.

الإمام النَّسائي أحمد بن شعيب

وهو من مدينة نسا بخراسان في دولة تركمانستان الحالية، وبدأ بطلب العلم في المدن والبلدان الإسلامية حتى وصل إلى مصر واستقر بها فترة ثم رحل إلى دمشق، كتب كتابه المعروف بسنن النسائي وتوفي عن خمسة وثمانين سنة.

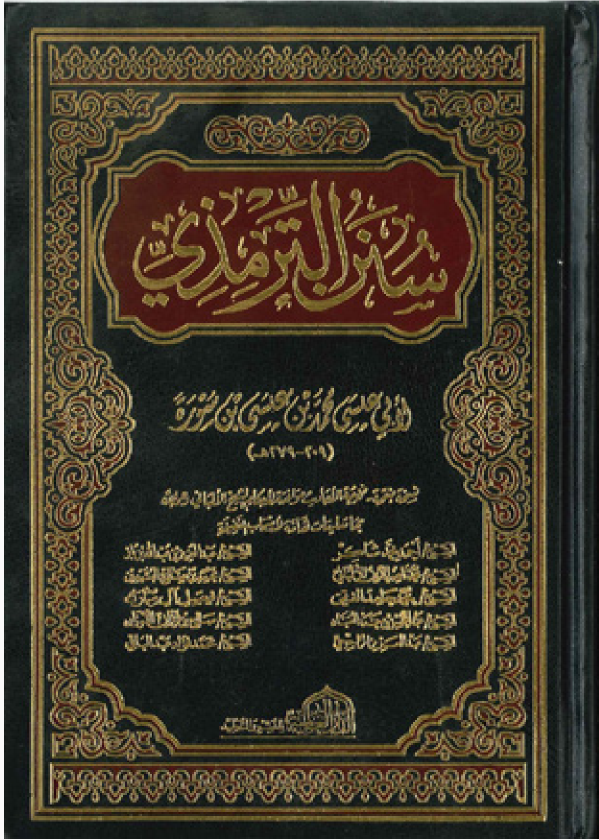


الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني

من مدينة سجستان في دولة إيران الحالية، وبدأ الهجرة لطلب العلم من بغداد ومنها إلى الحجاز والعراق وخراسان والشام ومصر وغيرها، وكتب كتابه (سنن أبي داود)، واستقر بالبصرة وتُوفي بها عن ثلاثة وسبعين عاماً.

الإمام أبو عيسى الترمذي

من مدينة ترمذ وهي في دولة أوزباكستان الحالية، وقد قام برحلته أيضاً في طلب العلم والحديث الشريف بدءاً بخراسان ثم العراق والحجاز، حتى أتم كتابه في السنن وله كتب أخرى غيره، وكف بصره آخر عمره ومات عن سبعين عاماً.



الإمام ابن ماجه محمد بن يزيد القزويني

وهو من مدينة قزوين في دولة إيران الحالية، ورحل في طلب العلم البصرة والكوفة وبغداد في العراق وإلى مكة والشام ومصر والري، وكتب كتباً أخرى بخلاف كتابه السنن، وتوفي عن أربعة وستين سنة.

وبهذا انضمت هذه الكوكبة من العلماء الأعاجم إلى إخوانهم العلماء العرب أمثال الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة صاحب الموطأ، والإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني صاحب المسند، ومحمد بن شهاب الزهري وغيرهم الذين كانوا في مرحلة مهمة من تدوين أحاديث النبي ﷺ لجمعها وتبويبها للحفاظ عليها من الضياع أو الاندثار.

وكان جهدهم المبذول في رحلاتهم لجمع الأحاديث كبيراً وعظيماً، ولذا لم يشترط معظمهم الصحة في الأحاديث باستثناء البخاري ومسلم اللذين قاما بجهد مضاعف بدءاً من مرحلة الجمع ثم التصحيح والانتقاء وبيان علل الأحاديث، أما أصحاب السنن فلم يشترطوا ذلك، ولكنهم لم يوردوا في كتبهم أي حديث ضعيف بغير إسناد لكي يُيسروا على مَن بعدهم التدقيق والتحقيق في كل الأسانيد التي أوردوها، تاركين ميراثاً ضخماً من الأحاديث التي تحتاج إلى التصحيح فجزاهم الله خير الجزاء، وقد نبهوا على ذلك في مقدمات كتبهم لبيان مناهجهم.

وخلال قرن واحد من الزمان كان مبعثهم جميعاً ليقيّضهم الله سبحانه وتعالى لخدمة دينه والذب عن سنة رسوله ﷺ، فوُلد أقدمهم سناً الإمام البخاري في السنة الأربعة والتسعين بعد المائة هجرية، بينما مات آخرهم الإمام النسائي في السنة الثالثة بعد المائة الثالثة هجرية، فكأن الله ابتعثهم وجمعهم لأداء هذه المهمة الجليلة وهي مهمة الحفاظ على أحاديث النبي الكريم ﷺ من الاندثار أو الدس أو التقوّل عليه بما لم يقله، وأتموها بفضل الله، ودلوا الناس على صحيح سنة نبيهم بعد تفرق العلم في الأمصار وخُشي عليه، فما من مسلم الآن -إلا ما ندر- يروي حديثاً ثابتاً عن النبي ﷺ إلا ويذكر واحداً أو أكثر من هؤلاء الأئمة الأعلام رضي الله عنهم، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين أعظم الجزاء، وما أعظم دعاء النبي ﷺ لهم كما رواه البزار بسنده عن أبي سعيد الخُدري عن النبي ﷺ، أنّه قال في حجة الوداع:

«نَضَّرَ اللهُ امرءاً سمع مقالتي فَوَعاها، فَرُبَّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيه»[٤].

٤.صحيح لغيره ذكره الألباني رحمه الله في (صحيح الترغيب والترهيب)، (١٠٤/١).

أنصار النبي ﷺ

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

@ AnsarMagazine

الأمين العام للهيئة
د. محمد الصغير

رئيس التحرير
محمد إلهامي